برتقالة جدتي

رواية

وليد عودة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2021 م - 1443 هـ

ردمك 978-614-01-3260-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

1

فزتُ بالمقعد المجاور للنافذة بعد أن نجح مِقَصي في قطع ورقة أخي. أمي تقول أننا كبرنا على لعبة حجرة ورقة مقص، بينما يعتبرها والدي الطريقة المُثلى لإنهاء الخلافات. جلس هيشو بجانبي مُتبرّمًا بعد أن انصاع للنتيجة التي لم تأت على هواه هذه المرة. الفارق في العمر بيننا كبير، هو في العاشرة من عمره، بينما أتخرج أنا من المدرسة الثانوية هذا العام. بنت وولد، لم يُرزق والدانا غيرنا.

أنظرُ من النافذة فلا أرى سوى لوحة بيضاء. لا أعرف كيف ستقلع الطائرة في مثل هذا الجو. عندما خرجنا من المنزل في الصباح الباكر كانت درجة الحرارة تقترب من العشرين تحت الصفر. صحيح أننا معتادون على التعايش مع البرد وقد وُلدنا هنا، لكننا ما كنا لنفوّت فرصة السفر إلى بلد أدفأ. اعتدنا كل شتاء أن نستغل العطلة المدرسية للسفر إلى دبي، فجوّها المعتدل مثالي للهرب من زمهرير كندا، لكننا لم نلتزم بالخطة هذا العام وقررنا السفر إلى بلد آخر.

تنتهي المضيفة من التذكير بإجراءات السلامة وأشعرُ باستعداد الطائرة للتحرك. في المقعد خلفنا تجلس أمي متوترة

مغمضة العينين وتتشبث بذراع والدي. هذا ديدنها مع إقلاع الطائرة وخلال هبوطها. أتساءل في نفسي عن موقف طلاب وطالبات الجامعة الذين تدرّسهم أمي في كلية الاقتصاد إذا رأوها وهي ترتجف خوفًا هكذا. أبتسمُ فينهرني والدي بعينيه. يُربّتُ على يديها مُطمئنًا.

«بابا، صورة؟» يعلن هشام بابتسامة بلهاء فتفتح أمي عينيها وترميه بنظرة يعرف ترجمتها جيدًا فيعتدل في جلسته وينظر أمامه في صمت.

يجفل والدي عندما يرن هاتفه. يتكلم باقتضاب بصوت منخفض وتذكّره أمي بان يجعله في وضع الطيران.

«ألم تخبرهم في المستشفى أنك في إجازة؟ أتمنى أن لا ينغصوا علينا باتصالاتهم التي لا تتوقف» تأففت أمي.

«هذا أحد المرضى الذين أتابع حالتهم. كما تعلمين فأنا أعطي رقمي الخاص للبعض من ذوي الحالات الحرجة للتواصل معي عند الضرورة». هزت أمي رأسها ولم تُعقب.

والدي يوسف الباتع أو Joseph Albate كما سجله جدي في الأوراق الرسمية كي يخفي جذوره العربية خوفًا من التفرقة العنصرية التي لم يكن واثقًا من خلو كندا منها في ذلك الوقت، هو طبيب استشاري متخصص في الأورام الخبيثة ويعمل في مركز الأميرة مارجريت للسرطان في تورونتو. اعتدنا أن يتلقى اتصالات من المستشفى ومن المرضى طوال الوقت، وكثيرًا ما كان يضطر لترك ما بيده أو القيام عن الطعام أو الاستيقاظ من النوم

والمغادرة فورًا إلى المستشفى الذي يبعد نصف ساعة عن منزلنا الذي اختار أبي وأمي أن يكون خارج تورونتو في مدينة مسيساغا المجاورة والهادئة نسبيًا مقارنة بتورونتو الصاخبة والمزدحمة. لم يسبق لي أن رأيته منزعجًا من ضغط العمل أو كثرة الاتصالات لكنني رأيته في أحيانٍ كثيرة يبدو متأثرًا عند تلقي خبر وفاة أحد مرضاه خاصة الأطفال منهم. كثيرًا ما كانت أمي تجادله وتتساءل عن سبب اختياره لهذا التخصص الذي تراه يسبب الاكتئاب «لا يكاد أحد ينجو من الموت بعد إصابته بالسرطان وأنت تزيد الأمر تعقيدًا فتتخصص في أورام الدماغ وكأنك تتعمد البحث عن الحالات التي لا ينجو منها أحد». كان يجيبها بأنه اختار هذا التخصص تحديدًا لأن والده توفي بورم خبيث في الدماغ، وأنه أخذ عهدًا على نفسه أن يكرس حياته للبحث عن علاج، فهو ليس مجرد جراح أو طبيب ممارس، هو أيضًا باحث نشط وقد نشر الكثير من الأوراق العلمية في هذا المجال. لا أبالغ عندما أقول أن والدي هو قدوتي في هذه الحياة، وقد ألهمني لأختار تخصص التكنلوجيا الحيوية وهندسة الجينات.

تبدأ الطائرة في الحركة أخيرًا بعد أن هدأت الريح تمامًا في الخارج. أنظر إلى هيشو فأجده يدندن بأغنية كورية بينما تلعب أصابعه بمكعب روبيك يرتب ألوانه في ثوان ثم يعيد خلطها وإعادة ترتيبها بشكل آلي. هو مولع بالروبوتات وينوي أن يجعلها تخصص دراسته ومجال عمله في المستقبل.

ترتفع الطائرة في الجو أخيرًا ويخبرنا القبطان أن الرحلة

ستستغرق عشر ساعات ونصف في رحلة مباشرة إلى تل أبيب.

هذا العام اقترحتُ أول الأمر من باب المزاح أن نزور المدينة التي ينحدر منها والدي وهاجر منها جدي وجدتي قبل عشرات السنوات. كانت مجرد فكرة طارئة وغير جدية لكنها أعجبت والدي كثيرًا وحتى أخي هشام تحمس لها. لم تتشجع أمي في البداية وكانت تفضل أن نذهب إلى دبي كما اعتدنا كل عام، لكنها استسلمت بعد إلحاح منا وبعد أن ذكرها أبي أنها فرصة لنزور أرض آبائنا وأجدادنا. أبي تعود أصوله إلى مدينة يافا «عروس فلسطين» كما كان يخبرنا دومًا، أما عائلة أمي فكانت تسكن مدينة حيفا قبل أن يُرحلوا قصرًا عام 1948 ويتم تهجيرهم. وهكذا قام والدي باستئجار شقة مفروشة في يافا عن طريق الانترنت، ومن يومها وكلنا حماس وفي لهفة لتطأ أقدامنا أرض فلسطين.

2

قضيتُ الأيام السابقة للسفر وأنا أسترجع ما قرأتُه وما أخبرني به والداي عن فلسطين. كنت متعطشة لأعرف كل شيء عن ذلك البلد الذي نجح والدي في ترسيخ حبه في قلبي حتى قبل أن أتعلم القراءة والكتابة. التهمتُ رواية «الطنطورية» لرضوى عاشور التهامًا في يومين اثنين، وإذا بي أعيش معها ما عاشه جدي وجدتي من مرارة التهجير واللجوء والاقتلاع من الأرض. شاهدتُ مسلسل التغريبة الفلسطينية لحاتم علي فازددت تعلقًا بوطن لم أره بعيني أو ألمس ترابه أو أتنفس هواءه. ثمانية عشر عامًا قضيتها في بلد ولدت فيه ولم أستطع أن أنتمي إليه. أحب كندا وأحب أهلها باختلاف أعراقهم ومشاربهم، ولكني لم أستطع يومًا أن أشعر نحوها بالحنين. لا تغدو في نظري أن تكون سوى أرض باردة زمهرير منزوعة الروح فلا طعم ولا لون ولا رائحة. لطالما شعرت أن روحي معلقة بأرض أخرى لا تمت لمكان ولادتي بصلة. وكأني زهرة اجتثت من حقلها لتُزرع في بيئة غريبة لا تصلح لها. لا أعرف كيف سيكون شعوري عندما أزور فلسطين، وهل ستنجح أرض أجدادي في تحريك عاطفتي نحو وطني الأم؟

«لانا، لانا» أعادني إلى الطائرة نداء هشام ينبهني أن المضيفة تسألني عن اختياري لوجبة الغداء. طلبتُ وجبة نباتية تناولتها على مهل وعقلي لا يزال نصف شارد. أنا وأخي نعتبر من الجيل الثالث للمهاجرين، فجدي جاء إلى كندا لاجئًا وهو في ريعان الشباب. وُلد أبي في كندا ومن بعده ولدت أنا وأخي. أجيال ثلاثة ولا زلنا نحنُّ إلى فلسطين. لم تطمس الغربة هويتنا كما فعلت بكثير غيرنا. يعود الفضل في ذلك إلى جدي ووالدي من بعده، فنحن الوحيدون بين أقراننا من أبناء الجالية العربية نتحدث العربية بطلاقة، ذلك أن جدي حرّم على والدي وبقية إخوانه وأخواته التحدث بغير العربية في المنزل وكذلك فعل والدي معنا. لا أنكر أن بعض الكلمات الانجليزية تفلت منا لا إراديًا أثناء الحديث وربما نجد صعوبة في فهم بعض المصطلحات باللهجة الفلسطينية الدارجة، إلا أن لغتنا العربية سليمة وبعيدة عن الركاكة بفضل قراءتنا للقرآن ولعشرات الكتب العربية التي حرص والدي على توفيرها لنا وتشجيعنا على مُطالعتها.

انتهيت من تناول الطعام ونهضت من مقعدي وتوجهت إلى دورة المياه في مقدمة الطائرة. لم أستطع أن أغفل تأمل تلك العائلة التي مررت بها في طريقي. الأب متشح بالسواد ويعتمر قبعة بنفس اللون تتدلى منها جديلتان ويقرأ في كتيب صغير. الأم ملابسها ريفية داكنة تُحدث بلكنة غاضبة ولدها الذي غطى رأسه بطاقية صغيرة مستديرة تتوسطها نجمة سداسية. سبق لي أن رأيت عائلات شبيهة بهم في كندا، ولكن لم تتح لي الفرصة للتعرف

إليهم عن قرب. أسمع عن عاداتهم وطريقة عيشهم المختلفة، ولكني لم أعاين أيًا منها بنفسي. مشاعري نحوهم محايدة. في مدرستي زاملتُ كثيرات من مختلف الأديان، ولم تكن لدي أحكام مسبقة نحوهم. أتقرب ممن يشبهني وأحترم من يخالفني ما دام يبادلني نفس الاحترام. مشاعري مختلفة تجاه من سلب أرضنا وشرد أجدادنا واقتلع زرعنا واستولى على منازلنا ثم سعى لطمس هويتنا ومحونا من التاريخ. لا أستطيع أن أضعهم في سلة واحدة مع أولئك الذين لم يسرقوا ولم ينهبوا ولم يسيئوا. لا أدري حقًا كيف سأتحمل مخالطتهم عندما نسكن في يافا قريبًا منهم.

عدت إلى مقعدي فوجدت والدي مقطب الجبين. سألته عن سبب انزعاجه فرد علي: « تصوري يا لانا، تفقدتُ بريدي الالكتروني لأجد أن صاحب الشقة التي اتفقت معه على استئجارها قد رجع في كلامه ورفع قيمة الإيجار وهو يخيّرنا بين القبول بالسعر الجديد أو تركها ليؤجّرها لعائلة أخرى تصل اليوم أيضًا».

«ألم تدفع مسبقًا؟ هل يستطيع فعل ذلك؟» سألته باستهجان.

«للأسف لم أجد شقة مناسبة على موقع Airbnb فلجأت إلى موقع محلي يتم الدفع فيه عند الوصول ويبدو أنه معد خصيصًا لخداع أولئك الذين لا يجدون حجزًا في المواقع الموثوقة».

«وماذا تنوي أن تفعل؟ لا أدري كيف خاطرت بالاعتماد على حجز في موقع غير موثوق» سألت أمي بقلق.

«حجزت غرفة في أحد الفنادق في تل أبيب عن طريق موقع Booking، سنقضي بضعة أيام فيها ريثما نجد شقة مناسبة. الفندق متواضع إذ جميع الفنادق الراقية محجوزة بالكامل» لم يبد والدي راضيًا عما حصل وقد اعتاد أن يكون لديه خطة كاملة للسفر.

«ألم أخبركم أن دبي أفضل؟ مُحال أن نتعرض لموقف مماثل هناك» زفرت أمي بنفاد صبر. لم يرد والدي واكتفى بأن أومأ برأسه في صمت.

«بداية غير مبشرة بالخير» فكرتُ في سري وإن حاولت أن أتفاءل بالخير فقلت بصوت مسموع «لا بأس، هكذا ربما أفضل، ستتاح لنا فرصة تفقد الشقق بأنفسنا قبل استئجارها بدل أن تُفرض علينا شقة وفقًا لصور ربما تكون مزيفة أو لا تعكس الحقيقة».

ابتسم والدي وشكرني بعينيه بامتنان على طاقتي الإيجابية كما يسميها «نعم، لعله خير إن شاء الله».

3

حاولتُ أن أستغل ساعات الطيران الطويلة بما هو مفيد. طالعتُ أحد الكتب حتى إذا شعرت بالملل تصفحت بعض المواقع الالكترونية وتراسلت مع صويحباتي المقربات ثم بعد ساعة أو نحوه عدت للقراءة. لم أشعر بنفسي عندما ذبلت عيناي وغفوتُ في مقعدي غير المريح. رأيتُ فيما يرى النائم إحدى المضيفات وقد اقتربت منا لتخبرنا أنها تلقت شكوى من بعض الركاب بخصوص سلوكي الشائن تجاههم وتعمدي ازدراءهم وأشارت بعينيها إلى العائلة التي مررت بها في طريقي إلى دورة المياه. حاول والدي أن ينفي التهمة عني، ولكن دون جدوى إذ أصرت المضيفة على أننا يجب ألا نتحرك من مكاننا إلى أن تهبط الطائرة وعندها سيتولى أمن المطار التحقيق معي. فكرتُ في نفسي -وأنا أعلم أنني أحلم- أنني لم أفعل ما يستدعي كل ذلك، لقد مررت بهم بسلام ولم أوجه لهم كلمة واحدة. تركتنا المضيفة بعد أن تعهدتُ بأن لا أتحرك من مكاني. لا تكاد تمر ثوان معدودة حتى تقترب منا مضيفة أخرى تعيد على مسامعنا ما قالته زميلتها. أُخبرها أن مضيفة قبلها نقلت لنا ذلك وأني تعهدت بأني سألزم مقعدي طوال الرحلة. تغضب المضيفة وتقول «ما

دمتِ قد تلقيتِ تحذيرًا مسبقًا، إذًا لماذا لا تزالين ترمقين تلك العائلة المسالمة بنظرات حاقدة يتطاير منها الشرر؟» أرفع حاجبيّ باستغراب وأنظر نحو العائلة المشتكية. «ها أنت تعيدين الكرة، لا تنظري نحوهم» وتشيح بيدها وجهي بعيدًا. أشعر بالغضب يتصاعد في نفسي وأهمّ أن أرد عليها بما يسكتها ويوقف تماديها.

«لانا، لانا، استيقظي. أنت تميلين علي وتعيقينني عن اللعب بهاتفي. بابا يقول إن الطائرة ستهبط عما قريب» أفتح عينيّ وأصلح جلستي وأنظر إلى الساعة. أنهض من مقعدي وأذهب لأغسل وجهي. أتذكر الحلم الغريب وبدلًا من أن أشيح بوجهي بعيدًا، أبحث عنهم بعينيّ. الصبي نائم بينما يتحدث والداه بصوت مسموع ونبرة جادة لكنها ليست عدائية.

عدتُ إلى مقعدي بعد أن وجدت طابورًا طويلًا أمام دورة المياه. لم يمر وقت طويل حتى بدأت الطائرة بالهبوط فنظرتُ لا شعوريًا إلى الخلف نحو والدتي بانتظار مشهد ارتعاب جديد.

هبطت الطائرة بسلام وخرجنا نحو مبنى المطار الذي وجدته متواضعًا ومزدحمًا بعض الشيء. إجراءات الدخول كانت سهلة نسبيًا لكنها لم تخلُ من نظرات ريبة نحو حجابينا أنا وأمي بعد أن دقق موظف الأمن في الأسماء على الجوازات وردد في صوت مسموع «جوزيف الباتا، سارا إدريس، لانا الباتا، هشام الباتا» ثم تساءل بالإنجليزية «جوزيف وسارا وحجاب كيف؟» أجابه والدي دون تفكير «غطاء الرأس ليس حكرًا على المسلمات» هز الموظف رأسه وختم الجوازات دون جدال.

خرجنا من المطار فاستقبلتنا نسمة لطيفة بمجرد أن فُتحت بوابة الخروج. أخذتُ نفسًا عميقًا واستشعرت أن هذه هي المرة الأولى التي تتاح لي فيها أن أتنشق هواء فلسطين. هواء عليل لم تفسده سنوات الاحتلال الطويلة. حدثتني نفسي أن أنحني فأسجد وأقبّل أرض الوطن كما أراهم يفعلون في الأفلام. تذكرتُ أننا لم نأتِ فاتحين وإنما بتأشيرة مختومة على جواز السفر كالغرباء. نظرت إلى وجه والدي فوجدته كما توقعتُ يجاهد العبرات كي لا تفضح حنينه. أمي بدت منشغلة في تأنيب هشام الذي لم يرفع رأسه عن شاشة هاتفه الذكي. ركبنا سيارة أجرة.

«فندق فيستا هيلتون» قال والدي فأومأ السائق برأسه وانطلق بنا.

بدت لي مدينة تل أبيب نظيفة ومنسقة بشكل جيد مع توازن بين البنايات العالية والمنخفضة. حاولتُ جاهدة أن أنظر إليها بعيني سائحة وليس ابنة وطن مُهجّرة. لم أستطع أن أجد لها طابعًا خاصًا يميزها. لا أدري لماذا شعرت أنها مدينة أقيمت على عجل مع أن عمرها يزيد على مئة عام. لم أحبها ولم أبغضها لكني كنت تواقة أكثر لزيارة يافا التي أُلحِقت بها. كنت أتمنى أن أجد فيها ولو القليل من عبق الماضي الأصيل.

وصلنا الفندق المطل على الشاطئ. في البداية استبشرنا خيرًا فالهيلتون اسم عريق وكونه مطل على البحر يوحي بأن إقامتنا المؤقتة هنا ستكون مُرضية.

تأكد والدي من أن الحجز هو لأربعة أشخاص في غرفة

كبيرة فطمأنه موظف الاستقبال إلى أن الغرفة معدة لاستقبال ثلاثة بالغين وطفلين. وهكذا صعدنا إلى غرفتنا في الطابق الرابع وليتنا ما فعلنا.

كنت وهشام أول من دخلنا الغرفة، وبمجرد أن تجاوزنا العتبة وأجلنا نظرنا حتى توقفنا والدهشة تعلو وجهينا.

«بابا، هل أنت متأكد أنك حجزت هذه الغرفة تحديدًا؟» سألتُه وكان يهم بالدخول.

«لابد أن تكون هي ما دامت البطاقة الممغنطة قد فتحت الباب، لماذا تسألي..» لم يكمل سؤاله عندما أصبح في وسط الغرفة وتفاجأ مثلنا من أنها لا تحتوي سوى على سرير واحد يتسع لشخصين فقط ولم يكن في الغرفة سرير آخر ولا حتى أريكة.

حملنا حقائبنا وعدنا جميعًا أدراجنا إلى الطابق الأرضي حيث خاطب والدي موظف الاستقبال بالإنجليزية في غضب مشتكيًا من أن الغرفة التي حصلنا عليها مختلفة عن تلك التي حجزناها. نقر موظف الاستقبال على لوحة المفاتيح أمامه في حرج ثم رفع رأسه بعد لحظات وتحدث في ثقة «ليس هناك أي خطأ، الغرفة صحيحة. ما المشكلة بالضبط؟»

«صحيحة كيف؟ ليس بها سوى سرير واحد مزدوج. ألم تخبرني أنها تتسع لثلاثة بالغين وطفلين؟» سأل والدي وقد نفد صبره.

«نعم. بالطبع. لا تقلق فالسرير كبير وواسع ويستطيع خمسة

أشخاص النوم عليه متجاورين» ابتسم الموظف ببلاهة.

«خمسة أشخاص؟ هل تمزح؟ هل أنت متأكد أن هذا الفندق تابع لسلسة الهيلتون؟ زرت عشرات الدول ومكثت في مئات الفنادق وهذه المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها عن سرير يتسع لخمسة أشخاص. لا تثر حنقي أكثر وابحث لنا عن جناح بغرفتين وإن لم تجد فاحجز لنا غرفتين متجاورتين».

لم يتوقف الموظف عن الابتسام وإن تدحرجت بعض حبات العرق وتسابقت على جبينه «هذا هو العدد المتعارف عليه من النزلاء لهذا النوع من الغرف، وأخشى أنه لم يتبق لدينا أي غرف إضافية شاغرة. نحن في منتصف الموسم السياحي كما تعلم».

زفر والدي بغضب وسمعته يتمتم بكلمات غير مسموعة وإن خمنتُ مضمونها. ابتعد عن مكتب الاستقبال وتشاور مع أمي التي فضلت أن نترك الفندق ونبحث عن غيره. أقرها والدي على رأيها وإن أبدى قلقه من إمكانية عثورنا على غرف شاغرة في فندق آخر. اقترب منا الموظف الموكل بحمل الحقائب وهمس بلغة عربية بلكنة فلسطينية «لن تجدوا طلبكم في الفنادق هنا فهم معتادون على تكدس النزلاء في الغرف. أنصحكم بالشقق المفروشة فهي أوسع وأقل سعرًا. اذهبوا إلى هربرت صاموئيل للشقق الفندقية وستجدون طلبكم إن شاء الله. أسعاره مرتفعة قليلًا لهذا ستجدون شواغر. شققه نظيفة وملاصقة للشاطئ. أما عن حجزكم هنا فلا تحلموا بأن يرجعوا لكم شيكلًا واحدًا».

٠٠٨٧٦٦

شكره والدي ودس يده في جيبه ليمنحه بقشيشًا لكنه رفض وقال « شكرًا لك، لا داعي لذلك فالكاميرات تصور كل شاردة وواردة وسيشكون في أمري عندما تقررون مغادرة الفندق».

صدق العربي إذ لم يستطع والدي إلغاء الحجز وأخبره موظف الاستقبال أن إرجاع النقود غير ممكن بمجرد إتمام الحجز. توعد والدي بكتابة مراجعة سيئة جدًا عن الفندق على جوجل وتريب أدفايزر وغيرها من مواقع تقييم الفنادق.

صدق صاحبنا مرة أخرى عندما ركبنا سيارة أجرة وعثرنا على مبنى الشقق الفندقية ونجحنا في استئجار شقة مفروشة نظيفة بغرفتي نوم وصالة مطلة على البحر.

قرر هشام أن ينام على الأريكة التي في الصالة ويتركني لأستأثر بغرفة النوم. شكرت له صنيعه وإن خمنت أنه يريد قضاء أكبر وقت ممكن في مشاهدة التلفاز.

غرفة نومي متصلة بشرفة صغيرة مطلة على الشاطئ. لم أضيع لحظة واحدة فخرجت إليها لأرخي سمعي للأمواج وهي تغازل رمال الشاطئ بينما تستعد شمس الأصيل الحمراء لتغوص في البحر.

4

قضيتُ ليلتي الأولى في غرفتي التي أحببتها، وحزنت عندما عرفت من والدي أن الشقة شاغرة لثلاث ليال فقط مما يعني أن علينا البحث عن غيرها لننتقل إليها قريبًا. غمرني شعور غريب عندما استيقظتُ في جوف الليل ووجدتني أخطو نحو باب الشرفة فأفتحه وأتسلل إلى الخارج رغم برودة الجو. جلستُ هناك وقد احتضنت صدري وأخذت أراقب النجوم التي بدت ساطعة أكثر مما هي عليه عادة في كندا. أغلقتُ عيني برهة وأنصتُ لهمس البحر. زامنتُ شهيقي وزفيري مع حركة أمواجه حتى استسلمت لصوته المخدِّر. تفاجأتُ عندما داهمتني رغبة ملحة بالبكاء انهمرت على إثرها دموعي قبل أن أجد تفسيرًا لها أو أجد طريقة لكبحها. لم يسبق أن حدث لي أمر مشابه من قبل. الغريب في الأمر أني شعرت براحة كبيرة ما أن أطلقت العنان لنفسي ولم ألجمها كعادتي. لا أدري ما الذي حفّزني وألهب مشاعري وفجر الدمع من عينَي. هل للمكان علاقة بالموضوع؟ كفكفتُ دموعي وأخذتُ نفسًا عميقًا فهدأت نفسي وإن لم أفتح عينَي. جفلتُ عندما تناهى إلى سمعي صوت أنين خافت مكبوت. فتحت عينَي ونظرت حولي فوجدتُ الشاطئ خاليًا تمامًا وقد

خلـد الجميـع إلـى النـوم. اختفى الصوت. أغمضـتُ عينَي فعاد الأنيـن أقـوى وأوضـح. لم أفهم ما أصابني إذ اختفى الصوت ما أن فتحتُ عينيّ مجددًا. شـعرتُ بشـيء من الرهبة لكني عزوت الأمر إلى إرهاق أصابني بسـبب طول السـفر وقلة النوم. غادرت الشـرفة وعدت إلى غرفتي الدافئة فتدثرتُ وأغمضت عيني. لم يزعجنـي ذلـك الصوت هذه المـرة أو لعلني نجحت في تجاهله فاستسلمت لنوم عميق.

فـي الصبـاح التالي نهضـتُ مبكرًا ونزلتُ مع عائلتي لتناول طعـام الفطـور فـي المطعم الوحيد التابع لمبنى الشـقق الفندقية. لاحظـتُ أن أغلـب النـزلاء ممـن رأيتهـم في المطعـم يتحدثون الألمانية، وخمنت أن شـركة سـياحية ألمانية ربما حجزت معظم الشقق في هذا المبنى لعملائها.

خرجتُ مع أمي وأخي هشـام في نزهة على الشـاطئ بينما اضطر والدي للجلوس في البهو وتصفح إعلانات الشـقق على الانترنت علّه يجد شقة مفروشة مناسبة في مدينة يافا القريبة.

أعجبنـي الكورنيـش وقـد دبـت الحيـاة فيـه مبكـرًا. أغلب المتنزهيـن سـياح أو هكـذا خمنت من اختـلاط أحاديثهم بلغات مختلفـة ميـزتُ منهـا الإنجليزية والفرنسـية والألمانية والروسـية ناهيـك عـن بعـض اللغات الشـرقية التي لا أسـتطيع أن أجزم إن كانـت صينيـة أم كوريـة أم غيـر ذلك. مر بنا كثيـر ممن يتحدثون العبريـة وقليـل مـن العرب ربما من سـكان يافـا القريبة أو جاءوا من مدن ومناطق أخرى للعمل أو التنزه.

شـرد ذهني وأنا أراقب عائلة تَسـابق صغيراها بالركض أمام والديهما وأمهما تحذرهما بالعبرية من التعثر والسقوط أو هكذا خمنـت. لا أدري لمـاذا ذكرنـي ذلك بمشـهد مماثـل، ولكن في كندا وكانت أمي بطلته. صحيح أن أسـاليبنا الفطرية نحن البشـر متشابهة على اختلاف أعراقنا ومشاربنا، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال عن السبب الذي يجعل عائلتي مضطرة لتقطن فـي واحـدة من أبرد بقـاع الأرض وتترك وطنًا دافئًا مباركًا لعائلة أخرى قدمت من بلاد بعيدة لتسـتوطن فوق أطلال مسـكن هُجر أصحابه قسرًا. هذا وربما أُعَدُّ أنا وعائلتي محظوظين إذ أتيح لنا العيش بكرامة في كندا بينما يعيش جل أبناء شعبي مشردين بين الـدول وفـي حال أسـوء بكثير. زفرتُ وأنـا أفكر بأني لن أتمكن يومًا من تقبل فكرة أن يُسـلب مني وطني ثم أُرغم على مصادقة أو مهادنة من سلبه مني.

«لانـا، لانـا، لقد ابتعدتِ عن طريق المشـاة، إلى أين تحثين الخطى؟» سألتني أمي فانتشلتني من أفكاري.

«ماما، ما رأيك أن نسـتعين بخريطة جوجل ونكمل طريقنا نحو يافا مشيًا على الأقدام؟ لابد أن تكون قريبة» سألتُها بلهفة.

لم ترفض أمي وقد أيدني هشام بحماسة بالغة «دعيني فقط أتصل بأبيكما وأخبره».

لـم يمانـع والـدي ووعـد أن يلحق بنا قبيـل الظهر، وهكذا بحثـتُ عـن مركـز مدينة يافا علـى الخريطة فرسـمَت لنا الطريق لنسلكه إليها.

لـم يخطـر ببالـي أن تكون يافا قريبة إلى هذا الحد وكأن تل أبيب نفسها قد شيدت وأقيمت فوقها أو على أجزاء كبيرة منها. لم تكد تمر بضع دقائق حتى شعرتُ بأن معالم المدينة قد تغيرت فاختفـت الأبـراج والمعالم السـكنية الحديثة واسـتُبدلت بمباني أثرية وطرق ضيقة وأجواء أكثر حميمية. خمنت دون الرجوع إلى الخريطة أننا دخلنا المدينة القديمة ليافا وكانت في منطقة مرتفعة من الأرض وتكشـف ما حولها. شـعرت وكأني أتنزه في متحف حي. أزقة ضيقة وبيوت قديمة ربما كانت قصورًا أو مساكن لعلية القوم فيما مضى.

فـي المدينـة القديمـة أصبحـت اللغـة العربية تتردد بشـكل أكبر على ألسـنة المارة ففطنت أن هذا الحي يقطنه فلسـطينيون. اسـتوقفتُ صبيًـا صغيـرًا لـم يتجاوز العاشـرة وسـألته عن اسـم المنطقة التي تجولنا فيها. نظر إليّ باستغراب وأجابني «العَجَمي. ألا تعرفين العجمي؟» ابتسمتُ وأومأت برأسي وشكرتُه. لم يتوان هشـام عن التقاط عشـرات الصور بينما لم تنم نظرات أمي عن رضاها عن وجودنا في هذا المكان وكأن لسان حالها يقول «ما لنا ولهذه البيوت القديمة والطرق الضيقة التي لا تكاد تكفي لعبور شخص واحد او اثنين». انطباع والدي سيكون حتمًا مُغايرًا. كان ليهيم عشـقًا بهذا الحي وربما يتسـاءل في نفسـه «في أي من هذه البيوت يا ترى سكنت عائلتي قبل عشرات السنوات».

أعلنت أمي أنها قد أُرهقت من كثرة المشي وتود أن تجلس فـورًا. اخترنـا مقعـدًا مريحًـا فـوق رابية مرتفعة تطـل على البحر

ونستطيع منها رؤية الكثير من معالم يافا وتل أبيب وما خلفهما.

هبت ريح لطيفة داعبت وجنتيّ وخصلة شعر متمردة تسللت من تحت حجابي قبل أن أعيدها إلى رفيقاتها. الشمس توسطت السماء دون أن تجرؤ غمامة على الاقتراب منها، فيما اختلط صوت البحر بصياح النوارس التي حامت حول الميناء القريب بحثًا عن صيد سهل. تمنيتُ لو حملتُ في جعبتي فراشيّ وألواني لأسجل بها هذا المنظر الجميل.

«بعثتُ الموقع لأبيكما. لن نتحرك قبل أن يلحق بنا» قالت أمي وهي تنقر على هاتفها المحمول.

«هل نجح في العثور على شقة؟» سألتُها وأنا أراقب فراشة كبيرة ملونة حطت على زهرة حمراء نبتت من بين الصخور.

«كتب لي أنه وجد شقتين تبدوان مناسبتين وإن كان إيجارهما مرتفعًا. كلتاهما ستكونان متاحتين خلال يومين. يقترح أن نتفقدهما سويًا صباح الغد».

«هنا في يافا؟» سأل هشام وكان قد التقط صورة بانورامية للمكان.

«أظن ذلك» أجابته ثم أردفَت بصوت خافت أشبه بالغمغمة «وإن كنت أفضل ألا يجد شيئًا فنسافر من فورنا لإكمال عطلتنا في دبي».

«ماما لقد سمعتك. لن نذهب إلى أي مكان. سنبقى هنا ونبحث عن الكنز» ابتسم هشام وقد ألهب المكان خياله فاخترع مغامرة وجعل نفسه بطلًا فيها.

«كنز هنا؟ في هذا المكان المقفر؟» هزت أمي رأسها بسخرية.

«اهزئي كما تشائين يا أمي، لن تحصلي على نصيبك من الغنيمة» قال بنبرة جادة وهب لالتقاط المزيد من الصور.

مرت ساعة أو أكثر شرد فيها ذهني تمامًا وأصبحتُ في عالم آخر قبل أن يصدح صوت أذان الظهر من مئذنة مسجد قريب. لم يكد ينهي المؤذن دعوته الناس للصلاة حتى صحتُ فجأة وأنا أحدث نفسي بصوت مسموع «كم أتمنى لو نسكن هنا في يافا».

«أخبرتك أن الشقتين اللتين وجدهما والدك تقعان على الأغلب في يافا» أكدت أمي.

«لم أقصد أن نستأجر شقة مفروشة مؤقتة. أتمنى لو نعيش هنا. نشتري منزلًا ونعيش هنا» قلتُ بصوت خافت وأنا لا أزال أحدث نفسي دون أن أعي ما أقول.

حطت يد كبيرة على منكبي قبل أن تربت على عضدي «خطرت لي نفس الفكرة الليلة الماضية، ولكني لم أستغرق فيها كثيرًا وأنا أعرف المعارضة التي ستواجهني بها أمك ولا ريب» قال أبي وقد ظهر خلفنا فجأة.

أفسحتُ له مكانًا فجلس بيني وبين أمي التي ابتسمت بفتور وتجاهلت فكرتنا المجنونة «تأخرتَ في الوصول».

«تنزهتُ قليلًا في المنطقة. هي تمامًا كما وصفتها لي أمي قبل سنوات عديدة. غريب أن تمر كل هذه السنون وتبقى المدينة القديمة على حالها وكأنها عصية على الزمن».

«بابـا، هـل أخبرتـك جدتي أين كان منزلهـم بالضبط؟ أتراه لا يزال قائمًا ونستطيع زيارته؟» سأل هشام بكثير من الحماس.

«قد فعلَت وأخبرتني عن منزل عائلتها هي وليس عائلة أبي. أبي من عائلة صغيرة متواضعة كانت تسـكن شـقة مسـتأجرة. أما والدها وهو من عائلة بيدس العريقة فكان في وقت من الأوقات من كبار تجار المدينة وكان منزله يسمى سرايا في ذلك الزمن».

قفز هشام فرحًا وقد أججت هذه الأخبار نار مخيلته الخصبة «هل المنزل قريب؟ هل نستطيع زيارته؟».

«ليس اليوم؟» أجاب والدي باقتضاب.

«لماذا؟ لا يزال الوقت باكرًا ولن تغيب الشـمس قبل وقت طويل».

«ما زالوا ينظفون المكان. كان المبنى مقرًا لأحد المصارف وقـد تقـرر نقلـه مؤخـرًا إلى أحـد الأبراج الحديثة فـي تل أبيب، وهكذا ستصبح السرايا متاحة للسكن بعد يومين» قال بلا مبالاة تقريبًا.

لـم أصـدق ما سـمعته «بابا، هل فهمـتُ ما أظن أني فهمته؟ بيت جدك أصبح متاحًا للإيجار وسنتفقده في الغد؟»

«ربما» أجاب ببرود وشبح ابتسامة ماكرة يرتسم على وجهه.

5

لـم أسـتطع النـوم تلـك الليلة وعقلـي منشـغل بالتفكير في السـرايا التـي عاشـت فيهـا جدتي وعائلتها. ربمـا في بلد آخر أو ظـروف أخـرى لمـا عُـدّ ذلك سـببًا لـكل هذا الحمـاس واللهفة والترقـب. أظـن الفضـل فـي ذلك يعود إلى والـدي الذي غرس فينـا أهميـة أن نبقـى متعلقيـن بوطننـا وأن نؤمـن أننـا في يوم من الأيام سنعود إليه. لهذا لا تلوموني ولا تلوموا النوم الذي جافى عيوني، واسمحوا لي أن أشرد بذهني وأسرح في خيالي وأدخل قصر جدي بروحي ووجداني مثل الفاتحين.

أخي هشـام أيضًا لا يقل عني لهفة وحماسًـا لزيارة السـرايا، ولكن لسبب مختلف تمامًا، فقد أقنع نفسه أنه في مهمة للبحث عن كنز من حلي العائلة صوّر له خياله الواسـع أن جدتي أخفته أو دفنته في مكان ما في القصر قبل أن يتم تهجيرها مع عائلتها، وأنه هو من سيكون له الفضل في العثور إليه. وهكذا فقد أمضى طيلة اليوم منذ أن أخبرنا والدي عن زيارتنا المرتقبة للسـرايا في طرح الأسئلة عن ممتلكات عائلة جدتي العينيةً وماذا فعلوا بها، وعن إمكانية اسـتخدام الرَفَش في الحفر في حديقة السـرايا بحثًا عن صناديق الذهب والمجوهرات. سمح له والدي بالتمادي في

خياله فأكد له ان والدته وعائلتها كانوا أثرياء جدًا، ومن المستبعد أن يكونـوا قـد فروا من البيـت وحملوا معهم ممتلكاتهم الثمينة، وذلـك خوفًـا من أن يصادرها الجنود أو يتعرضوا للقتل بسـببها، وهكذا فافتراض أن يكونوا قد أخفوها في مكان سري أمر وارد جـدًا إذ كان سـكان المدينـة في ذلك الوقـت يظنون أن الجيوش العربية ستأتي لنجدتهم قريبًا واستعادة مدينتهم، وأنهم ستتاح لهم العودة إلى منازلهم التي تركوها على عجل. لكم أن تتخيلوا وقع هـذه الروايـة للأحـداث على عقل صبـي ذي مخيلة خصبة. أكاد أجـزم أنـه الآن وبعـد أن مضى ثلثي الليل لا يزال مسـتيقظًا مثلي يفكر بالكنز الموعود.

لم تكد تشـرق شـمس اليوم التالي حتى تناهى إلى سـمعي صوت هيشـو يوقظ أمي وأبي ويذكرهما بضرورة زيارة السـرايا مبكـرًا قبـل أن يخطـر ببال أحدهم أن ينقب قبلنا عن كنز عائلتنا. ضحكـتُ فـي سـري ولم أشـأ أن أذكـره أن عائلـة جدتي تركت المنزل قبل سـبعين عامًا ونيّف وأن المنقبين عن الكنز المزعوم لابد وقد عثروا عليه قبل عشرات السنين.

اقترحـتُ بعـد أن نجـح أخي في إيقاظنـا أن نذهب إلى يافا مشـيًا علـى الأقـدام وأن نتنـاول فطورنـا هناك في أحـد المطاعم العربيـة التـي لمحناهـا في طريق عودتنـا بالأمس. لاقى اقتراحي استحسـان أبـي وأخـي ووافقـت أمي على مضـض وهي لا تزال ربما تدعو في سـرها أن يخبو حماسـنا سـريعًا وأن نمل ونوافق على إكمال عطلتنا في دبي.

الجو في الخارج كان باردًا قليلًا بما يتناسب مع الوقت المبكر الذي خرجنا فيه. تقدّمنا هشام وهو يحث الخطى ولولا الحياء لسبقنا هرولة أو جريًا.

على مشارف يافا وبالقرب من دوار الساعة توقفنا لتناول الفطور في مطعم الحج كحيل وكان عامرًا بالزوار رغم أن الساعة لم تتجاوز بعدُ الثامنة صباحًا. طلب والدي الفلافل والحمص والفتة إضافة إلى الفول والمتبل بعد أن وجدنا بصعوبة طاولة شاغرة. المطعم بسيط في أثاثه وديكوراته لكن لا يخدعكم ذلك فالطعام شهي ولذيذ والأجواء تنسيكم أنكم في مدينة عربية محتلة.

«بابا، هل نستطيع الذهاب إلى القصر الآن؟» سأل هشام وقد أنهى طعامه بسرعة قصوى.

«ليس قصرًا والوقت لا يزال مبكرًا ولم نشرب وأمك كوب الشاي بعد» أجابه ببرود شديد متعمدًا إغاظته.

«شرب الشاي ليس إلزاميًا. تستطيعون شربه لاحقًا بعد أن نزور القلعة. التبكير خير من الوصول متأخرًا» لم أتمالك نفسي من الضحك وقد خمنت أنه يقصد السرايا، ولكنه نسي المصطلح.

«لا ننوي زيارة أي قلاع والشاي لذيذ وهو إلزامي مع الفطور ويساعد على الهضم» رد والدي بنبرة جادة مع شبح ابتسامة.

«أوه بابا. أقصد بيت ستي the mansion»

«اتفقنا ألا نتحدث الإنجليزية في المنزل» حاول اصطناع

الجدية.

«نسيت معنى الكلمة بالعربية ثم نحن لسنا في المنزل لهذا لا مانع من قليل من الإنجليزية بابا».

نظر والدي إلى ساعته «سنتحرك بعد قليل. لا تقلق لن تذهب السرايا إلى أي مكان». ابتسمتُ وقد خطر ببالي أن سرايا ليست كلمة عربية وإنما تركية.

جلس هشام مغتاظًا وهو يكرر كلمة السرايا بصوت منخفض كي يحفظها.

نهض والدي فتبعناه وكان الوحيد الذي يعرف موقع المنزل. تجاوزنا عدة أزقة قبل أن نخرج إلى طريق أكثر اتساعًا ومظلل بالأشجار الوارفة. مررنا بعدد من البيوت الكبيرة المتلاصقة والتي تنبئ عن ماضٍ ومجدٍ تليد. توقف والدي فجأة أمام سور حجري يرتفع فوق هامته بمقدار متر. السور يحيط بمبنى بهي الطلعة منفصل عن باقي البنايات في الحي. اقتربنا من بوابته الحديدية وكانت مشرّعة قليلًا. بدل أن يدخل والدي لتتبعه اقترب من جدار السور وأشار بأصبعه إلى كلمات محفورة في الحجر ليست واضحة نتيجة لتعرضها للتخريب ومحاولة الطمس بآلة حادة كما خمنت. اقتربتُ أكثر ودققتُ النظر «سر....صال....ب...دس».

«ما هذا؟ لماذا لا ندخل؟ ما لنا ولهذه الكتابة القديمة؟» اعترضت أمي.

«بابا، لا تقل شيئًا. دعني أخمن ما هو مكتوب» اشتعل هشام حماسًا.

تأففت أمي وأخذتُ أحاول أن أحزر أنا الأخرى بينما اكتفى والدي بأن مرر أصابعه فوق الكتابة وكأنه يستحضر ذكرى قديمة لا أظنه عاشها.

«لابد أنه اسم السرايا. أول كلمة هي سرايا» أعلن هشام ثم سأل «ماذا كان اسم عائلة جدتي بابا؟»

«بيدس» أجبته بسرعة.

«اممم. آخر كلمة بيدس إذًا. سرايا صال بيدس. الكلمة الوسطى لابد أن تكون اسم والد جدتي. اسم مذكر يبدأ بحروف صال» فكر لحظة ثم صاح معلنًا «سرايا صالح بيدس. صح بابا؟»

«صحيح. أحسنت. سرايا صالح بيدس» تنهد والدي وزفر عميقًا ثم تجاوز البوابة المشرّعة ودلف إلى ما كان في زمن سابق ربما حديقة السرايا. المدخل كان لايزال في حالة جيدة. في منتصف الممر أمامنا انتصبت نافورة رخامية لم تكن تعمل وعلى جوانب الممر توزعت بعض الزهور ونباتات الزينة التي افتقرت للعناية مؤخرًا، ربما بعد أن قرروا إخلاء المصرف ونقله إلى مكان آخر. لم أستطع إلا أن ألمح شجرة كبيرة معمرة مورقة وقد ناهز ارتفاعها ارتفاع مبنى السرايا نفسه وقد تدلت منها ثمار البرتقال الناضجة التي بدأت تتساقط على التربة تحتها. لم أتمالك نفسي ووجدتني ألتقط ثمرة سقطت قريبًا وأقربها إلى أنفي وأتنشق عبيرها. لطالما أخبرني والدي أن برتقال يافا هو الأفضل عالميًا من حيث الطعم الحلو والرائحة واللون القاني المميز.

أخذ هشام بالتقاط الصور في شتى الاتجاهات وقد تقمص دور المحقق كونان، وإن كنت أرجو ألا يحقق في جريمة قتل.

أعجبني تصميم السرايا من الخارج كثيرًا فالكسوة الحجرية والأعمدة الرخامية والشرفات الواسعة المسورة بأناقة أكدت أن أصحاب المنزل كانوا بالفعل من علية القوم.

لم نكن وحدنا المبكرين في الوصول فقد كانت السرايا تعج بعمال التنظيف والدهان والصيانة وغيرهم ممن لم أتبين مهنتهم وقد تحول المكان إلى خلية نحل. جل العمال الذين صادفتهم عرب فلسطينيون يعملون بهمة ونشاط بينما يقف على رؤوسهم رجل يلبس بزة رسمية يكلمهم بالعبرية وقليل من العربية الركيكة يحثهم على الانتهاء من العمل في أسرع وقت كي يسلم السرايا لأول مستأجر أجنبي.

اقترب منه والدي وعرّف عن نفسه بالإنجليزية بأنه المستأجر الجديد. لم يخف دهشته عندما لمحني ولمح أمي وأدرك أننا مسلمون وربما عرب. ظهر عليه شيء من الامتعاض أو هكذا تهيأ لي. اختفى أثر ذلك الامتعاض واتسعت ابتسامته عندما أخبره والدي أنه قام بدفع إيجار الشهر مقدمًا وأنه ربما يمدد فترة الإقامة أكثر إن أعجبه المكان. أراد والدي أن يلج إلى السرايا فنصحه صاحب البزة أن ينتظر إلى الغد ريثما ينتهي العمل ويتم تجديد الأثاث، هز والدي رأسه ولم أستطع تبين باقي الحديث لكنه سلمه شيئًا ما دسه والدي في جيبه ثم عاد إلينا ليخبرنا أن الزيارة انتهت لكن بإمكاننا أن ننتقل بأمتعتنا صباح

الغد إلى السرايا التي ستكون جاهزة لاستقبالنا. أخرج المفاتيح من جيبه وهزها بين أنامله.

لم يستطع هشام إخفاء خيبته وكان يأمل أن يجري مزيدًا من التحقيقات وأن يتفقد المبنى من الداخل اليوم قبل أن يعبث العمال بمحتوياته أو يتعثر أحدهم بمدخل سري يوصل إلى المخبأ حيث الكنز.

6

في طريق عودتنا إلى الشقة المفروشة لاحظت أن والدي كان واجمًا وتعلو وجهه مسحة من حزن. لم ينطق بكلمة واحدة إلى أن وصلنا. انتظرتُ قليلًا ثم ذهبتُ لأتفقده في غرفة نومه بينما كانت أمي تشاهد التلفاز مع هشام. طرقت الباب وسمح لي بالدخول.

«بابا، هل أنت بخير؟ هل حدث شيء ما في السرايا أزعجك؟» سألتُه وأنا أدقق النظر في عينيه اللتين حاول أن يقصيهما عني.

«كل شيء على ما يرام. لا تقلقي يا لولو» أجابني وهو يتصنع التماسك ويشيح بناظريه عني.

«بابا، لن تنطلي عليّ هذه الإجابة. لقد تغير مزاجك بمجرد أن تركنا السرايا وعدنا أدراجنا. هل أخبرك مالك السرايا بأمرٍ ما لم تتوقعه مثلًا؟» حاولتُ حصاره. أنا مقربة جدًا منه ولطالما كنت قادرة على سبر غوره والإحساس بما يشعر به. مرات عديدة خطر ببالي أنني ربما أقرب إليه من أمي.

«ليس مالكًا للسرايا يا لانا. لم يكن ولن يكون. السرايا ومثلها كثير لا تزال تحت إدارة حكومتهم منذ أن اغتصبوها

منا. هذا الرجل مجرد موظف مكلف بتأجير المكان للسياح لجني أكبر قدر ممكن من الأرباح نظرًا لموقع السرايا المميز وإطلالتها البديعة على البحر وبنائها الأثري الذي يغري كثيرًا من الزوار الغربيين» تنهد ثم أكمل بشيء من العصبية الواضحة «معك حق أنا بالفعل أشعر بالضيق. كيف لي ألا أشعر بالضيق والانزعاج والغيظ ونحن أصحاب المكان وورثته وها نحن نضطر لاستئجاره ودفع الأموال للإقامة فيه مؤقتًا. كل حجر من تلك السرايا قادر على التعرف علينا نحن. برتقالة جدتي السامقة زرعها جدها قبل أن تقام تل أبيب كلها» توقف مجددًا وكأنه يتأمل ثم أردف « تعلمين يا لانا، عندما توقفتُ أمام بوابة السرايا وطأت قدمي غطاءً حديديًا للصرف الصحي. نظرتُ إلى الأسفل ودُهشتُ عندما قرأت Made in Palestine. خطر ببالي حينها أن ذلك الغطاء الحديدي أقدم من دولتهم» دمعت عيناه وهمّ بقول المزيد.

قطعت أمي حبل أفكاره عندما دخلت علينا فجأة وتساءلت إن كنا نود النزول لتناول طعام الغداء في مكان ما. هز أبي رأسه «نعم، لم لا. للحديث بقية حبيبتي لولو» قال مبتسمًا فخرجتُ من غرفته دون أن أعقّب.

أثّر حديث والدي فيّ كثيرًا ولولا أني لم أنل قسطًا كافيًا من النوم في الليلة السابقة أو التي قبلها لبقيتُ طول الليل أتفكر فيما قاله. استطاع والدي أن ينقل إليّ مشاعره المكبوتة وتعلقه الصادق بتراب وطنه. ربما يكون والدي حالة نادرة بين المغتربين

في بلاد بعيدة. قلقتُ عندما وجدتني غير واثقة من مقدرتي أنا أو أخي هشام على نقل مشاعر مشابهة إلى أبنائنا. تساءلتُ إن كانت السنون وتعاقب الأجيال قادرة على محو فلسطين من ذاكرتنا. شعرتُ بانقباض شديد لم تخف وطأته إلا عندما خطر ببالي خاطر مجنون كنت على ثقة تامة بأنه لن يعجب أمي بتاتًا، بل وستحاربه بكل ما أوتيت من قوة. عزمتُ على طرحه على والدي في أقرب فرصة وإن لم أكن واثقة أنه قابل للتحقيق أو مسموح به في هذه الدولة.

في صباح اليوم التالي حزمنا أمتعتنا وطلب والدي سيارة أجرة أقلّتنا إلى بيتنا القديم. لكم أن تتخيلوا حماسة هشام الذي انطلق داخل السرايا مثل الصاروخ ما أن فتح والدي الباب. خمنتُ أنه يريد أن يسبقني ليحصل على غرفة نوم أفضل، أو لعله عزم على أن يستأنف رحلة البحث عن كنز جده المزعوم.

لم أتخيل السرايا بهذا الاتساع من الداخل. كانت أقرب إلى قصر بأعمدتها الرخامية وسقفها العالي الذي تدلت منه ثريا ضخمة أثرية. كان من الواضح أن الجدران قد طليت حديثًا وأن الأثاث الأصلي تم استبداله كله بأثاث بسيط لا يتناسب مع فخامة المكان. السرايا مكونة من طابق أرضي يحتل بهو شاسع أغلب مساحته ويتصل به مطبخ كبير وغرف صغيرة ربما كانت مخصصة للخدم، بينما ينتصب درج عريض مرتفع في المنتصف إلى الخلف من البهو ينتهي إلى الطابق الثاني حيث تتوزع غرف النوم الملكية. لم أجد صعوبة في اختيار غرفة نومي وعشقتها

مـن النظـرة الأولـى، بالأحرى هي من اختارتني وقد شـعرتُ بها تنادينـي مـا أن اجتـزت عتبتها. مسـاحتها متوسـطة وتأثيثها جيد. يتوسـطها سـرير عريـض وثيـر الفراش ولديهـا حمامها الخاص، والأهـم مـن ذلـك كلـه تتصل بها شـرفة بديعة تطـل على البحر. ربما لن تصدقوني إن أخبرتكم أنني شعرت وكأنها لطالما كانت غرفتي الخاصة وأن لي فيها ذكريات كثيرة. لا أريد أن أبدو غريبة الأطـوار فأخبركـم أننـي أظن أن هذه الغرفة تحديدًا كانت خاصة بجدتي وأنها قضت فيها أجمل أيام طفولتها.

علـى غيـر المتوقـع فقـد نالـت الغرفة التـي اختارها والدي استحسـان أمـي ورأيـتُ ابتسـامتها للمـرة الأولى منـذ أن وطأت أقدامنا هذه الأرض. شـجعني ذلك على المضي قدمًا في تقديم اقتراحـي وإن كنـت لا أزال علـى ثقـة بأنـي سـأواجه عاصفة من الرفض والانتقاد من أمي.

كما لكم أن تتوقعوا فقد اختفى هشام باقي اليوم، ولم ألمحه إلا عندمـا أعلنـت أمـي بصوت مرتفع أننا سـنخرج لتناول طعام الغداء. حينها فقط خرج فجأة لا أعرف من أين، ربما من مخبئ سري عثر عليه خلف أحد الجدران.

أثناء تناول المشاوي في مطعم عربي قريب، تحينت الفرصة لألقي قنبلتي.

«مامـا، يبـدو أن السـرايا أعجبتـك في نهايـة المطاف» قلت بمكر خفي.

«لا بأس بها. ليست بذلك السوء» ردت بلا مبالاة مصطنعة.

«بـل هـي أجمـل بيت أسـكن فيه منـذ أن ولـدت» قال آخر العنقود.

ابتسم والدي برضىً دون أن يعقب.

«بابا، هل نسـتطيع شـراء المنزل والعيش فيه؟ وهكذا ننتقل بين كندا وفلسطين كلما سنحت الفرصة وربما انتقلنا للعيش هنا إن كان ذلك متاحًا أو مسـموحًا به. سـيكون أعظم اسـتثمار أن تعيـد منـزل والدتـك إلى مُلكنا، كان ذلـك ليُفرح جدتي كثيرًا لو كانـت لا تـزال علـى قيد الحياة. ألـم تخبرني أنهم بدأوا باحتلال فلسـطين بهـذه الطريقـة قبل أن يشـرعوا باغتصابهـا عنوة؟ لماذا لا نحـرر بإمكاناتنـا المحـدودة ولو رقعة صغيرة؟» بحتُ بكل ما خططت لقوله دفعة واحدة وترقبت ردة فعلهم.

أعادت أمي إلى الطبق قطعة اللحم التي كانت على وشـك أن تضعها في فمها وشـبّكت أصابعها ونظرَت نحوي باسـتهجان وهي تبحث ربما عن كلمات مناسبة تعبر فيها عن شدة حنقها.

«Yes, Yes» قال هشام وهو يلوّح بيديه في مرح.

ابتسم لي والدي وإن لم يستطع إخفاء دهشته ومرت لحظات قبل أن يرد «هذا أمر لم يخطر ببالي صراحة وأجدني ألوم نفسي إذ لم أفكر به قبلك، لكنه يحتاج إلى دراسة وتمحيص ومراجعة لقوانيـن البلـد ومـا يختص بالتملك والإقامـة. بكل الأحوال هي فكرة مثيرة تستحق الإشادة».

هنـا انفجـرت أمـي «هل فقدتم عقولكم أم أصابكم مس من الجنـون؟ هـل يعقـل أن نبـدد مدخراتنا لنتملك بيتًـا قديمًا جدير

بـأن يُهـدم؟ ليس ذلك وحسـب، بـل تريد فتاتنـا الذكية أن ننتقل للعيـش هنـا ونتـرك كندا. بـأي منطق تتحدثين؟ نتـرك أرقى بلاد العالم وأكثرها حداثة لنعيش في خرابة؟ وأنت يا يوسف بدلًا من توبيخها أراك تشد على يدها وتؤيد فكرتها الحمقاء الساذجة. ألم يخطر ببالكم أنهم سيأخذون أموالكم ومع أول هفوة سيصادرون البيت مجددًا ويلقون بكم خارجه وربما يعيدوكم على متن أول طائرة خاليي الوفاض؟»

«ربما تكونين محقة في الجزء الأخير فقط، أما فيما يخص ذلك البيت القديم، فقيمته المعنوية تفوق بلدان الأرض مجتمعة» رد والـدي باقتضـاب وقـد انتفخـت أوداجه على غيـر العادة. لم يضف أحد كلمة واحدة أخرى وأكملنا غداءنا في صمت وعدنا إلـى السـرايا. لمـتُ نفسـي لتسـببي في هـذا الجدال بيـن والديّ وتمنيتُ لو تمهلت في اقتراحي أو مهدتُ له بشكل أفضل.

عندمـا وصلنـا صعـدوا إلى غرف نومهـم بينما قررت أنا أن أجلس قليلًا في ظل شجرة البرتقال. أسندتُ ظهري إلى جذعها ومـددت سـاقيّ علـى العشـب تحتهـا وقـد أزال أحدهـم حبات البرتقال الساقطة ونظف المكان قبل وصولنا.

مرت نسمة منعشة داعبت أوراق الشجرة المعمرة فهمست لـي مُرحبـة فـي حبور قبل أن تنضم إليهـا العصافير المتوارية بين أغصانها تترنم بزقزقة وكأنها بدورها تهلل في سعادة.

جلت بناظري في أرجاء الحديقة واتخذت قراري الحاسـم الأول. سآخذ على عاتقي تنسيق الحديقة وإعادة رونقها إليها.

توقفتُ فجأة وركزت نظري في أحد أركان الحديقة تحت السور. في بقعة مظللة معتمة ظهر جسم غريب بيضاوي الشكل لم أتبين ملامحه أو ماهيته. شعرت بشيء من الخوف وانقباض الصدر لكني خمنت أنه ربما يكون صرة ملابس أو حقيبة أو لعله جزء من تمثال عتيق كان فيما مضى جزءًا من النافورة.

نهضتُ واقتربتُ من ذلك الجسم. لكني ما أن أصبحت على بعد خطوات منه حتى جفلت وقفزتُ إلى الخلف في رعب، وخرجَت من فمي صرخة حادة عندما رفع شاب نحيل رأسه الذي كان يدسه بين ساقيه وهو يجلس القرفصاء وقد تكوم على نفسه.

«أني متزيتار» نطق الشاب بالعبرية كما خمنت ونهض وخطى ببساطة نحو البوابة وخرج دون أن ينظر خلفه.

7

كنت لا أزال أرتجف خوفًا عندما أحاطني أبي بذراعيه وقد هب لنجدتي ما أن سمع صرختي. تلفتَ يمنة ويسرة «لانا، ما بك؟ ما الذي أصابك؟ لماذا ترتجفين هكذا؟»

«ربما صادفت فأرًا أو جرذًا» قال هشام ضاحكًا.

هززت رأسي وأنا لا أكاد أتمالك نفسي «كان يجلس هناك متقوقعًا على نفسه بشكل مخيف» أشرتُ إلى حيث كان يجلس في العتمة ثم أردفتُ بعد أن هدأت نفسي «عندما اقتربتُ منه نهض وتمتم شيئًا بالعبرية ثم خرج. كان شكله مرعبًا، فهو طويل القامة شديد النحول شاحب الوجه».

«لعله جنيٌ يا أبي موكل بحراسة الكنز» قال هشام بنبرة جادة.

«ماذا يجري هنا؟ عن أي جن تتحدثون؟ البيت مسكون إذًا. أخبرتكم من البداية أنني لم أرتح لهذا المكان. دعونا نحزم أمتعتنا ونغادر في أول طائرة» تكلمت أمي بسرعة وقد وصلت للتو.

«لا جن ولا عفاريت. ابنتك رأت شخصًا ما ربما كان من العمّال أو أحد المارة الذين اعتادوا زيارة المكان قبل أن ننتقل إليه. أنا واثق أنه ليس هناك أي داعٍ للقلق» ربت أبي على ظهري

ودعاني لدخول المنزل فتبعته ونظري لا يفارق البقعة التي جثم فيها ذلك الشاب غريب الأطوار.

«ضع للبوابة قفلًا على الأقل لإبعاد المتطفلين المزعومين» قالت أمي بنزق وأضافت همسًا « لكن إن كان الزائر طيفًا فلن ينفع القفل في شيء».

«فكرة حسنة» أومأ والدي.

حاولتُ عدم التفكير في هذه الحادثة ما بقي من اليوم، وفي المساء دخلتُ غرفة جدتي التي أصبحت غرفتي فشعرت فورًا براحة نفسية أنستني التوتر الذي أصابني. أمضيتُ بعض الوقت في الشرفة أُنصتُ لتلاطم الأمواج وأتخيل أن جدتي ربما وقفت في نفس المكان قبل عشرات السنوات واستمتعت مثلي بالهواء العليل وهي لا تدرك أنها ستغادر بيتها قسرًا ولن تعود إليه أبدًا. داعبتني الفكرة التي اقترحتُها في الصباح فانشرح صدري وتخيلتُ كم سأكون سعيدة لو نجح والدي في شراء السرايا. انقطع حبل أفكاري فجأة عندما تناهى إلى سمعي صوت أنين مكبوت. كان نفس الصوت الذي أرّقني عندما كنت في الشقة المفروشة. لا أخفيكم أني شعرت بالرهبة وحاولت أن أقنع نفسي أنه مجرد وهم. ربما كنت لأنجح في ذلك لولا ذكرى ذلك الشاب الغريب الذي رأيته في الصباح. «ماذا لو كان هشام على حق وأن ما رأيتُه لم يكن بشرًا؟ لماذا لم يره غيري؟ وكيف تجاوزه هشام دون ان يلمحه وهو الذي لم يترك شبرًا داخل البيت وخارجه لم يتفحصه بحثًا عن كنزه المزعوم؟» تساءلتُ في سري وتسارعت نبضات

قلبي وشعرت بخوف حقيقي. تزملتُ في سريري وأخذت أردد المعوذتين لصرف ذلك الخاطر الذي ألمّ بي. أغمضتُ عينيّ ولم يمر وقت طويل حتى استسلمت للنوم.

في صباح اليوم التالي أيقظني والدي باكرًا ليسألني إن كنت أرغب في الذهاب معه للتبضع وشراء حاجيات الفطور قبل أن تستيقظ أمي وأخي. اعتدنا على فعل ذلك منذ أن بدأت المشي، كنت أحب صباحات أيام السبت والأحد والعطل لأن والدي كان يخصني باصطحابي معه ويشعرني وكأني رفيقته المقربة. لم أكن أمانع الاستيقاظ مبكرًا في الإجازة لأصحبه فنشتري الخبز الطازج من مخبز أفغاني قريب. في مناسبات أخرى كنت أذهب معه باكرًا إلى المقهى فيطلب لي شراب الشوكولاتة الساخن ونجلس سويًا كلٌّ يقرأ في كتاب يحمله ونعود قبيل الظهر قبل أن يستيقظ أخي أو حتى أمي.

أعددت وأبي مائدة فطور فلسطيني بامتياز. زعتر بالسمسم وزيت زيتون ولبنة وزيتون أخضر وجبن نابلسي إضافة للشاي. أثناء تناولنا للطعام أعلن هشام أنه يشعر أن مساعيه لإيجاد الكنز ستؤتي أكلها قريبًا. لم يلق أحد بالًا لخيالاته. أخبرنا والدي أنه سيخرج بعد قليل لإنجاز بعض المهام. لم يوضح أي مهام تلك التي يقصدها لكني شعرت به يبتسم لي وكأن لهذه المهام علاقة بي. لم تعلق أمي على الأمر وقالت أنها ستبحث في الانترنت عن أماكن تستحق الزيارة وإن لم يبد أنها تعلق آمالًا كبيرة على الموضوع. أما أنا فقد كنت قد عزمت على قضاء الوقت في

تنظيف الحديقة وإزالة الأعشاب الضارة.

انتهينا من الفطور ورفعتُ الأطباق وأخذتها إلى المطبخ.

أردتُ فتح باب الثلاجة لأضع فيها ما زاد من طعام. فجأة لم أتمالك نفسي وصرخت بكل ما أوتيت من قوة وسقط الطبق من يدي وتهشم.

كان ذلك الشاب أو الشبح متكومًا على نفسه وقد حشر جسده بين الثلاجة والفرن في مكان ضيق بالكاد يتسع لصبي صغير.

رفع رأسه بهدوء لا يتناسب مع صرختي المدوية.

دخل والدي فأشرت إلى الشاب وكلي فزع أن أكون الوحيدة القادرة على رؤيته، ثم رن جرس الباب بعنف.

8

وقف والدي لحظات والدهشة تعلو وجهه. لم أعرف هل هو مندهش لما يراه أو لأنه لا يرى شيئًا حيث أشرت.

«بابا، هل ترى هذا الشاب؟» وأشرت مجددًا إلى حيث يجلس وقد رفع الآن ذراعيه الطويلتين وخبأ وجهه خلفهما.

اقترب والدي خطوة منه.

سمعت جلبة خارج المطبخ بعد أن توقف رنين الجرس.

انحنى والدي بجسده نحو الشاب.

«شلومو، شلومو» تناهى إلى أسماعنا صوت امرأة تنادي بكل ما أوتيت من عزم من مكان ما داخل السرايا.

استند الشاب على يديه ونهض واقفًا ووالدي يحدق به قبل أن يسأله بالإنجليزية «من أنت وماذا تفعل هنا في منزلنا؟»

اقتحمت امرأة خمسينية ثائرة الشعر المطبخ وأمي في إثرها تصيح بها وهي لا تبالي.

أخذته بين أحضانها وقد اضطُر للانحناء لفارق الطول الكبير بينهما.

تعجب والدي وسأل بغضب «ماذا تفعلان في منزلنا؟ هل هذا الشاب ولدك؟ كيف دخل إلى هنا ولماذا؟»

رفعت السيدة يدها تصد والدي وكأنها تذبُّ عن ابنها وقالت كلامًا بالعبرية لم نفهم منه شيئًا وإن علت وجهها نظرة اعتذار.

«ألا تتكلمون الإنجليزية؟» تساءل والدي بحنق.

وهنا حصل ما لم أتوقعه.

رفع الشاب رأسه عن صدر أمه والتفت إلى والدي وقال دون أن ينظر في عينيه بإنجليزية سليمة، ولكن بكلمات متقطعة وببطيء شديد وكأنه انسان آلي قديم الطراز «أنا.. آسف... لما سببته.. لكم.. من إزعاج... ولكني ...اعتدت... زيارة... هذا المكان ...وأجد فيه... راحتي» توقف قليلًا ثم أردف بنفس الطريقة «أنا ... لم.. أقتحم... المنزل...البوابة... في الخارج... كانت مفتوحة...وكذلك... باب...المطبخ...سأذهب...الآن» وأخذ بيد أمه وخرجا من بابا المطبخ المطل على الحديقة من الناحية الخلفية دون أن يلتفت أو ينتظر ردًا من والدي.

وقفت أمي بباب المطبخ وتبادلت النظرات مع أبي وحيرتُها تتحدث بالنيابة عنها، بينما جلستُ أنا على كرسي من غير ظهر علّ أوصالي تتوقف عن الارتجاف.

«بابا ألن نفعل شيئًا؟ أستطيع أن أتبعهما وآتيك بخبرهما إن سمحت لي؟ هل أذهب فورًا في إثرها؟» هم هشام بفتح باب المطبخ لينطلق خلفهما.

«لن تذهب إلى أي مكان» أجابه والدي بحزم فتمتم أخي شيئًا ما بالإنجليزية بصوت منخفض مثل «هذا ليس عدلًا، أنتم تكبحون مواهبي» قبل أن يغادر المطبخ مُغضبًا.

« ألا يجدر بنا الاتصال بالشرطة؟» سألت أمي.

«لا أظن أن هناك حاجة لذلك، فالشاب على غرابة أطواره يبدو مسالمًا جدًا. لا أدري ما قصته ولماذا يتصرف بتلك الطريقة الغريبة وما الذي يدفعه ليحشر جسده في هذا المكان الضيق في المطبخ. لا أظنه سيزعجنا مجددًا إن أحكمنا إغلاق البوابة في الخارج وأبواب السرايا».

«أخمن أنه يسكن في مكان قريب من السرايا. إن لاحظتم، فأمه دخلت علينا بملابس المنزل. ربما عائلته تقيم في أحد المنازل المجاورة» فكرتُ لحظة ثم أردفتُ «هو بالفعل غريب الأطوار، وقد أرعبني ظهوره في أماكن غير متوقعة، والطريقة التي يتكوم فيها على نفسه» ثم استدركتُ «لكنه يبدو متعلمًا فهو يتحدث الإنجليزية التي لا تعرفها أمه» ثم تابعت بسرّي «أمره محير وأصبح لدي فضول لأعرف قصته، ولكن كيف؟»

بعد أن هدأنا قليلًا خرج والدي لإنجاز بعض المهام التي لم يفصح عنها بينما أعدّت والدتي لنفسها قهوة تركية ارتشفتها على مهل في شرفة غرفة نومها وهي تتصفح الانترنت بحثًا عن مواقع قريبة تستحق الزيارة.

خرجتُ إلى فناء المنزل لأشرع بما عزمت عليه من أعمال تنظيف وإزالة للنباتات الضارة لأعيد للحديقة رونقها. اكتشفت أننا لا نملك في المنزل أي أدوات تنظيف، وهكذا استأذنتُ أمي وخرجت لأشتري ما أحتاج إليه من بقالة قريبة.

ساعدني صاحب البقالة في العثور على الأدوات التي

أحتاجها وكان رجلًا خمسينيًا خمنتُ من لهجته أنه من أهل يافا الذيـن لـم يغـادر ذويهم منازلهم أيام النكبة قبل أكثر من سـبعين عامًا. حدثتني نفسـي بعد أن ناولته المبلغ الذي طلبه بأن أسـأله عن الشاب غريب الأطوار.

«أردت أن أسألك يا عم، هل جميع السكان في هذه المنطقة من العرب؟»

نظـر إليّ بقليل من الاسـتغراب، ربمـا لأنني أتحدث مثلهم لكني أبدو كسائحة.

«أغلـب العائـلات في حي العجمي عربية، وبعضها تسـكن المنطقـة منـذ بدايـة القرن الماضي أو قبل ذلـك، وبعضها الأخر انتقـل إلـى هنـا بعد أن سُـويت باقي المناطق بالأرض أو هُجرت من منازلها تحت تهديد السلاح. أما بيوت الأعيان فقد استولت عليها الحكومة وحولتها إلى مبان حكومية».

تشجعتُ فسألتُه «هل تعرف عائلة غير عربية تقطن قريبًا من هنا ولديهم شـاب طويل ونحيل غريب الأطوار؟ اسـمه شـلومو فيما أعتقد».

تغير لون وجهه فجأة وأصبح شاحبًا «اعذريني، عليّ أن أقوم بجـرد محتويـات البقالـة وإعادة ترتيـب الرفوف» قال على عجل وأعطاني ظهره فخرجتُ وقد ازددتُ حيرة.

عـدت إلـى المنـزل وأخذت أعمل فـي الحديقة بينما عقلي يحاول أن يجد تفسيرًا لتصرفات ذلك الشاب ولردة فعل صاحب البقالة عندما سمع باسمه.

انقضى نصف النهار عندما جلستُ تحت شجرة البرتقال لأرتاح. بدت الحديقة بشكل أفضل. كنت لا أزال بحاجة لشراء بعض بصيلات الورود وشتلات الزهور لأزرعها في أماكنها الخاصة وأطلب من والدي أن يأتي بمن يصلح النافورة لتعود إلى العمل كما كانت يوم عاشت جدتي هنا.

قبيل أذان صلاة العصر عاد والدي إلى المنزل وكنت لا أزال أجلس في ظل البرتقالة. دهشتُ قليلًا عندما انحنى ليجلس إلى جانبي بملابسه الرسمية.

تأمل الحديقة وأثنى على الأعمال التي قمتُ بها دون أن يلتفت إلي. كان يسند رأسه إلى جذع الشجرة ويتكلم.

«هل تعلمين أين قضيت يومي؟» سألني عندما التقط عن الأرض حبة برتقال سقطت عن أمها عندما داعبتها الرياح بخشونة.

هززت رأسي «أين؟ أخبرني».

«بحثت عن الجهة المالكة للسرايا لأستعلم إن كانت معروضة للبيع» ابتسم فابتسمتُ بدوري.

«وهل كان بحثك مثمرًا؟»

«بعد عناء وصلت إلى الجهة المخولة بالتصرف بالمباني في هذه الناحية من المدينة. تبين لي أنها بالفعل معروضة للاستثمار بالتأجير أو البيع. أخبرتُ المسؤول بأني كندي أفكر في شراء أحد المنازل لأجعله مشتىً أزوره كل شتاء هربًا من برودة الجو في وطني وأني محتار بين شراء عقار لديهم أو في دبي. تكلمت

بلهجة كندية أصيلة وأخفيت عنه جذوري العربية. طلب رؤية جواز سفري ورأيت الرضى في عينيه عندما قرأ اسمي جوزيف الباتي. ربما اطمأن إلى أن اسمي ليس عربيًا».

«ها، أكمل بابا» قلتُ بلهفة.

«سألني إن كنت مهتمًا بعقار معين دون غيره، فأخبرته أنني زرت المنطقة وأنني مستأجر لمبنى كان مقرًا لأحد البنوك وأنني مهتم بشرائه إن كان سعره مقبولًا» أخذ نفسًا ثم أكمل «تعرّف على المبنى المطلوب على الفور وأخبرني أنه بالفعل معروض للبيع وأنه يستطيع أن يقدم لي حسمًا كبيرًا إن أتممتُ صفقة الشراء قبل نهاية هذا الشهر».

«أبي أنت تمزح أليس كذلك؟» قلت وأنا لا أكاد أصدق وأحطت عنقه بذراعي كما كنت أفعل وأنا صغيرة.

ضحك وعانقني بقوة وقال وهو يربت على ظهري «لا يزال لدينا عقبة كبيرة في الداخل».

ابتسمتُ وأنا أفكر في طريقة ما نقنع بها أمي.

9

كما توقعنا أنا وأبي فقد أبدت أمي معارضة شديدة لفكرة شراء السرايا وخاصة عندما علمَت أن ثمنها سيستنفد مدخراتنا بشكل كامل. شكلنا أنا وأبي وأخي هشام جبهة متحدة لإقناعها بأنه أفضل استثمار ممكن، فالسرايا كبيرة وموقعها مميز وستكون مكانًا مناسبًا للاستجمام كلما شعرنا بالوحشة. لم نتطرق إلى فكرة الاستقرار هنا لأننا نعرف أن ذلك سيزيد من مقاومتها للفكرة وسيصبح إقناعها ضربًا من ضروب المستحيل. لانت قليلًا عندما أخبرها والدي أن باستطاعتنا في أي وقت إعادة بيعها لأي من أثرياء العرب في الخليج والذين في ضوء المستجدات السياسية الحالية سيتهافتون على المنطقة وستغريهم فكرة تملك قصر أثري مطل على البحر في عروس فلسطين. استأتُ لهذا الاقتراح حينها، ولكنني لم أعقب وبقيت صامتة أترقب. قرأ والدي في وجهي الاستنكار فأسرّ لي عندما سنحت الفرصة أنه اقترح ذلك فقط ليقنع أمي بفكرة اقتناء المنزل وأنه لا يفكر مطلقًا في إعادة بيعه لأيٍ كان. وافقت أمي في نهاية المطاف على مضض عندما نظرت إلى الأمر على أنه استثمار مضمون العوائد وإن كانت مصرة على أن المخاطر تبقى عالية وأن الحكومة ربما

تعيد مصادرة المنزل في أي وقت.

لـم يبـدّد والدي أي وقت على الإطلاق وبادر في إجراءات الشراء وتحويل النقود من كندا ونقل الملكية، ولم تمض بضعة أيام حتى أصبحت السـرايا رسـميًا ملكًا للسيد يوسف الباتع. أما أول الأعمـال التـي ابتـدر بهـا بعد انتقال الملكية لـه فكان ترميم السـور الخارجـي وإعادة الكتابة الأصليـة لتكون واضحة وبارزة وتعلن صراحة أن المبنى هو «سرايا صالح بيدس». سررتُ كثيرًا بقرار والدي الاحتفاظ بالاسـم الأصلي للسـرايا وعدم اسـتبداله باسمه رغم معارضة أمي.

من حسن الحظ فقد انهمكت أمي في الإشراف على أعمال الترميم والديكورات الداخلية واختيار الأثاث الذي يتناسـب مع كل زاوية من السرايا. أبقاها ذلك على درجة مقبولة من الرضى وخفف من معارضتها المستمرة لجميع قرارات والدي المتعلقة بالمنزل.

لن يكون باسـتطاعتي أن أنقل لكم وصفًا دقيقًا لمشـاعري فـي هـذه الأيـام. كنت بدون مبالغة في قمة السـعادة وكذلك كان أخـي هشـام الـذي لـم تفتر عزيمته في البحـث عن كنزه وخاصة بعـد أن وجـد بينمـا كان يسـاعدني في تقليـب التربة في الحديقة لزراعة الأزهار، حفنة من عملات معدنية فلسطينية قديمة مثقوبة من الوسـط ومطبوع عليها تاريخ 1934. أخبرنا والدي أنها تعود لفتـرة الانتـداب البريطاني. لـن تصدقوا الحماس الذي كان عليه وهو يصيح بهستيرية ويعرض علينا بين يديه الدليل على أن بحثه

عـن الكنـز لـم يكن عبثًـا، لدرجة أن الأمر أثار اهتمام أمي وحثته على المثابرة في البحث عله يجد كمية أكبر وأقدم من العملات.

أما أنا فقد أتممتُ ما عزمتُ عليه من تنسيق الحديقة وزراعة الـورود ومختلـف أنـواع الزهـور، وأعاد والدي تشـغيل النافورة القديمـة فأصبحـت مـزارًا للطيـور الظمـأى التـي ردت الجميـل بتغريدات أطربت أسماعنا.

مر أسبوعان كاملان لم نر فيهما شلومو أو أمه وكدت أنسى الرعب الذي تسبب فيه عن غير قصد، إلى أن جاء يوم حدث فيه ما أعاد لي الذكرى وجدد خوفي.

في الليالي السابقة كنت أنام ملء جفوني في هدوء وسكينة. جميع أصوات الأنين التي كنت أتوهمها فيما سبق اختفت تمامًا. حدثتني نفسي المولعة بخوارق الأمور أن جدران المنزل وأرضه هدأت وسـكنت عندما عادت السـرايا إلى أصحابها، ردت عليها نفسـي الأخرى التي تميل إلى تحكيم العقل بأني أنا من خلقت وهم الأنين وأنني بنفسي وأدتُه لأشعر بمزيد من الرضى بعد أن تحقق حلمي بامتلاك سـرايا جدتي. أيًا كانت الحقيقة فقد كانت لياليَ الفائتة هانئة وأحلامي وردية.

تغيـر كل ذلـك عندمـا خلـدتُ في إحدى الليالـي إلى النوم باكرًا وكنت قد أجهدتُ نفسي في أعمال التنظيف وتقليم النباتات وقطف ثمار البرتقال من شجرة جدتي المعمرة.

رأيتُنـي ليلتهـا فيمـا يـرى النائـم أعمـل بجـد فـي حديقتي، أسـقي الزهـور وأزيـل الأوراق الصفـراء الميتـة. لفت نظري نبتة

دخيلة داكنة اللون لم أرها من قبل. استهجنت أن أجدها بلونها الكئيب تزاحم زهوري البديعة. لمتُ نفسي لأني لم أنتبه لها من قبل وتركتُها حتى كبرت وأفسدت المنظر. أمسكتُها من ساقها لأسحبها مع جذورها وأتخلص منها. انقبض صدري عندما لم تتزحزح النبتة ولم أنجح في اقتلاعها. شعرت بالغضب وبذلت مجهودًا أكبر. أمسكت بها بكلتا يدي وأسندت قدميّ إلى الأرض وسحبتُ بكل ما أوتيتُ من قوة. قاومت النبتة البغيضة في البداية وأبت أن تستجيب، سحبت بقوة أكبر وكأن حياتي متوقفة على اقتلاع تلك المُتطفّلة. لم تمض ثوانٍ حتى استسلمَت أخيرًا وانتُزعت من الأرض بعنف ألقاني أرضًا. ارتجف قلبي وشهقتُ شهقة مرعبة أيقظتني من حلمي عندما رأيت شابًا نحيلًا متشبثًا بجذور تلك النبتة وقد خرج معها من باطن الأرض واستلقى إلى جانبي مثل خرقة بالية.

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وقرأتُ المعوذتين مرارًا وتكرارًا إلى أن هدأت نفسي. لم أستطع العودة إلى النوم، بل لم أجرؤ على إغماض عينيّ إلى أن بزغ الفجر. لم أفلح في إيجاد تفسير لرؤيتي لشلومو في تلك الصورة المفزعة وتمنيتُ أن يكون الأمر مجرد أضغاث أحلام.

في اليوم التالي كان مزاجي عكِرًا على غير العادة. ربما لأني لم أنل قسطًا كافيًا من النوم الليلة السابقة. هذا ما حاولت أن أقنع به نفسي وتجاهلتُ أن صورة شلومو وهو يخرج من الأرض لا تبارح خيالي.

لـم أحـدث أحـدًا بما رأيته في حلمـي وانهمكتُ في العناية بزهـوري. كاد أن ينقضـي اليـوم فأتخلـص معـه مـن آثـار الليلـة السابقة، ولكن هيهات.

قبيـل المغـرب بقليـل طـرق أحدهـم على الإطـار المعدني لبوابة السرايا بإلحاح دون أن يفكر في قرع الجرس. كنت لا أزال في الحديقة فاقتربت من البوابة وجفلت على الفور عندما رأيته.

«افتحي لي» قال بالعربية بلهجة سليمة فاستغربتُ، ووجدتني أفتح البوابة دون أن يخطر ببالي أن أستأذن والدي أو أسأل الضيف غريب الأطوار عما يريده.

دخـل بـكل بـرود وتجاوزنـي وتوجه إلـى شـجرة البرتقال فجلس في ظلها وأسند ظهره إلى جذعها وبسط قدميه أمامه وكأنه يستجم على الشاطئ.

ألجمتنـي المفاجـأة، ولكـن بـدلًا مـن توبيخـه رأيتنـي وقد جلسـت أنا الأخرى في ظل برتقالة جدتي وأسـندت ظهري إلى جذعهـا فـي الطرف المعاكـس فأصبح ظهرانـا متقابلين وتفصل الشجرة بيننا.

«لماذا أتيت وماذا تريد؟» سألته بالعربية وأنا متشككة.

«لـم أجـد راحتـي فـي مـكان آخر. سـأمكث إلـى أن تغيب الشمس ثم أغادر. أعدك بأني لن أزعجك» ذُهلتُ عندما رد عليّ بالعربية بكل سلاسة دون تأتأة أو بذل مجهود وكأن العربية هي لغته الأم.

«مـن أنـت؟ ولمـاذا تتصرف بغرابة ومـاذا تريد منا؟ لماذا لا

تتركنا في حالنا وتقضي وقتك في مكان آخر؟» سألتُ بشيء من العصبية.

«تنادينـي أمـي شـلومو. لا يعجبنـي الاسـم. أفضل أن أكون يونان. لا أقصد أن أتصرف بغرابة. لا أريد منكم شـيئًا. أنا فقط أحب هذا المكان وأرتاح فيه».

«تتكلم العربية بطلاقة. لماذا لم تتحدث بها المرة السابقة؟ وهل تعيش في مكان قريب من هنا؟ هل تدرس أو تعمل؟» كنت أشعر بفضول كبير.

«لم أكن متهيئًا نفسيًا في المرة السابقة للتحدث بها. أعيش مع أمي في بيت قريب. بيت قديم اكتشفتُ أن جدرانه لا تتحدث بغيـر العربيـة. أنـا طالب جامعي أحضـر لنيل درجة الدكتوراة في علم النفس».

لم أفهم ماذا قصد بقوله بأنه لم يكن متهيئًا نفسـيًا للحديث بالعربية في المرة السابقة، ولم أتخيل أن يكون هذا الشاب غريب الأطوار طالبًا جامعيًا قادرًا على الاختلاط بالطلاب والطالبات.

كنت على وشـك طرح المزيد من الأسـئلة، ولكن لابد أن ذلـك أزعجـه إذ نهض فجـأة وبدون مقدمات ونفض التراب عن سرواله. «شكرًا لك» قالها دون أن يلتفت إلي ومشى نحو البوابة فخرج منها ومضى في طريقه دون أن يلتفت إلى الوراء.

10

أخبرتُ والدي ولا أحد غيره بالزيارة المفاجئة للشاب غريب الأطوار. لم يستطع إخفاء قلقه وهو يحذرني من السماح لشلومو بدخول المنزل مجددًا دون الرجوع إليه، وعندما ألححت عليه ليشاركني سبب تخوفه من شاب يبدو مسالمًا وإن كانت أفعاله غريبة وغير منطقية قال لي:

«لا أستطيع التفكير بغير احتمالين لتفسير سلوك ذلك الشاب، فإما أنه شاب مضطرب نفسيًا أو عقليًا وفي هذه الحالة يفضل الابتعاد عنه لأننا لا نعرف إن كان يشكل خطرًا على نفسه أو الآخرين أو لا، ونحن هنا لا نريد أن نجذب الانتباه أو نتسبب في مشكلة لا مبرر لها. هذا الاحتمال الأول أما الاحتمال الثاني فأن يكون هذا الشاب مدسوسًا من قبل المستوطنين أو المتطرفين الذين لا يرحبون بعودة العرب إلى ديارهم حتى وإن دفعوا فيها المبالغ الطائلة، وعندها سيصدق حدس أمك وسيستولون على المنزل مجددًا ويطردونا منه، وخاصة بعد أن تعرف الجهات الحكومية أن جذورنا عربية وأن المنزل يعود في الأصل لأجدادنا».

ترك كلام والدي أثرًا في نفسي وتعاظم قلقي عندما أخبرني

عـن مأسـاة يتعـرض لهـا فلسـطينيون رفضـوا أن يتزحزحـوا عن أرضهـم أو يتركـوا ديارهـم. في ذلك الوقت لم أكن قد سـمعت بحي الشيخ جراح من قبل، ولولا أن والدي نبهني للأخبار التي يتم تداولها مؤخرًا عن معاناة سكانه لما خطر ببالي أن مثل ذلك يحصل في الحقيقة.

أخبرنـي أبـي أن حـي الشـيخ جراح يقع في الجهة الشـرقية مـن القـدس. وأن قصـة هـذا الحـي بـدأت في العـام 1956، إبان الحكـم الأردنـي للقدس والضفـة الغربية، عندما أصبحت بعض العائلات الفلسـطينية التي هُجّرت عام 1948 من حيفا ويافا دون مأوى بعد أن طردتهم المليشيات الصهيونية من بلداتهم وقراهم. فـي ذلـك الوقـت توصلت الحكومة الأردنية إلى اتفاق مع وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، قضى بتوطين 28 عائلة فلسطينية من هؤلاء اللاجئين في القدس وتزويدهم بالمسـاكن، التي بنتها الحكومة الأردنية، على أن يتم نقل ملكية العقارات تلقائياً إلى أسمائهم خلال ثلاث سنوات بعد موافقتهم على التخلي عن صفة لاجئين، بحيث أصبح السكان، في سـنة 1959، أصحاب عقاراتهم. ونمت هذه العائلات الـ 28 منذ ذلك الحين لتصل إلى حوالي 72 عائلة ونحو 550 شخصاً.

بيـد أنـه بعـد قيام إسـرائيل باحتلال القدس الشـرقية خلال عدوان يونيو 1967، فوجئ سكان حي الشيخ جراح في سنة 1972 بحصول منظمات استيطانية على ملكية أرض في الحي، وطالبت هذه المنظمات بإخلاء عائلات فلسطينية تقطن على هذه الأرض.

وفي سنة 2001، تكررت محاولات الاستيلاء على منازل فلسطينية في الحي، عندما اقتحم نشطاء من اليمين المتطرف منزلًا ورفضوا مغادرته. ثم صدر في سنة 2008، حكم من إحدى المحاكم الإسرائيلية قضى بأن جزءاً من حي الشيخ جراح كان مملوكاً للمستوطنين الذين استقروا هناك خلال العهد العثماني وفقًا لوثيقة مزورة لم يكن لها أصل في الدواوين التركية. وفي عام 2010، صادق مجلس بلدية القدس على مشروع لبناء 16 وحدة سكنية للمستوطنين الإسرائيليين، ومنذ ذلك الحين وبدأ مسلسل لا ينتهي من تجاوزات المستوطنين وتعديهم السافر على السكان الآمنين لطردهم وتهجيرهم بالقوة.

فهمت سبب ربط والدي لقصة سكان هذا الحي مع زيارات شلومو الغريبة عندما أردت أن أستعلم أكثر عن معاناة سكان ذلك الحي فقرأتُ عن قصة سيدة كانت تعيش في الحي وتم تهجيرها وطردها منه، والتي قالت في مقابلة معها شاهدتُها على الانترنت «عشتُ في هذا المنزل أربعين سنة وكانت السنوات الخمس الماضية هي الأصعب حين استولى المستوطنون أول الأمر على نصف منزلي بالقوة وحولوا حياتنا إلى جحيم قبل أن يرموني في الشارع مع زوجي المريض. لكني على الرغم من ذلك، لم أستسلم وعشت في خيمة بجوار منزلي مدة عام كامل قبل أن يحرقوها ويشردوننا مجددًا».

لم أتمكن من النوم ليلتها. لم أعرف إن كنا نتعرض بالفعل إلى مؤامرة جديدة للاستيلاء على منزلنا بعد أن تخلينا عن جل

مدخراتنا لنعيده إلى ملكيتنا. فكرتُ أن شلومو أو يونان كما يفضل لو أن أمه سمته لم يبدُ عليه ما يشير إلى أنه يضمر لنا الشر. لا شك بأن تصرفاته غريبة وتفتقد للمنطق لكني لم أجد في نظراته أو حديثه أي إساءة. لكن ماذا لو كان شلومو مجرد بيدق تحركه جهة ما لتنفيذ مخطط شرير لا يدري عنه هو نفسه شيئًا. تذكرت حينها الارتباك الذي أصاب صاحب البقالة العربي عندما سألته عن شلومو وكيف تعمد تغيير الموضوع والتهرب من الإجابة. عزمتُ على زيارته في صباح اليوم التالي لأستعلم منه مجددًا وأضمرت في نفسي أني لن أدعه يتملص من الإجابة عن أسئلتي هذه المرة.

في قرارة نفسي تمنيت لو كان الاحتمال الأول الذي ذكره والدي هو الأقرب للحقيقة وأن زائرنا غريب الأطوار مجرد شخص بسيط يعاني اضطرابًا نفسيًا ليس أكثر.

بقيت مستيقظة إلى أن بزغ الفجر. صليت وأرغمتُ نفسي على النوم ومنّيتُها أن الغد لن ينقضي إلا وقد عرفت قصة ذلك الشاب الذي أرقتني تصرفاته.

لم تكد تبلغ التاسعة صباحًا إلا وكنت في الأسفل أتناول فطوري وأرتشف الشاي مع عائلتي. استأذنت والديّ في الخروج للتنزه في المنطقة مشيًا على الأقدام. ألحّ علي هشام لأصحبه معي فلم أمانع ووافق والدي ولم تعلّق أمي.

أخبرتُ هشام أني أريد أن أعرّج على البقالة وأن باستطاعته هناك شراء ما يحلو له.

لم أجد صاحب البقالة وعوضًا عنه وقفت عجوز سبعينية أو ثمانينيّة بلباس فلسطيني تقليدي مزركش تلبي طلبات الزبائن بوجه بشوش شجعني على المضي قدمًا فيما عزمت عليه. التقط هشام من أحد الرفوف بعض أكياس المقرمشات فحملتُها عنه ووضعتها أمام المرأة التي سارعت فجمعتهم في كيس كبير وهي تسأل بابتسامة واسعة «هل ترغب الصبية الجميلة ببعض الحلوى لها ولأخيها الأمير؟ لم أركما من قبل، هل أنتما في زيارة لأقارب عندنا في الحي؟»

«شكرًا لك يا خالة. نحن نسكن في سرايا جدي صالح بيدس. انتقلنا إليها مؤخرًا».

ظهرت عليها أمارات الحيرة «سرايا صالح بيدس تلك التي في الزاوية؟ عجيب حقًا، لم أعلم بأن للحاج صالح أحفاد على قيد الحياة في فلسطين ولم يخطر ببالي أن تسكنه عائلة عربية بعد أن تحول إلى مبنى حكومي ثم إلى بنك منذ زمن طويل».

«هذه قصة طويلة» ابتسمتُ ولم أعقب وتذكرت كلام والدي وتخوفه من أن تعرف الحكومة بأن المنزل قد عاد إلى ملكية عرب لهم جذور في المنطقة. دفعت لها المبلغ الذي طلبته وشكرتها ثم عاجلتها بالسؤال قبل أن أفقد شجاعتي «هل تعرفين شابًا وأمه يقطنان في الحي أو قريبًا منه؟ الشاب اسمه شلومو وهو غريب الأطوار قليلًا».

راقبتُ قسمات وجهها الذي تغضن قبل أن تجيبني «يا بنيتي لا أنصحك بالتعاطي مع هذه المرأة أو ابنها».

«لن أقبل بإجابة مبهمة» فكرت في نفسي وسألتها «لماذا؟ ماذا تعرفين بشأنهما؟ أخبريني كي أكون على حذر وأنبه عائلتي أيضًا إن استدعى الأمر».

تنهدت العجوز «أم الشاب كانت زوجة لسياسي إسرائيلي معروف، وبعد أن طلقها بزمن فوجئنا بها وقد سكنت مع ولدها في أحد المنازل العربية القديمة التي هُجّر أهلها أيام النكبة. ابنها ليس طبيعيًا وتصرفاته غريبة. سمعت أنه مصاب بحالة غريبة اسمها...» توقفت لتتذكر كما يبدو اسم الحالة «وحيد أو توحيد أو شيء قريب من ذلك»

«توحّد؟ يعاني من التوحّد؟» سألتها على عجل.

«نعم. نعم. توحّد. أحسنت يا ابنتي. لا أعرف ما هي هذه الحالة لكنه لا يتكلم إلا نادرًا ولا يجيد التواصل مع الناس. لم يكن ذلك ليغدو مشكلة لولا أنه اعتاد اقتحام منازل جيرانه العرب من غير استئذان فيفاجؤون به وقد ظهر داخل البيت وقد تكور في أحد الزوايا. تسبب ذلك بمشاكل كبيرة وصلت إلى الصراخ والاشتباك بالأيدي. نصيحتي لك بأن تحكموا إغلاق الأبواب وأن لا تسمحوا له بدخول المنزل، وهكذا تنؤون بأنفسكم عن التورط في مشاكل أنتم في غنًى عنها».

أومأتُ برأسي متفهمة وشكرتها وهممت بالخروج من المحل. التفتّ خلفي فلم أجد هشام. خطوت خارج البقالة والتفتّ يمنة ويسرة. لم يكن هناك. توجست خيفة وأمعنت النظر حولي في شتى الاتجاهات. لم أجد له أثرًا. لم أتمالك نفسي

وصحت بأعلى صوتي «هشام، هشام». التفت المارة نحوي ورمقوني بنظرة استغراب. لم أبال وخطوت بضع خطوات إضافية وأعدت النداء بكل ما أوتيت من قوة. انتظرت لحظات، ولكن ما من مجيب.

تملكني الخوف وسرت في أوصالي قشعريرة. جبتُ المكان جيئةً وذهابًا وأنا لا أتوقف عن الصياح باسمه. ركضتُ عائدة نحو المنزل وكلي أمل أن أجده وقد سبقني إلى هناك.

اقتحمت البوابة وانا اناديه بأعلى صوتي. لم يكن في الحديقة.

فتحتُ الباب الداخلي للسرايا عنوة وأنا لا أتوقف عن الصياح الذي تحول مع ما أصابني من فزع إلى صراخ. هبّ والدي للقائي وقد نزل مسرعًا من الطابق العلوي حافي القدمين وقد قطب جبينه قلقًا. خرجت أمي من المطبخ وقد تملكها الخوف «ما بك؟ ماذا حصل لماذا تصرخين؟»

«هشام، أين هشام؟» التفتُ حولي بحثًا عنه على أمل أن يخرج من زاوية ما.

«ألم تخرجا سويًا؟ هل أساء التصرف؟» سأل والدي وهو لا يدرك سبب اهتياجي.

«كنا معًا في البقالة ثم..» توقفت لألتقط أنفاسي وقد بدأت أنشج «كان معي هناك ثم فجأة اختفى... لم أجده خلفي... بحثت عنه في كل مكان حول البقالة وقريبًا منها» مسحتُ دموعي وأردفت «ربما عاد إلى غرفته دون أن تشعرا به. أليس كذلك؟»

ناديتـه مجـددًا بأعلـى صوتي وصعدت الدرجات بأقصى سـرعة تاركـة والـديّ في الأسـفل في حيرة مـن أمرهما. اقتحمتُ غرفته ولدي بصيص أمل. وجدتها فارغة موحشـة. عدت أدراجي إلى الأسفل وقد فقدتُ السيطرة على نفسي وانهالت دموعي بغزارة. دفنـتُ وجهـي فـي صـدر والدي وأنا أردد «لقـد أضعته يا أبي... كان معي وسهوت عنه لحظة فاختفى». أحاطني بذراعيه دون أن ينبس ببنت شفه.

11

«ألا يرد على هاتفه؟» سألت أمي والقلق يتملكها.

«لم يخطر ببالي أن أتصل به وكلانا لا يحمل شريحة محلية» أخرجتُ هاتفي المحمول وشرعت بطلب رقمه الكندي.

تناهى إلى سمعنا رنة مكبوتة. تتبعت الصوت إلى أن وجدت هاتفه محشور بين وسائد إحدى الأرائك.

«غريب. ليس من عادته الخروج بدون هاتفه المحمول» علّق والدي مقطبًا جبينه وتناول الهاتف من يدي.

«يوسف، علينا الخروج والبحث عنه. نحن في بلد غريب ولا شيء مستبعد. أخبرتكم مرارًا أني غير مرتاحة البتة لهذه الرحلة» جزت أمي على أسنانها وقد بدأت تفقد أعصابها.

«حسنًا، لم يمض على اختفائه سوى بضع دقائق. دعونا لا نهلع بهذه الطريقة. ربما يتنزه على الشاطئ وسيعود قريبًا»

«يوسف. ليس الوقت مناسبًا للتصرف بهذا البرود. فلنهلع ألف مرة بدون داعٍ ولا نتقاعس مرة فنندم باقي العمر».

كنتُ قلقة جدًا أنا الأخرى فأيدت أمي «بابا، دعنا نخرج ونبحث عنه. لن يضرنا ذلك، وسنترك رسالة نلصقها على باب السرايا ليقرأها هشام إن عاد أثناء غيابنا فينتظرنا ريثما نعود».

أومأ والدي برأسه وهمّ يصعد الدرج إلى غرفته ليبدل ملابسه عندما طنّ هاتف هشام بين يديه. توقف ونظر إلى الشاشة.

تبدلت ملامحه الهادئة وبدى جليًا أن ما وقعت عليه عيناه في الهاتف لم يكن مطمئنًا.

«بابا، ما الأمر؟»

عاد أدراجه وجلس على أول كرسي وجده وأخذ يمعن النظر في الشاشة.

«يوسف، إلى ماذا تنظر بكل هذا الاهتمام؟»

لم يتوقف هاتف هشام عن الطنين المتقطع «أُصيب عشرات الفلسطينيين جراء إطلاق الجنود الإسرائيليين الرصاص المطاطي على المعتصمين بالقرب من المسجد الأقصى» قرأ والدي قبل أن يردف «لم أعلم أن هشام يهتم بمتابعة الأخبار. إنه يتلقى سيلًا غير منتهٍ من الرسائل عبر العديد من مجموعات الواتس أب والتليغرام التي يبدو أنه مشترك فيها، وجميعها تنقل أخبار ما يجري في القدس».

«وما الذي يجري في القدس؟ وما علاقة ابننا بما يحدث هناك؟» سألت أمي فتجاهلها أبي بعد أن نظر إليها نظرة ذات مغزى.

«لانا، هل تعرفين الرقم السري لفتح هاتف أخيك؟ بدأ يساورني القلق وخطر ببالي خاطر أرجو ألّا يكون صحيحًا».

«تاريخ ميلاده. الشهر والسنة» أجبته سريعًا قبل أن أستدرك

وقد هز رأسه نافيًا «لقد غيره قبل أيام. لم يخبرني بالرقم الجديد» قلتُ مستسلمة.

«فكري يا لانا. الأمر هام» ألحّ والدي.

«ربما تاريخ وصولنا إلى فلسطين أو تاريخ انتقالنا إلى السرايا» اقترحت.

«لا هذا ولا ذاك» أجاب بعد أن فشلت المحاولتان.

«ما شاء الله، ستضيعان الوقت هنا في لعبة تخمين وهشام في الخارج وحيد لا نعلم عنه شيئًا، وقد أصبح فجأة مهتمًا بالسياسة بعد أن كان جل ما يشغله البحث عن كنزه والاستماع إلى الأغاني الكورية. لنخرج فورًا للبحث عنه» تركتنا وصعدت إلى الطابق العلوي ربما لتغيير ملابسها.

«بابا، ماما محقة. جرب التاريخ الذي عثر فيه على العملات القديمة. كان ذلك حدثًا جللًا بالنسبة إليه».

«ومتى كان ذلك؟» تنهد والدي.

أخبرته فحاول إدخال التاريخ، ولكنه قطب جبينه «لقد استنفدت محاولات التخمين. علي المحاولة بعد خمس دقائق. دعينا نتجهز للخروج قبل أن تنفجر أمك غاضبة ولا أستطيع ان ألومها».

بعد دقائق معدودة كنا جميعًا نهم بالخروج من الباب.

«الرقم السري صحيح. أعلن أبي بعد أن أصبح في الحديقة».

ألصقتُ ورقة تحمل رسالة مقتضبة على الباب.

«وماذا ستستفيد من تجاوز حماية هاتف ابنك؟ هذا تضييع

للوقت دعونا نفترق ونبحث عنه في اتجاهات مختلفة، ومن يجده أولًا يهاتف البقية ليطمئنهم» أعلنت أمي وهمت بالانطلاق وقد أشارت بيدها ناحية اليسار.

«انتظري لحظات. دعيني فقط أتأكد من أمر ما» انهمك والدي في تصفح الهاتف.

مرت خمس دقائق ونفد معها صبر أمي وبدأت تزفر في غضب.

دس والدي الهاتف في جيب بنطاله الخلفي وأعلن «هشام ليس تائهًا ولن نجده في الجوار» نظر إلى ساعة يده وأردف «لابد أنه الآن قد استقل الحافلة وانطلق في طريقه وقد قرر ألا يخبرنا خشية أن نمنعه».

«في طريقه إلى أين؟» سألت أمي في فزع.

12

«إلى القدس» أجاب والدي بعيون شاردة نحو الأفق.

«أنت تمزح. أي شأن لهشام في القدس؟ لابد أنك مخطئ. دعنا لا نهدر المزيد من الوقت. لنفترق ونبحث عنه حول المنزل» همت لتمضي في طريقها قبل أن يمسك والدي ذراعها.

«سارة، انتظري» أمر بحزم وكان نادرًا ما أسمعه ينادي أمي باسمها. «هشام خطط لهذا الأمر منذ عدة أيام وسجل في المذكرة في هاتفه الخطوات التي سيتبعها اليوم بالتفصيل. أولًا يخترع سببًا للذهاب مع لانا في نزهة، ثم يغافلها وينطلق إلى محطة الحافلات بالقرب من دوار الساعة ويستقل الحافلة رقم 15 والتي ستأخذه إلى شارع إسرائيل جوري وهناك سينزل من الحافلة ويمشي مسافة قليلة قبل أن يصعد إلى حافلة أخرى رقمها 405 توصله إلى محطة الحافلات المركزية في القدس الغربية. هناك ينوي أن يجد سيارة أجرة تأخذه إلى المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى».

نظرت أمي بذهول وهزت رأسها غير مصدقة «هشام خطط لكل ذلك؟ وماذا ينوي أن يفعل في المسجد الأقصى؟ يصلي هناك؟ لماذا لم يخبرنا لنذهب جميعًا؟»

«ماما. البلدة القديمة في القدس والمنطقة حول المسجد الأقصى كلها تغلي بالاعتصامات والمظاهرات وقد تطور الأمر إلى الاشتباك مع الجنود. ربما أنت لا تتابعين الأخبار، ولكن الوضع خطير جدًا هناك، ولهذا السبب تحديدًا فيما أخمن لم يخبرنا هشام بخطته وعزمه على الانضمام إلى الحشود التي قدمت من مختلف المناطق في فلسطين لنصرة العائلات في حي الشيخ جراح» توقفتُ لحظات أفكر قبل أن أستدرك «لكني أشك في أنه سيسمح له بالوصول إلى باحة المسجد الأقصى. أتمنى فقط ألا يتهور ويأخذه الحماس فيقوم بما لا تُحمد عُقباه».

«يوسف، هل الأمر حقًا بهذه الخطورة؟» نظرَت نحو أبي وقد تملكها الخوف ولاحظتُ ارتجافًا في أناملها.

«هو كذلك» قال والدي ولم يعقب وإن وشت ملامحه بما يعتمل في صدره من قلق بالغ.

«فلنلحق به على الفور. ماذا ننتظر؟» قالت أمي بعصبية قبل أن تضيف بحدة «قلت لكم مرارًا ما لنا ولهذا البلد؟ ها نحن الآن على وشك خسارة ابننا».

«هذا البلد هو وطننا ووطن أجدادنا، وعلينا أن نشعر بالخزي لأن هشام الذي لم يتجاوز العاشرة فطن إلى واجبه قبلنا» أردتُ أن أجيبها، ولكني ارتأيتُ ألا أفعل.

«سأذهب بمفردي. الأوضاع هناك غير مستقرة وقد شرع الجنود بإطلاق الرصاص المطاطي على المتظاهرين» قال أبي.

«بابا، لابد أن آتي معك. البحث هناك سيكون عن إبرة في

كومة قش» قلت قبل أن أتوجه إلى أمي «ماما، أظنه من الأفضل أن تنتظرينا في المنزل وقبل أن تعترضي تذكري أنك ربما تضطرين للتواصل مع السفارة الكندية إن تأخرنا في العودة أو التواصل معك أو تعرض أحدنا إلى موقف نحتاج فيه إلى مساعدة عاجلة. على أحدنا أن يكون بعيدًا عن بؤرة الأحداث وقادرًا على تقديم المساعدة».

على غير العادة لم تعترض أمي وتبادلت النظرات مع أبي الذي بدا مقتنعًا بكلامي إلى حد ما.

«ربما تكون لانا على حق وإن كنت مترددًا في أخذها معي وتعريضها للخطر».

«بابا، لا داعي للقلق. لن أبرح ناظريك وسأعينك على العثور على هشام» تجمدت الكلمات في فمي عندما التمعت في ذهني فكرة رسمت الابتسامة على وجهي «بابا، هشام يرتدي ساعة أبل وهذا يعني أن باستطاعتنا ببساطة الولوج إلى حسابه على الانترنت وتتبع مكانه بالضبط باستخدام خدمة Find My iPhone وعندما نكون قريبين منه ستصدر ساعته تحذيرًا صوتيًا يوصلنا إلى موقعه بالضبط».

تهلل وجه والدي ولم أعد بحاجة إلى بذل مجهود إضافي لإقناعه. أخذتُ منه الهاتف وولجت إلى حساب هشام لأتفقد موقعه الحالي. ظهرت نقطة في شارع ما في وسط الخريطة وبعد لحظات تحركّت. كان من الجلي أن هشام أصبح داخل الحافلة. لم أكن واثقة إن كان لا يزال في الحافلة الأولى أم استقل الثانية.

«علينا أن نسرع» أخبرتُ أبي بينما عادت أمي أدراجها ودلفت إلى المنزل بعد أن أوصتنا أن نتصل بها بمجرد وصولنا وأن نطمئنها حال عثورنا على هشام.

رغم قلقي على هشام إلا أني لم أستطع إخفاء فرحتي بأني قد تتاح لي فرصة زيارة المسجد الأقصى، بل والمشاركة مع أبناء بلدي في الذود عنه وعن المقدسيين المهددين بالتشريد والاقتلاع من منازلهم.

في البداية توجهنا مشيًا على الأقدام إلى محطة الحافلات قرب دوار الساعة في يافا. توقعتُ أن نستقل نفس الحافلة التي صعد إليها هشام من قبل، إلا أن والدي فضل اختصار الوقت وأخذ سيارة أجرة توصلنا إلى المحطة المركزية للحافلات في القدس علّنا نكون في استقبال هشام عندما ينزل من حافلته.

انتظرته ريثما يتفق مع أحد سائقي الأجرة وكان دوار الساعة يعج بهم. استغربت عندما رأيته ينتقل من واحد إلى آخر. «هل كان يبحث عن السعر الأفضل؟» صرفتُ تلك الفكرة إذ لم يكن ذلك من شيم والدي خاصة ونحن في عجلة من أمرنا. اقتربتُ منه «بابا، ماذا يجري؟ ماذا ننتظر؟ لماذا لا نركب؟»

«يرفضون الذهاب إلى القدس. يقولون أن الوضع متوتر جدًا هناك وأن لديهم توجيهات تقتضي بعدم الاقتراب من المدينة حتى إشعار آخر» قال أبي مقطب الجبين.

«ماذا عن الحافلات؟ هل نستطيع أن نذهب بالحافلة؟»

«لست متأكدًا، لا بد من أن نستقل حافلتين لنصل إلى هناك».

«وهل سيصل هشام إلى القدس أم أن طريق سير الحافلة سيتأثر هو الآخر؟» سألتُ وأنا أدرك أن أبي لا يملك الإجابة. فكرتُ قليلًا ثم أضفت «ربما نستطيع ركوب سيارة أجرة أو ربما استئجار سيارة وتتبع موقع هشام واستقباله بمجرد أن ينزل من الحافلة».

أعجبت الفكرة والدي وفضل استئجار سيارة ليكون لدينا حرية التنقل دون أن نجذب الانتباه، وهكذا سأل أحد سائقي الأجرة عن مكتب قريب لتأجير السيارات فأشار بيده نحو واجهة محل في الجهة المقابلة لنا.

في مكتب التأجير تبين أن والدي بحاجة إلى جواز سفره لإتمام المعاملة فعدنا أدراجنا نحو المنزل وأنا أتفقد موقع هشام كل دقيقة.

لم يكد والدي يتجاوز بوابة السرايا وكان يسبقني ببضعة أمتار حتى سمعته يصيح بأعلى صوته فهرولتُ مسرعة خلفه.

أدركت سبب غضبه عندما رأيتُ شلومو تحت شجرة البرتقال مغمض العينين ومتكورًا على نفسه في هيئة الجنين.

هم والدي بالاقتراب منه وقد شمر عن ساعديه وكأنه يستعد للعراك أو لإخراج شلومو بالقوة.

«بابا، انتظر» أمسكتُ بمعصمه ثم همست «هو مصاب بالتوحد. دعني أتصرف معه واذهب أنت لإحضار جواز السفر ولا تخبر أمي عن الشاب. لا تقلق سأخرجه بهدوء».

هـدأ والـدي قليـلًا وانتظـر يراقبني ليـرى كيف سـأتصرف فأشـرت إليـه ليدخـل السـرايا «أخبرتـك ألا تقلـق» فذهـب على مضض.

جثوتُ بالقرب من شلومو «بإمكانك أن تفتح عينيك الآن. لقد غادر والدي».

أطاعنـي واعتـدل فـي جلسـته «أعتـذر عمـا أسـببه لكم من إزعـاج. جئـت فقط لأخبرك أني لمحت أخاك يلتقط حجارة من الطريق ويدسها في حقيبة ظهره قبل أن يصعد إلى حافلة بمفرده. اسـتنتجتُ فـورًا أنه يتوجه إلـى نقاط التماس مع جنود الاحتلال فارتأيت أن أحذركم خشية أن يصيبه مكروه».

تعجبتُ من سرعة كلامه «تقول جنود الاحتلال؟»

«ليس لهم اسم آخر يصف ما يفعلونه».

شـكرتُه وتشـجعتُ فأخبرته بما اكتشفنا أن هشام ينوي فعله وعن عزمنا اللحاق به.

تفاجأتُ عندما عرض فجأة أن يقلنا بسيارته. لم يخطر ببالي أنـه قـادر علـى قيادة سـيارة. لم أصدق عندمـا أخبرني أنه يملك سـيارة سـريعة أهداها له والده يوم ميلاده. لم أسـتطع أن أتخيله يركب سيارة سريعة ويناور بها.

عـاد والـدي وكاد أن ينفجـر غاضبًـا عندمـا رأى شـلومو واقفًا لم يختف بعد. أسـرعتُ فشـرحت له أنه يحاول المسـاعدة فقـط، وقـد أتـى ليحذرنا ليس أكثر. أخبرته بعرضه أن نركب معه سيارته السريعة، وأني أظنها فكرة حسنة لأن الوقت بات يداهمنا

وإجراءات استئجار السيارة ربما تستغرق الكثير من الدقائق الثمينة.

وافق والدي على مضض بعد أن امتلك الشجاعة واعتذر عن سورة غضبه وشكر شلومو على عرضه المساعدة.

انطلق شلومو بخطوات سريعة متقاربة جعلته يبدو غريب الأطوار بحق بعد أن أخبرنا أن ننتظره ريثما يعود بالسيارة.

لم تمض دقائق معدودة حتى سمعنا بوق سيارة تهدر. خطونا خارج البوابة لنجد كمارو حمراء جديدة تنتظرنا وخلف مقودها شاب يرتدي نظارات شمسية تخفي عينيه.

«من المحال أن أصدق أن شلومو كان خلف المقود» فكرتُ وأنا أجلس في الكرسي الخلفي بعد أن استقر والدي إلى جانب شلومو.

ناولتُ هاتف هشام إلى شلومو الذي نظر إلى الخريطة وأومأ برأسه فزمجرت السيارة وانطلقت بعد أن صرّت إطاراتها بأعلى صوتها.

13

خرجنا من أزقة يافا باتجاه طريق سريع خارجي متعدد الحارات. لم ينطق شلومو بكلمة واحدة ولم يلتفت إلى والدي الذي كان يكلمني همسًا طوال الطريق.

تابعت النظر إلى النقطة المضيئة على الخريطة. كانت تتحرك ببطء. «كم نحتاج من الوقت لنقترب من الحافلة التي تقل هشام؟» سألتُ شلومو.

«عشرون دقيقة أخرى» أجاب بإيجاز بصوت بدا آليًا.

لم تعجبني نظرات والدي إلى شلومو. كان يتأمله كما لو كان كائنًا فضائيًا.

«أين تعلمت التحدث باللغة العربية؟» سأل والدي فجأة.

«في المنزل».

«تقصد أنك درست اللغة العربية في المنزل على يد مدرس خصوصي؟»

«لا. لم أستعن بمدرس».

«كيف تعلمت اللغة إذًا؟»

«علمتُ نفسي بنفسي».

«حقًا؟ تتكلم بطلاقة. لابد أن لديك أصدقاءً عربًا تمارس معهم اللغة».

«ليس لدي أصدقاء»

«غريب» تمتم والدي.

تابعت الحوار القصير بينهما ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام. والدي يسأل مقطب الجبين وكأنه محقق متمرس وشلومو يجيب كروبوت من عالم آخر.

«بابا. اختفى المؤشر» صحتُ فجأة بوجل وأنا أحدق في شاشة الهاتف.

«أي مؤشر؟» جفل والدي.

«لم أعد قادرة على تتبع موقع هشام. يخبرني البرنامج أنه يتعذر الوصول إلى الساعة» قلتُ بتوتر.

«ماذا يعني ذلك؟» سأل والدي وقد بدت عليه ملامح القلق.

عندما لم أُجب قال شلومو بعد لحظات «لابد أن بطارية الساعة نفدت».

أومأت برأسي «وما العمل الآن؟»

«نسبقه إلى محطة الحافلات الرئيسية في القدس» اقترح والدي وهو ينتقل ببصره بيني وبين شلومو.

«دعيني أرى آخر نقطة تواجد فيها قبل أن يختفي المؤشر» طلب شلومو دون أن يلتفت.

ناولته الهاتف فنظر إلى الخريطة ثانية وأعاده إليّ «هل

تعرفين رقم الحافلة التي استقلها؟»

«بابا؟»

فكر ثانية او اثنتين ثم أجاب «يفترض أن يستقل الحافلة رقم 15 ثم ينزل ويصعد إلى حافلة أخرى رقمها 405».

«أصبح في الحافلة الثانية. أنا أعرف مسارها جيدًا. سألحق بها» وقبل أن نعلق انتقل فجأة بالسيارة إلى أقصى اليسار وانطلق بسرعة كبيرة ألصقَت ظهري بالكرسي وأجبرتني على التشبث بالمقعد.

لم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا نخرج من الطريق السريع وننعطف نحو شارع داخلي مزدحم.

تفاجأت من الطريقة التي استطاع بها شلومو المناورة والانتقال من حارة إلى أخرى بخفة كسائق متمرس. بدا سلوكه ذلك لا يستقيم مع الصورة التي ارتسمت له في ذهني كشاب خجول يعاني من التوحد ويتجنب الاختلاط بالناس. تأملته وهو يمسك عجلة القيادة بسلاسة بيد واحدة ويطيح بها يمنة ويسرة كراقص محترف. استطعتُ من موقعي خلف والدي أن ألمح ابتسامة رضى ترتسم على وجه شلومو. بدا لي مستمتعًا بهذه المغامرة الصغيرة. لا أدري لماذا وجدتني أتعاطف معه وأنسى تمامًا دينه وجنسيته. ترددت في ذهني كلماته وهو يصف جنود بلده بجنود الاحتلال «ليس لهم اسم آخر يصف ما يفعلونه».

انتُزعتُ من تأملاتي عندما صاح شلومو فجأة «هذه هي

الحافلة على الأغلب» وأشار إلى حافلة خضراء متوقفة في محطة على اليمين ينزل منها بعض الركاب ويصعد آخرون.

أصبحنا خلفها تمامًا وأمعنت النظر في وجوه الركاب الذين نزلوا منها. لم يكن هشام بينهم وخمنت أنه سينزل في المحطة الأخيرة.

«بابا، هل ننزل ونلحق بالحافلة ونصعد إليها؟»

«نعم، هيا بنا» أجاب والدي وهم لينزل من السيارة، ولكنه انتبه إلى أن الحافلة بدأت بالتحرك.

«لا فائدة من الجري خلفها. لن تتوقف الحافلة ما دامت قد غادرت المحطة. سأتبعها. المحطة المقبلة هي المحطة الأخيرة» قال شلومو وانطلق قبل أن يتسنى لنا أن نعلق.

بقينا خلفها طوال عشر دقائق مرت كدهر. انعطفت الحافلة نحو ساحة كبيرة تضم عشرات الحافلات فأيقنتُ أننا وصلنا إلى المحطة المركزية للحافلات.

ركن شلومو السيارة في مكان مناسب وهرولتُ أنا وأبي نحو الحافلة حيث بدأ الركاب بالنزول.

شرعنا نتمعن في الوجوه بحثًا عن هشام عندما دوّت فجأة صافرات الإنذار.

في لمح البصر هاج الناس وماجوا وتعالت صرخات المارة. اختلط الحابل بالنابل ووجدنا أنفسنا نندفع فجأة بعيدًا عن الحافلة مع تيار هائج من البشر المرتعبين.

«ماذا يجري؟» صرختُ وأنا أحاول أن أبقى متشبثة بيد

والدي خشية أن نفترق عنوة.

«لا أدري. هل لمحت هشام؟» سألني وكان لا يزال يحاول جاهدًا أن يرفع من جذعه ويبحث في بحر من الوجوه الشاحبة.

هززت رأسي نافية وقد تملكني خوف وقلق.

بـدأ النـاس حولنـا يصرخون «ريكتا، ريكتـا، خماس» ودب الذعر.

14

اندفعنا بقوة التيار البشري نحو ملجأٍ قريب تحت الأرض. لم ندر ما أصاب القوم حتى سمعنا أحدهم يتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية يخبر صاحبه أن زخة من الصواريخ قد أطلقت من غزة انتقامًا لاقتحام المسجد الأقصى ومحاولة طرد بعض العائلات الفلسطينية من بيوتها في أحد أحياء القدس الشرقية.

«بابا، يبدو أن الأمر جد خطير. ماذا نفعل وما زلنا لا نجد أثرًا لهشام ولم ألمحه يخرج من الحافلة وقد أمعنت النظر في وجوه جميع من نزل منها؟»

«تفقدي موقعه على الخريطة. هل عاود المؤشر الظهور؟»

هززت رأسي عندما أخرجت الهاتف وحاولت مجددًا فطالعتني رسالة فشل محاولة الاتصال بالساعة.

«من المحتمل أن يكون قد نزل من الحافلة متأخرًا ثم اندفع مثلنا نحو الملجأ. لابد أن نبحث عنه».

«المكان مزدحم هنا ومن الصعب أن يعثر فيه أحد على أحد، لكني مع ذلك سأحاول وأجوب المكان بحثًا عنه. ابق هنا بابا ريثما أعود حتى أتمكن من إيجادك بسهولة» وافق والدي على مضض وكان يفضل أن يذهب هو ويتركني أو

نذهب معًا، وكان يخشى أن ألفت الأنظار بحجابي أو أتعرض لمكروه بسببه.

لم يكن من السهل الانتقال من مكان لآخر من بين تلك الجموع التي بدت مرتعبة ومتوترة. حاولت جاهدة أن أركز نظري في البحث عن قامة صبي وألا أطيل النظر في وجوه الناس. كان الأمر كمن يبحث فعلًا عن إبرة في كومة قش. تمنيت لو كان بمقدوري أن أنادي باسمه بأعلى صوتي. المساحة كبيرة تتسع للمئات وربما أكثر، ومع ذلك لم أجد فيها موطئ قدم.

تأثرتُ عندما رأيت أحدهم متكورًا على نفسه في أحد الزوايا، وأدركت من هيأته وهندامه أنه شلومو وكنت قد نسيت أمره تمامًا في خضم انشغالي بالبحث عن هشام.

اقتربت منه وانحنيت وحدثته بصوت خافت «شلومو، هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟»

رفع رأسه ببطءٍ وكان شاحب الوجه. تهللت أساريره عندما رآني وسأل بلهفة «هل عثرت على أخيكِ؟»

هززت رأسي «ليس بعد. لم ينزل من الحافلة ولا أدري إن كان على متنها أصلًا. بحثت في الأرجاء هنا، ولكن دون جدوى. بدأتُ أصاب بالذعر وقد نفد ما بجعبتي من أفكار» تنهدتُ واتتصبتُ واقفة وكذلك فعل شلومو. «سأعود إلى حيث تركت والدي. تعال معي».

أومأ برأسه وتبعني.

«لا أثر له. لم أجده في أي مكان. بتُّ على ثقة أنه ولابد

قد نزل في محطة سابقة أو استقل حافلة أخرى» أخبرت والدي فلم يعقب وأطرق يفكر ولم يسألني عن شلومو واكتفى بأن أومأ برأسه ناحيته.

طن الهاتف في يدي فرفعته ونظرت في شاشته. قرأت بصوت مسموع «هشام، ارجع ولا تأت. الوضع شديد الخطورة. لن تتمكن من الوصول ولن يسمح لك بالاقتراب. سنبقى معتصمين هنا وسأنقل لك الأخبار أولًا بأول».

انتزع والدي الهاتف من يدي وأعاد قراءة الرسالة ثم نقر بضع نقرات وقرب الجهاز من أذنه. «السلام عليكم. أنا والد هشام. هل تعرف مكانه؟ وكيف سولت لك نفسك أن تغرر بصبي صغير وتحضه على الهرب من بيته ليلحق بكم ويعرض نفسه للخطر دون أن يأخذ الإذن من والديه على الأقل؟»

لم يسبق لي أن رأيت والدي يتحدث بهذه العصبية من قبل. لم أستطع أن ألومه ولم أجد في ذهني مبررًا لأن يقوم أحدهم بتشجيع صبي على تعريض نفسه للخطر.

استغربتُ عندما رأيت ملامح والدي تلين وتهدأ سورة غضبه وقد أخذ يتحدث بالإنجليزية في كلام متقطع لم أفهم سياقه.

بعد بضع جمل مبهمة أقفل الخط وأعاد لي الهاتف «لن تصدقي الأمر» قال مبتسمًا وأردف «لقد تحدث إليّ صبي في عمر هشام تقريبًا، وقد ذُعر عندما خاطبته بعصبية قبل أن أعرف منه أنه وصبية آخرون من أبناء العائلات المهجرة في الغرب ممن

تصادف وجودهم في فلسطين قد كوّنوا مجموعة على وسائل التواصل الاجتماعي يتناقلون فيها الأخبار ويحثون بعضهم على نصرة الأقصى، وقد اتفقوا فيما بينهم على إقناع أهاليهم بزيارة القدس والمسجد الأقصى بصحبتهم لتسجيل موقف ومساندة العائلات المعرضة للتهجير القسري. لسبب ما لم يخبرنا هشام وقرر الذهاب بمفرده. كان يفترض بهم الاجتماع في حي الشيخ جراح في القدس، ولكن هشام تأخر في الوصول فأرسل إليه صديقه الذي تحدثت إليه يحثه على أن يعود أدراجه نظرًا لتأزم الموقف» تنهد قبل أن يكمل «للأسف ما تزال المشكلة قائمة إذ لا يبدو أن أي أحد على دراية بمكان وجود هشام في هذه اللحظة».

توقفت صافرات الإنذار وأعلنت مكبرات الصوت بالعبرية ثم بالعربية أن الوضع بات آمنًا ويسمح بالخروج من الملجأ. خرجنا مع من خرج ووقفنا ثلاثتنا ننظر إلى بعضنا البعض في حيرة لا ندري ماذا نفعل لاحقًا.

«نستعين بالشرطة؟» اقترحتُ وأنا غير واثقة إن كانت فكرة سديدة.

لم يجب والدي على الفور بينما هز شلومو رأسه معترضًا «سيزداد الأمر سوءً بمجرد أن يدركوا سبب اختفائه».

«شلومو على حق» قال والدي باقتضاب وكانت المرة الأولى التي يذكر فيها شلومو باسمه.

رن هاتف والدي...

«هذه أمك ربما تتصل لتطمئن» قال ثم رفع الهاتف إلى أذنه «أهلًا سارة» توقف عن الكلام وأخذ ينصت قبل أن يكمل «لا داعي للقلق. سمعنا الصافرات هنا أيضًا ولم يحدث شيء.... انفجارات؟ أي انفجارات؟ حسنًا حسنًا سنعود فورًا..... لا. لم نجده حتى الآن ولا نعرف مكانه» أقفل الخط بعد أن أكد لها مرارًا أننا عائدون إلى المنزل.

«بابا، ماذا هناك؟ عن أي انفجارات تتحدث أمي؟» سألتُه وقد تسلل القلق والخوف إلى نفسي.

«أُطلقت صافرات الإنذار في تل أبيب أيضًا وتقول أمك أنها رأت بعض الصواريخ تسقط في مكان ما بالقرب من الشاطئ وأنها سمعت دوي انفجار قريب. هي بخير، لكنها مذعورة وتصر كالعادة على أن نترك البلد فورًا، لا أدري لماذا علينا نحن أن نترك البلد ونحن أصحابه. فليتركوه هم» وفلتت منه نظرة غير متعمدة نحو شلومو قبل أن يردف «حسبَت أن هشام أصبح في صحبتنا ورُوّعت أكثر عندما علمت أننا لم نجده بعد».

«ما العمل الآن؟» سألتُ والدي.

«لدي فكرة» أعلن شلومو بصوت بالكاد مسموع فنظرنا نحوه فأخفض عينيه.

«أرى أن الحافلة التي يفترض أن هشام كان يستقلها لا تزال لم تتحرك. إن كان بحوزتكما صورة له أستطيع أن أذهب فأسأل السائق إن كان قد رآه، وربما يتذكر في أي محطة نزل».

ابتسم والدي وأعجبته الفكرة وأخرج محفظته وناول

شلومو صورة شخصية حديثة لهشام. «شكرًا لك» قالها ومد يده ليصافحه.

تردد شلومو وشعرتُ به يتصبب عرقًا وهو يمد يدًا مرخيّة فخمنت أنه لم يعتد على مصافحة الناس أو السماح لهم بلمسه. هز والدي يده في مصافحة قوية كادت تفقد شلومو الوعي. «بابا يكفي. تصافحه كأنك لن تراه مجددًا. دعه يلحق بالحافلة» قلتها بنبرة مرحة فأفلت والدي يد شلومو الذي أرسل نحوي نظرة امتنان مشفرة.

راقبته وهو يخطو نحو الحافلة في مشية لم أستطيع أن أصنفها بأنها طبيعية. تعاطفت معه وأنا أرى المارة يحدقون به ويتهامسون، وتخيلت كم صعبًا أن يعيش المرء في قوقعة لا يستطيع الخروج منها وما أن يحاول الخروج حتى يواجه بالأحكام المسبقة والتصنيفات المهينة.

«مسكين. يبدو شابًا مهذبًا» قال والدي وقد لاحظ نظراتي.

«هو كذلك، ولكن لماذا مسكين؟ مختلف ربما، ولكنه ليس مسكينًا» قلت بحزم فهز كتفيه.

عاد شلومو بعد دقيقة أو نحوه ونظره في الأرض لا يرفعه.

«تعرّف السائق على هشام وأكد أنه رآه ينزل من الحافلة قبل محطتين بصحبة فتىً أكبر سنًا».

تنفستُ ووالدي الصعداء.

«هل نعود أدراجنا إلى المحطة التي نزل عندها ونبحث

هناك في الأرجاء؟ بالمناسبة، ماذا يوجد هناك؟» وجهت سؤالي لشلومو.

رن هاتف والدي مجددًا فنظر إلى هوية المتصل «إنها أمك. لابد أنها لا تطيق صبرًا».

«نحن في الطريق. لا تقلقي...» استوقفَته أمي كما أظن قبل أن تتبدل ملامحه فجأة «مصاب! ماذا تعنين بأنه رجع إلى البيت لكنه مصاب؟ ..... مصاب أين وما هي حالته؟ ...دعيني أتحدث إليه... حسنًا. نحن قادمون. لن نتأخر».

شحب وجهي وفرت الدماء من عروقي «هل أصيب هشام؟»

15

لا أدري كيف وصلنا ولا كم استغرقنا لنصل. كل ما أذكره هو اندفاعي من البوابة راكضة وأنا أنادي على هشام قبل حتى أن يُفتح باب المنزل.

ذُعرت عندما رأيت يد أمي مضرجة بالدماء وهي تربط عصابة حول رأس أخي بشال أبيض وخيط من الدماء يسيل على جانب وجهه.

«يوسف، خذه إلى المستشفى. أخشى أن يكون قد أصيب بارتجاج جراء الإصابة».

«نعم، نعم. هيا بنا، لكن هل أنت بخير؟ هشام حبيبي، ما الذي أصابك؟ ولماذا تنزف؟ هل اعتدى عليك الجنود؟»

«بابا، أنا بخير. لست بحاجة إلى مستشفى. الإصابة طفيفة. لا داعي للقلق» أجاب مبتسمًا قبل أن يردف «لا علاقة للجنود بالموضوع. هي قصة طويلة سأرويها لاحقًا، لكني أصبت هنا خارج الحي في طريق عودتي وبعد أن توقفت صافرات الإنذار. استوقفني فتية أكبر مني سنًا ويضعون طواقي صغيرة دائرية على رؤوسهم. شتموني بعد أن فطنوا إلى كوني عربيًا وحاولوا الاعتداء علي. دافعتُ عن نفسي بما أحمله من حجارة في حقيبتي» ضحك

وهو يبعد ناظريه عن أمي «سأفسر فيما بعد سبب وجود حجارة في حقيبتي. المهم في الأمر أني نجحت في الدفاع عن نفسي، أما إصابتي هذه فهي لا تؤلمني ويكفي أن أخبركم أنهم هم من لاذوا بالفرار ولست أنا».

تبادلتُ النظرات مع والدي وانفجرنا ضاحكيْن.

«ما المضحك في الأمر؟» سألت أمي بعصبية «ابنك في العاشرة من عمره يشج رأسه فتيان متعصبون ويشتمونه وأنت تضحك! ماذا لو أصابوا عينه ففقؤوها، هل كنت ستضحك هكذا أيضًا؟ لن أبقى دقيقة واحدة في هذا البلد. لابد أن نرحل فورًا».

«سارة، اسمعيني جيدًا. هذا منزلنا وهذا وطننا. لن نرحل ولو انطبقت السماء على الأرض. فليرحلوا هم ويعودوا إلى البلدان التي جاءوا منها» احتد والدي وانتفخت أوداجه. لم يسبق لي أن رأيته في هذه الحالة من قبل.

أستطيع أن أؤكد لكم أن كلمات والدي أصابت أمي بالذعر فقد شحب وجهها وارتجفت يداها «ماذا تقصد بقولك أننا لن نرحل؟ إجازتنا شارفت على الانتهاء. لابد أن يرجع هشام ولانا إلى دراستهما ونرجع نحن إلى أعمالنا».

«نعم. أفهم ذلك، ولكن علينا العودة في أقرب وقت. يجب أن نعيش هنا في وطننا. سأجد طريقة لأسجل فيها هشام في مدرسة عربية في العام الدراسي القادم وتستطيع لانا أن تلتحق بجامعة النجاح أو بير زيت حيث تستطيعين التدريس

أنت أيضًا. أما أنا فسأقدم خدماتي للمشافي الفلسطينية وربما أفتتح عيادة».

«لابد أنك تهذي أو فقدت عقلك تمامًا» قالت أمي بسخرية ففهمتُ أن النقاش سيزداد حدة فأخذتُ بيد أخي وخرجنا إلى الحديقة.

وجدت شلومو يقف تحت شجرة البرتقال كأنه تمثال حجري وكنت قد نسيت أمره مجددًا. اقتربت منه فرفع حاجبيه في فزع عندما لمح العصابة حول رأس هشام فأخبرته بأمر المشاجرة مع الفتية المتعصبين.

لم أفهم ماذا حصل وما الذي أصابه بعدها، فقد احمر وجهه وتبدلت ملامحه فجأة. ضم قبضتيه كمن يتجهز لخوض جولة ملاكمة مصيرية، ثم مضى في سبيله دون أن يلتفت أو ينطق بحرف واحد.

«لماذا غضب هكذا؟» سألني هشام.

رفعت راحتيّ في الهواء باستسلام «ليس لدي أدنى فكرة» ثم نظرتُ إلى هشام بجدية «لم تخبرنا بما حدث معك اليوم. قلبنا عليك القدس رأسًا على عقب ونحن نبحث عنك. كيف خطر ببالك أن تذهب هكذا بكل بساطة دون أن تكلف نفسك عناء أن تستأذن أو تترك خبرًا؟ لقد عشنا في رعب منذ الصباح الباكر ونحن في حيرة من أمرنا لا ندري أين ذهبت ولا ماذا تفعل».

أطرق برأسه واعتذر بعد أن أخبرني بمغامرته الصغيرة التي

خشي أن تولد في مهدها إن علمت بها أمي خاصة. عرفتُ منه أنه نزل من الحافلة ولم يكمل طريقه إلى نهايته عندما تعرف على شاب فلسطيني في الحافلة أخبره أن الطرق جميعها قد سدت حول حي الشيخ جراح وكذلك حول باحات المسجد الأقصى، ونصحه بالعودة إلى المنزل قبل أن يتعرض لمكروه وبقي في صحبته إلى أن وصل إلى المحطة القريبة من دوار الساعة في يافا.

«عدني ألا تفعل ذلك مجددًا. تستطيع دائمًا أن تفاتحني في أي موضوع تشاء، وتأكد أني لن أخبر والدينا ما دمت لا ترغب في إعلامهما فأنا أجيد حفظ الأسرار» قلت مبتسمة فأومأ برأسه. نظرتُ في عينيه وأضفتُ «تأكد أننا جميعًا نرغب في تقديم المساعدة ورفع الظلم عن إخوتنا بكل الطرق المتاحة. في المرة القادمة سنذهب سويًا للاعتصام. ما رأيك؟» اتسعت ابتسامته وتفاجأتُ عندما عانقني بقوة فعبثتُ بشعره قبل أن أبدأ في دغدته فتفلّت من بين يديّ بصعوبة وابتعد ضاحكًا.

تعالت الأصوات في الداخل فنظر إليّ هشام بقلق «متى سيتوقفان عن الشجار؟»

حرتُ جوابًا «أمنا تقلق كثيرًا وقد أصبحت متوترة جدًا أغلب الوقت منذ أن وصلنا إلى هنا».

«لكن والدي على حق ففلسطين وطننا ولا نستطيع أن ننسى أمره هكذا ببساطة ونقنع أنفسنا أننا كنديون وحسب».

أعجبني رده. متى كبر هكذا وأصبح واعيًا إلى هذه الدرجة؟ تساءلت في سري. «لا أستطيع أن ألومها. تذكر أن جدها واثنين

من إخوانه قُتلا على يد العصابات الصهيونية قبل أن تنجح جدتها في الهجرة إلى لبنان مع عائلتها. أنت بالتأكيد لا تذكر الحكايات التي كانت ترويها لنا جدتي عن الأيام المرعبة التي قضتها وهي صغيرة عندما اقتحم الإرهابيون المنازل في الحي الذي كانت تقطنه وأخذوا بقتل الذكور صغارًا كانوا أم كبارًا رغم أن أحدهم لم يملك سلاحًا يدافع به عن نفسه. أخبرتني أمي ذات مرة أن جدتي كانت تروي هذه الحكايات مرارًا وتكرارًا إلى درجة جعلت أمي ترى أحداثها في أحلامها كأنها هي من عاشتها وليس جدتي. أبي يقول أن الأمر تحول لديها إلى خوف مرضي، وهو بالضبط ما أراد المحتلون أن يصلوا إليه بزرع الرعب في نفوس العرب وإقناعهم بأنهم لا يقهرون وأنه لا طاقة لنا بالتصدي لهم ومقاومتهم».

«لا أظنهم قد نجحوا في ذلك فأنا لا أخافهم ولا يخافهم الصبية الصغار الذين يطمرونهم بالحجارة» قال هشام بحماس بالغ.

«أنت محق وذلك هو رأيي ورأي أبانا الذي فسر لي أن كثيرًا من الفلسطينيين عندما بدأت الحرب كانوا فلاحيين مسالمين، وقد أخطأوا عندما وثقوا بالجيوش العربية التي وعدتهم بدحر الأعداء في أيام معدودة. أما الأجيال اللاحقة فقد أدركت أن العدو أجبن بكثير مما كان يعتقد آباءهم».

هدأت الأصوات فأومأت لهشام لنعود إلى الداخل.

وجدنا أبي يقف في منتصف البهو ويضع يديه على خصره

وينظر إلى أعلى الدرج «أين ماما؟» سألته بتوجس.

«صعدت إلى غرفتها لتحزم أمتعتها. هي مصرة على العودة إلى تورونتو في أول رحلة وتريد أن تأخذ هشام معها» قال بعصبية ونفاد صبر.

«لن أذهب إلى أي مكان» قال هشام مغضبًا وصعد الدرجات إلى الطابق العلوي.

«ألن تغير رأيها عندما تهدأ؟» سألتُ أبي وأنا أضم ذراعيّ حول صدري.

«لا أظن. تبدو عازمة على أمرها وقد هالها ما أصاب هشام، وتتهمني بالاستهتار بسلامتكما بعد أن سقطت الصواريخ في البحر ليس بعيدًا عنا».

«ستتركها تسافر وحدها؟»

«فلتأخذ هشام معها. وأنت تستطيعين الذهاب معها إن شئت. سألحق بكم بعد عشرة أيام أو نحوه».

«بابا، أنت تعرف جيدًا أني لن أتركك فلا داعي للمحاولة».

نزلت أمي الدرج مسرعة وهي تقول «لقد ضربوا غزة. عائلات كاملة دفنت تحت الأنقاض. وصلني الخبر للتو. تأكد بنفسك. أظنك الآن ستقتنع أن علينا السفر بعيدًا بأسرع وقت ممكن».

نظرتُ إلى والدي أنتظر رده.

«ذلك متوقع ولن ينتهي الأمر عند هذا الحد. سترد غزة بكل ما أوتيت من إمكانات متواضعة نصرة للقدس. أما بخصوص

السفر فما حصل أدعى بأن نبقى. أخبرتك من قبل وسأعيد. هذا وطننا. لن نهرب ولن نرحل إلى أي مكان. اذهبي انت إن شئت. لن أمنعك».

«بابا، سأبقى أنا أيضًا ولن أسافر» أعلن هشام متحديًا.

«عائلة مجانين. سأرحل بمفردي إذًا» وصعدت إلى غرفتها غاضبة.

16

الأيام التالية كانت حبلى بالأحداث. أحداث لم تكن سارة على الإطلاق. استمر القصف الهمجي على غزة أيامًا كثر سقط فيها مئات القتلى والجرحى المدنيون من مختلف الأعمار. في المقابل سقطت بضع صواريخ فلسطينية محلية الصنع في أرجاء مختلفة من المدن المحتلة بعد أن فشلت القبة الحديدية في تحييدها بشكل كامل.

نفذت أمي تهديدها وسافرت إلى تورونتو بمفردها عندما أصر هشام على البقاء معنا أنا ووالدي. كان يفترض بنا أن نلحق بها جميعًا أول هذا الأسبوع، فالإجازة المدرسية انقضت وعاد التلاميذ إلى مدارسهم. لم يحدث ذلك للأسف وفاتنا موعد الطائرة.

في الليلة السابقة لموعد السفر إلى تورونتو تركنا والدي متوجهًا إلى مصر لينضم إلى الطواقم الطبية التي أُرسلت لعلاج الجرحى في غزة. كان يفترض بي أنا وهشام أن نستقل سيارة أجرة في الصباح الباكر لتأخذنا إلى المطار ونصعد الطائرة التي ستعيدنا إلى كندا. هكذا اتفقنا مع أبي، على أن يلحق بنا بعد بضعة أيام ريثما ينتهي من عمله التطوعي في غزة.

في يوم السفر وقُبيل شروق الشمس قُمت فزعة من النوم عندما سمعتُ جلبة كبيرة متبوعة بطرق حثيث على باب السرايا الحديدي الخارجي. نهضت من سريري وخرجت من غرفتي لأجد هشام مشعث الرأس وقد خرج من غرفته على عجل هو الآخر.

«لانا، ما الذي يجري في الخارج؟ من عساه يزورنا في هذا الوقت؟ أتراه أبي عاد من السفر بعد أن فشل في دخول غزة؟» سألني هشام وهو نصف نائم.

«لا أدري. لا أدري» قلتُ وأنا أنزل الدرجات مسرعة وقلبي يحدثني بأن أمرًا جللًا قد حدث أو على وشك أن يحدث.

خرجت إلى الحديقة وحثثت الخطى نحو البوابة وقد ازداد الطرق شدة وقد صاحبه نباح كلب متحفز.

فتحتُ البوابة الحديدية فاندفع رجال مسلحون، خمنتُ من زيهم أنهم رجال شرطة. أحدهم كان يسيطر بصعوبة على كلب بوليسي لم يتوقف عن النباح. في إثر رجال الشرطة دخلت امرأة بدت خائفة وغاضبة في نفس الوقت. تعرفتُ عليها على الفور. كانت أم شلومو الذي لم أره منذ فترة طويلة منذ أن ذهبنا في صحبته لنبحث عن هشام في القدس.

«أين والداكما؟» سأل بالعربية بلكنة مميزة من استنتجتُ أنه ضابط وهو ينظر إليّ وإلى هشام الذي لحق بي.

«مسافران، سنسافر نحن أيضًا اليوم إلى كندا. ما الأمر؟ كيف نستطيع أن نساعدكم؟» حاولتُ أن أبدو رابطة الجأش.

«هل تعرفان شلومو ابن هذه السيدة؟» وأشار إلى أم شلومو.

أومأت برأسي «نعم، أعرفه، ولكني لم أره من قرابة الأسبوعين».

«تدعي أمه أنه لم يسبق له أن زار أحدًا غيركم في الحي، وقد انقطعت أخباره منذ بضعة أيام ولم تهتدي له على أثر» سكت لحظات قبل أن يردف «تقولين أنك لم تره أيضًا في الأيام السابقة؟»

هززت رأسي «لا، أبدًا» ونظرت في عيني الأم مواسية.

«أنت تدركين أن إخفاءه لديكم سيتسبب لكم في مشكلة قانونية في ضوء حالته الصحية المضطربة» دقق النظر في عيني وكأنه يسبر غورهما بحثًا عن أي أثر لتردد أو كذب محتمل.

«لماذا نخفيه لدينا؟ هل قام بأمر ما يستوجب أن يختفي لأجله عن العيون؟» سألتُ بمكر دون أن أشيح بناظري.

«لا تمانعين إذًا إن قمنا بتفتيش سريع للمنزل. فالكلب كما ترين يبدو أن لديه رأيًا مخالفًا» ابتسم وهو ينظر نحو الكلب الذي لم يتوقف عن النباح وهو يحاول التملص من العسكري الذي يمسك بالحبل المربوط في طوق حول عنقه.

«تفضل. ليس لدينا ما نخفيه» قلت في ثقة.

أومأ الضابط للعسكري فأطلق سراح الكلب الذي انطلق بأقصى سرعة.

أخذ الكلب يحوم حول شجرة البرتقال وهو لا يتوقف عن النباح. فتح العسكري باب المنزل وأشار للكلب بالدخول لكنه

لم يستجب واستمر في نباحه المحموم باتجاه الشجرة. أمسك العسكري بالحبل وحاول جر الكلب ليدخل إلى السرايا ليبحث في الداخل، ولكن دون جدوى. بدلًا من ذلك أخذ الكلب يحفر بقائمتيه الأماميتين أسفل الشجرة وهو يزمجر بحدة.

تبدلت ملامح الضابط وأخذ يبرطم ويرطن بالعبرية فغادر بعض رجاله وعادوا وفي أيديهم مجارف وأخذوا يحفرون حيث أشار الكلب.

اقتربتُ أنظر وكذلك فعل هشام وأم شلومو فأبعدنا رجال الشرطة بحزم.

شحب وجهي وارتجفت يداي وكدت أفقد الوعي عندما لمحت من بعيد يدًا بشرية انبثقت من التراب والكلب مطبق بأسنانه على كمّ معطف أزرق اللون. معطف تعرفت عليه على الفور. كان نفس المعطف الذي ارتداه عندما رأيته آخر مرة.

17

شلومو

ليس سهلًا أن أتحدث عن نفسي أو أروي حكايتي. ربما عزائي الوحيد أن أحدًا غيرك لن يبالي بسماع قصتي أو التعرف على تفاصيل حياتي. لستُ شخصًا مهمًا ولم أقم بأي أعمال جليلة تستحق التوثيق. حياتي قصيرة مملة وخالية من الأحداث المشوقة أو المغامرات الماتعة.

حسنًا ربما تتساءلين: لماذا قررتُ أن أكتب وأن أروي قصة لن يسمعها أحد سواك؟ سؤالك مشروع وسأجيبك بكل صدق وأمانة.

أحب أن أكتب وبشغف لأنها وسيلتي الوحيدة في التواصل مع العالم حولي. عقلي يزدحم بخواطر وأفكار حبيسة لا أملك الجرأة على إطلاقها أو البوح بها. ليس لأنها تحمل معانٍ عظيمة أو تفاصيل خطيرة، بل لأني وبكل بساطة لا أجيد التواصل مع هذه الكائنات التي تبدو ظاهريًا وكأنها تشبهني.

لا تتعجلي فتتهميني بالنرجسية. لست كذلك على الإطلاق. أنا فقط لم أعتد الاختلاط بالناس أو حتى الاقتراب منهم.

لا أحتمل ضجيجهم ولا أفهم تعابير وجوههم ولا حركات أجسادهم. لا أطيق صحبتهم وأشعر بضيق شديد عندما أكون محاطًا بهم، أتصبب عرقًا وأجد صعوبة في التنفس ولا عجب، فروائحهم تزكم أنفي وتفسد الهواء من حولي.

كثيرًا ما يخطر ببالي أني من فصيلة أخرى غير بشرية. لا أدري إن كان ذلك حقيقيًا أو وهمًا أقنع به نفسي، ولكني أشعر بصدق بأني لا أنتمي إليهم، وأني عُددت واحدًا منهم بالخطأ. ربما نظراتهم وهمساتهم هي من جعلتني أصدق ذلك، إذ يكفي أن أمشي بينهم حتى تلتفت رؤوسهم نحوي تلقائيًا وكأني كائن غريب ظهر فجأة من حيث لا يدرون، ثم أجد عيونهم وسباباتهم تشير نحوي في استغراب واستهجان قبل أن تبدأ التمتمة والجمجمة. حسنًا، هل تظنين أن ابتعادي عن طريقهم يحل المشكلة؟

للأسف تخمينك خاطئ. يبدو لي ولسبب غير معروف أن انزوائي عنهم وتكومي حول نفسي في زاوية بعيدة، يضاعف انزعاجهم مني وارتيابهم في أمري، هذا ناهيك عن صيحات الاستهجان وصرخات الخوف والاندهاش. ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد. خوف، وارتياب، وهمز ولمز. اعتدت على كل ذلك. ما لم أعتد عليه هو تلك الفئة المتطفلة مدعية الصلاح والتي تصر على اقتحام خلوتي مع نفسي لتسألني إن كنت بخير أو أحتاج إلى مساعدة. هل اشتكيتُ أو طلبت العون فوفرت لكم المبرر لتسوّل لكم أنفسكم أن تتقدموا فتعرضوا

علـيّ المسـاعدة وكأنكـم تتباهـون بذلـك أمـام الآخرين؟ لا أدري لماذا لا يدعوني وشـأني ويتقبلون أنني ببسـاطة شخص مختلف.

أخالـك تدركيـن جيدًا أننـي ليس لدي أصدقاء غيرك، وهذا حسـن. ولكنـك ربمـا تتسـاءلين عـن سـبب اختيـاري لـك دون غيرك.

حسـنًا، قبل كل شـيء يعجبني أنك مثلي تكرهين الثرثرة وتجيدين الاستماع. صوتك همس ورائحتك زكية فواحة. أنت أيضًا لا تنظرين إليّ شـزرًا ولم تحكمي على شـكلي ولم تبال بهيأتي. لم تنابذيني بالألقاب أو تقللي من شأني. يكفيني أنك لم يسـبق أن اعتذرت عن اسـتقبالي أو اشـتكيت من صحبتي. أتمنـى فقـط ألا يصيبـك الضجر وأنـا أقص عليك حكايتي غير الماتعة.

اسمحي لي يا شجرة البرتقال العزيزة أن أبدأ قصتي من وقت مبكر قليلًا. من قبل أن أولد بقليل. أجد أني بحاجة للحديث عن والديّ الذيْن ساهما في جرّي إلى هذا العالم رغمًا عني. أعدك أني لن أطيل.

والـدي موشـيه ينحـدر مـن عائلـة وايزمـان النيويوركيـة العريقـة. هاجـر أبوه ديفيد إلـى الأرض الموعودة في منتصف الأربعينات من القرن العشرين وأسس في تل أبيب إمبراطورية للتبـغ وصناعـة السـجائر ونجـح فـي تصديرها إلـى الولايات المتحـدة. عمـل منذ اليـوم الأول لوصوله علـى توثيق علاقته

بالسياسيين الذين كانوا في ذلك الوقت أعضاءً نشطين في عصابات الهاغاناه، واستغل نفوذ عائلته في نيويورك في حشد الدعم وجمع الأموال لتقوية حلفائه الجدد، خاصة بعد نجاحهم في إعلان قيام دولتهم.

خطط ديفيد منذ اليوم الأول لولادة ابنه البكر موشيه لأن يعده لاستلام مملكته الصناعية، وقبل ذلك والأهم منه هيأه ليكون سياسيًا محنكًا قادرًا في يوم من الأيام على استلام زمام الأمور في الدولة الناشئة. لا أدري تمامًا إن كان اهتمام جدي بالسياسة كان نابعًا من إيمانه بقضية شعبه أم حرصًا منه على أن يكون له ولابنه من بعده قول فصل في صياغة قوانين تضمن حماية مصالحه التجارية.

أبشرك يا شجرتي المثمرة أن خطة جدي أوشكت على الانهيار تمامًا عندما تعرف والدي إلى عاملة بسيطة اسمها أبيجيل في مصنع السجائر ووقع في حبها على الفور. لم تكن فقط فتاة فقيرة غير متعلمة، كانت أيضًا تنحدر من عائلة هاجرت قبل مئات السنين من إسبانيا أيام محاكم التفتيش واستقرت في المغرب. أبي وجدي وعائلته كانوا جميعًا أشكنازًا بينما كانت أمي وعائلتها عزيراف من السفارديم. ربما لا تعلمين يا صديقتي المخلصة أنه وكما أن الماء والزيت لا يختلطان أبدًا مع أن كليهما سائلين فإن الحال مشابه مع الأشكناز الغربيين والسفارديم الشرقيين. كلهم يتبعون ملة واحدة ويفترض أن قضيتهم واحدة، ولكنهم في الواقع تحسبيهم جميعًا وقلوبهم شتى. أسمعك تعترضين على

استشـهادي بهـذا التعبير الذي اسـتعرته مـن جيراننا، ولكن تلك مسألة أخرى ذكريني أن أعود لها لاحقًا.

ضـرب والـدي بتهديدات جـدي بإقصائه عن إدارة المصنع والتبـرؤ منـه وطرده من القصر عرض الحائط وأقدم على الزواج بأمي التي وافقت على الفور. هل أحبته هي الأخرى وتعلقت به في ذلك الوقت لشخصه فقط أم لرغبة في أن ينشلها من الفقر؟ ذلك أمر لم أنجح في التوثق منه.

عاش والدي مع أمي في بداية زواجهما في شـقة متواضعة فـي حيفـا بعيـدًا عن سـلطة جـدي ونفوذه. عمل أبـي في مكتب محامـاة وكان قـد تخـرج قبلهـا بعامين من كليـة الحقوق، ولكنه تفرغ لإدارة مصنع جدي قبل أن يطرده في اليوم الذي أعلن فيه الزواج من العاملة الفقيرة.

لـم تمـض شـهور حتـى حملت أبيجيـل وانتفـخ بطنها ولم يكتمل عام زواجها الأول بوالدي موشيه حتى وضعت مولودهما الأول والأخير، واتفقا على منحه اسم «شلومو».

وصل الخبر إلى جدي بولادة حفيده الأول. توقع المحيطون به أن يكون ذلك سببًا في أن يلين فيغفر لولده البكر تمرده على إرادتـه والـزواج بـدون موافقته، وهذا ما حدث، أو بالأحرى هذا مـا بـدا أنـه قد حدث، إذ بعث جدي من يخبر والدي أنه مسـتعد لفتح صفحة جديدة معه وأنه يرحب بعودته إلى القصر مع زوجته ومولودهما.

تـردد والـدي في بدايـة الأمر في قبول عرض جدي بالعودة

إلـى كنـف العائلـة وإدارة المصنـع مـن جديد، لكـن إلحاح أمي الشـديد عليـه بالموافقـة شـجعه على اتخاذ القـرار بحزم الأمتعة وشـد الرحـال إلـى قصر أبيه في تـل أبيب. لم تكن أمي تعلم في ذلـك الوقـت أنها أقدمت على خطوة سـتكلفها كثيرًا، وأنها دون أن تدري، ارتكبت أكبر خطأٍ في حياتها.

18

تفاجأت أمي بحسن الاستقبال الذي حظيت به عندما دخلت القصر مع زوجها ومولودهما. لم تتوقع أن تأخذها حماتها بالأحضان ولا تصورت أن ترى حماها الذي تخيلته ماردًا أحمر الوجه مقطب الجبين يبش في وجهها ويسارع إلى حمل حفيده بين يديه وهو يلاعبه ويلاغيه بمفردات الأطفال التي لا معنى لها.

لم تستطع أن تخفي انبهارها بمعالم الثراء الفاحش والأبهة. لم يخطر ببالها أن يُخصص لها ولزوجها جناح كامل في القصر مع الخدم والحشم ومربية للطفل. لم تستوعب كيف تحولت في زمن قصير من عاملة فقيرة إلى زوجة محامي منبوذ ثم إلى سيدة في قصر مهيب. ظنت واهمةً أن الدنيا ابتسمت لها أخيرًا وأنها ودعت حياة البؤس والشقاء إلى الأبد.

لم يمض وقت طويل حتى أدركت أن الاهتمام كله مُنصب على الحفيد الأول الذي يحمل اسم العائلة ويفترض أن يرث مجدها في المستقبل.

لم تكن أمي لتعترض على أن يحظى ولدها بالاهتمام كله فهذا أمر يُفترض أن يبعث في نفسها السرور والحبور، لولا أن ذلك كان على حساب الوقت الذي يُسمح لها بتمضيته معي

والـذي كان يتناقـص يومًـا بعـد آخـر، لدرجـة أنهـا تفاجأت في يـوم مـن الأيام عندما أخبرتهـا مربيتي أن حماها وحماتها وظفوا مرضعة خاصة بحجة أن حليب صدرها شحيح لا يشبعني. طبعًا أنا لا يسعني أن أؤكد ذلك أو أنفيه، وإن كانت أمي تصر على أنه ادعاء كاذب. اعترضت أمي يومها بشـدة، ولكنها لم تجرؤ على مواجهة حماها أو حماتها، واكتفت بالشـكوى غير المجدية إلى زوجهـا الـذي كان منهمـكًا تمامًا فـي تلك الأيام في إدارة أعمال والده التي تضخمت كثيرًا منذ أن انفصل عنه، وبدا جليًا أن حجم تلك الأعمال التي باتت منوطة به كان الغرض الرئيسي منها إبعاده قدر الإمكان عن زوجته وما يحاك لها في الخفاء.

لم يفطن والدي إلى أساليب التهميش التي كانت تتبع وفق خطة محكمة لإقصاء والدتي عنه وعني. فجأةً وبإيعاز من جدي أصبـح والدي مطالبًا بالسـفر المتكـرر إلى الولايات المتحدة ثم إلى أوروبا. كان يقضي الأسبوع والأسبوعين مسافرًا ولا يوشك أن يعود فيرتاح ليلة أو اثنتين حتى يسافر من جديد. بمرور الوقت وبعيـدًا عـن رعايـة أبـي واهتمامـه تحولت أمي إلـى قطعة أثاث مهملة، وزاد الأمر سـوءً عندما أصبح لي غرفة نوم خاصة بعيدة عن جناح أمي. لا أدري حقًا كيف استطاعت أن تصبر وتتحمل بُعدهـا عـن أبـي وعني خلال تلك الفتـرة العصيبة رغم أنها معي في نفس المنزل.

ليت ذلك كان كل ما يحمله جدي في جعبته من حيل لإيذاء أمي وإقصائها عن حياة أبي. ما روته لي أمي مؤخرًا عن السبب

الذي أدى إلى طلاقها من أبي وطردها من القصر كان أعظم بكثير مما كان ليخطر ببالي. استغل جدي بُعد أبي وسفره المتواصل في التخطيط للضربة القاضية التي ستطيح بأمي فيتخلص منها إلى الأبد. سأنقل لكِ ما حدث بلسان أمي كما نقلته لي بالحرف من غير زيادة.

«أصبحت حياتي في القصر جحيمًا. كنت في سجن انفرادي كبير. لا أحدث أحدًا ولا يحدثني أحد. لا يُسمح لي بالخروج من القصر لزيارة معارفي أو صديقاتي فهن لسن بالمستوى المطلوب ليكنّ على علاقة بكنّة عائلة وايزمان. لم أقدر حتى على الاختلاء بطفلي رغم صغر سنه خوفًا من أن أفسد تربيته الأرستقراطية. بتّ أحدث نفسي كالمجنونة بسبب العزلة، وزوجي منغمس في العمل حتى أذنيه. لا يصدق ما أمرّ به ويظنني أبالغ لأنني حسب زعمه لم أعتد فقط حياة القصور.

لم يكن يدخل جناحي سوى عاملة أثيوبية من الفلاشا. كانت قليلة الكلام وتتلفت حولها قبل أن تجيب على أي سؤال أطرحه عليها وكأن لديها تعليمات مشددة بعدم الحديث معي. كانت تنهي عملها بسرعة وتغادر وكأن لديها جدول أعمال مزدحم لا يسمح بتجاذب أطراف الحديث مع الكنة المنبوذة.

استمر الحال على هذا الوضع شهورًا طويلة لا أكاد أحصيها وتحولت الشهور إلى سنوات. ابني يكبر بعيدًا عن حضني وزوجي استغرقه العمل بشكل كامل فلا أكاد أراه في الشهر مرة.

ثم حدث ما حدث.

في ليلة من الليالي وقبل أن أخلد إلى النوم سمعت طرقًا على باب غرفتي. استبشرتُ خيرًا وظننت أن الطارق لابد وأن يكون ولدي شلومو اشتاق لرؤيتي فجاء خلسة لينام بين أحضاني.

فتحتُ الباب على مصراعيه وكلي لهفة. دهشتُ عندما وجدتُ البستاني المسؤول عن الاعتناء بحديقة القصر يقف كالأبله بالباب.

«ماذا تريد؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟» سألتُه بعصبية وكنت لا أعرف حتى اسمه.

بقي محدقًا في وجهي وكأنه لم يسمع سؤالي أو لم يملك إجابة قبل أن ينطق بكلام لم أتوقعه «أنا عشت في الملاح. من فاس في المغرب. أنت من هناك أيضًا. أليس كذلك؟» قالها بلكنة مغربية.

استشطتُ غضبًا من جرأته «ما لك وما لي من أين أكون؟ ما شأنك بي؟ وكيف تتجرأ على الصعود إلى غرفتي في هذا الوقت المتأخر فقط لتخبرني أنك من يهود المغرب؟ ما يهمني من أي مزبلة جئت؟» قلتُ بعصبية، ولكن بصوت منخفض إذ لم أكن أود أن أثير جلبة.

تلعثم وقد تفاجأ من حدتي «أرجو المعذرة، ولكني خمنتُ أنك ربما تشتاقين للحديث مع أناس من بلدك. لا داعي للقلق من سكان القصر فقد صعدت إلى غرفتك بعد أن تأكدتُ من أن الجميع مشغولون في حفلة ختان شلومو ولدك، وقد استغربتُ عندما لم أجدك في الحفلة قبل أن أعرف من الخادمات أن سيدة

القصر لم ترغب في أن تشاركي بالحفل، وهكذا فكرتُ في أن أعرج على غرفتك فأواسيك وأهون عليك، فأنا مثلك سفارديم وأعاني من تجبر الأشكناز وسوء معاملتهم».

نزل كلامه عليّ مثل الصاعقة. يقيمون حفلة ختان لشلومو دون أن أعلم؟ ألهذا الحد وصلت بهم الدناءة؟ شعرتُ بغضب عارم ولم أكن في كامل وعيي عندما أغلقتُ باب الغرفة.

جلستُ على أريكة قريبة وأمسكت رأسي بين يديّ وأجهشت بالبكاء. توقف عقلي عن التفكير ولم أدر ماذا أفعل وإلى متى عليّ أن أصبر وأتحمل هذا الموت البطيء. كم سأصمد قبل أن أفقد عقلي تمامًا؟ ماذا فعلتُ ليعاملوني بهذه الطريقة المجحفة؟ هل أذنبتُ عندما أحببتُ ولدهم ولم أراع أنه من طبقة محرمة على أمثالي؟ هل شطحتُ بأحلامي عندما توهمتُ أني سأنعم برغد العيش؟ هل كان كثيرًا عليّ أن يقبلوني زوجة لولدهم ويتغاضوا عن أصولي؟ ألسنا جميعًا يهودًا ننحدر من أصول قديمة واحدة؟ ألم نهاجر إلى هذا البلد وقد أقنعونا أنه وطننا القومي الذي يفتح ذراعيه لاستقبالنا جميعًا؟ لماذا هذه التفرقة إذًا؟ لماذا أجدهم يعاملونني هنا كحشرة متطفلة انتهى دورها بولادة حفيدهم وآن الأوان للتخلص منها؟ لو كنت أعلم أن هذا مصيري لما شجعت موشيه على العودة إلى القصر. كنت بخير حال عندما كنت ربة منزلنا الصغير. ليتني لم أطمع في الثروة والحسب والنسب. كم كنت ساذجة عندما صدقتُ أن عائلته ستقبل بي وأني سأصبح سيدة من سيدات القصر.

جفلتُ عندما سمعت صوت البستاني يواسيني ولم أكن أعلم أنه دخل إلى غرفتي عندما أوصدتُ الباب. صرختُ بوجهه مستنكرة اقتحامه خلوتي. أراد المجنون أن يحيطني بذراعيه وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب. دفعته بكل ما أوتيتُ من قوة وعندها سمعت جلبة في الخارج وفوجئت عندما اقتحم زوجي ووالديه الغرفة والشرر يتطاير من عيونهم.

اختفى البستاني بلمح البصر ولم أفق من الصدمة إلا وموشيه يجرني من شعري خارج الغرفة ثم أسفل الدرج وأنا بين يديه كالنعجة المغلوبة على أمرها وقد انعقد لساني تمامًا فلم أنطق بكلمة واحدة أدافع بها عن نفسي. سقطت على الأرض فأدميت راحتيَ عندما ركلني وهو يدفعني خارج القصر. أخذ يبصق في وجهي ويكيل لي الشتائم وينعتني بأشنع الأوصاف قبل أن يغلق الباب وأنا في ذهول كامل وكأن الأحداث تجري مع شخص آخر غيري».

19

بين ليلة وضحاها فقدت أمي كل شيء، ولم تسترد وعيها إلا لتجد نفسها تهيم على وجهها في الطرقات لا تدري أين ستأخذها قدماها. لم يكن لديها عائلة تلجأ إليها، فوالداها توفيا في المغرب قبل أن تهاجر إلى الأرض الموعودة. لم يكن لديها أقارب أو أصدقاء مقربين، وحتى زملائها في العمل عندما كانت أجيرة في المصنع قطعت علاقتها بهم بمجرد أن عرض عليها موشيه الزواج. لم يكن لديها حتى ما تستر به نفسها وقد طُردت بملابس النوم. لم تحمل ما يثبت هويتها ولا نقودًا تستعين بها ولو لشراء ما يسد رمقها.

لا أدري كيف انقضت ليلتها تلك. روايتها لي بدت مضطربة. مرة قالت أنها نامت على كرسي في حديقة عامة حتى الصباح. في مناسبة أخرى أخبرتني أنها لجأت إلى بيت مهجور من بيوت العرب بقيت فيه حتى انبلاج الفجر. وفي رواية ثالثة أسرت لي أنها استمرت تمشي طوال الليل على غير هدًى، وأنها تعرضت لمضايقات من سكارى آخر الليل ممن ظنوا فيها سوءً بسبب ردائها غير المحتشم.

أيًا كان ما حدث حقيقةً، فالمؤكد أنها قضت واحدة من

أسوء ليالي عمرها. في صباح اليوم التالي نجحت في الذهاب إلى المصنع والتسلل من الباب الخلفي المخصص للعمال، وارتدت الزي الموحد، وكانت تعرف أين يحتفظون بملابس احتياطية للموظفين الجدد. دعت في سرها أن يأتي موشيه للعمل في ذلك اليوم كي تتمكن من الحديث إليه في مكتبه بعيدًا عن عائلته ووالده خصوصًا، وقد باتت على يقين أن حماها هو من دبر لها تلك المكيدة ليفرق بينها وبين زوجها بعد أن خطط وقدّر لانتزاع ولدها منها أولًا.

تنفست الصعداء عندما لمحت من مكمنها المستتر سيارة زوجها تدخل بوابة المصنع. انتظرت بعض الوقت ثم تسللت إلى الطابق المخصص للإدارة. اقتحمت غرفة المكتب عنوة ولم تبال باعتراضات السكرتيرة التي لم تتعرف عليها من حسن الحظ. عبس والدي عندما رآها فجأة تقف أمامه في المكتب والسكرتيرة في إثرها تصيح بها. كظم غيظه وأمر مساعدته بالخروج وإغلاق الباب وعدم السماح لأحد بإزعاجهما، وذلك دون أن يفصح لها عن هوية الزائرة التي تبدو كعاملة بسيطة تجرأت على اقتحام مكتب المدير.

دار بينهما حوار حفظتُه من كثرة ما كررته أمي على مسامعي، وأفترض أنه دقيق لأن روايتها لم تختلف في كل مرة تأتي على ذكره.

«كيف تقدمين على اقتحام مكتبي بعد فضيحة الأمس. من أين لك هذه الجرأة لتواجهيني بعد ما فعلته في عقر بيتي وفي

غرفة نومي؟ هل سولت لك نفسك وخدعك عقلك المريض فصور لك أنك تستطيعين خداعي بمعسول الكلام أو دموع التماسيح لأصفح عنك أو أغض الطرف عن خطيئتك؟»

«أنت مخطئ يا موشيه. مخطئ تمامًا. لم آت طلبًا للصفح كما هُيئ لك. بل جئت أسألك: كيف استطعت بهذه البساطة أن تتهمني ثم تصدر حكمك عليّ دون حتى أن تسمعني أو تسمح لي بالدفاع عن نفسي؟ لقد عشنا سويًا زمنًا كنتُ فيه لك نعمَ الزوجة وكنتَ لي نعمَ السند في هذه الحياة. كيف تغير كل ذلك في لحظة؟ ألم يخطر ببالك أني ما كنت لأستبدلك بملوك الأرض فما بالك ببستاني حقير لا يضاهيك منزلة ولا حتى شكلًا؟ ألم تكلف نفسك عناء أن تفكر لحظة بأني لو كنت حقًا خائنة كما يحاولون أن يقنعوك لاخترت مكانًا آخر غير قصر عائلتك الذي يعج بالخدم والزائرين ناهيك عن أفراد عائلتك المقيمين؟ ثم إن كنتُ فقدتُ عقلي تمامًا وقررتُ أن أقيم علاقة محرمة مع ذلك البستاني التافه ألن أختار يومًا تكون مسافرًا فيه، وما أكثر تلك الأيام؟ ألن أجد على الأقل وقتًا يخلد فيه الجميع للنوم؟ هل يعقل بالله عليك أن أفعل ما تظنني فعلته في وقت أنت موجود فيه في المنزل وسط كل تلك الجلبة؟ لو أعملتَ عقلك ولو قليلًا لتنبّهت أنها مكيدة دُبرت لي بليل وأن الهدف الوحيد منها هو التخلص مني نهائيًا وبمباركتك هذه المرة، بعد أن أقصوا عني ولدي الذي لم أعد أراه إلا نادرًا، وأقيمت له حفلة ختان دون حتى أن يكلف أحدهم نفسه عناء

أن يخبرني ناهيك عن أن يدعوني.

لقد وقع عليّ ظلم كبير، ويؤسفني حقًا أني لم أجدك هذه المرة بجانبي تدافع عني كما عهدتك. لا أدري كيف استطعت أن تمتلك كل هذه القسوة فتتحول إلى قاضٍ جائر وتنزل بي حكمك الظالم وتلقي بي إلى الطريق في تلك الهيئة وفي ذلك الوقت المتأخر من الليل وأنت تدرك تمامًا أني ليس لدي معيل غيرك.

لقد أدركتُ البارحة أن حياتي معك كانت كذبة كبيرة خُدعت بها عندما سولت لي نفسي أن أظن أن امرأة بسيطة مثلي يحق لها أن تحلم. لم آت اليوم لأطلب السماح ولا لأمنحه لك. لقد عاد إلي رشدي وأدركتُ أن أمثالي من السفارديم يجب ألا تنطلي عليهم خدعة البلد القومي، لقد جُلبنا إلى هنا كي يستقيم الأمر فنكون الخدم والرعاع والعبيد الجدد لأسيادنا الأشكناز.

سأنتظر إتمام إجراءات الطلاق وأتمنى أن تمنّ عليّ فتسمح لي بالإقامة في السكن المخصص لعاملات المصنع. لن أختلط بأي منهن ولا أطلب أن أعمل في مصنعك. سأحاول إيجاد عمل في أسرع وقت كي أعيل نفسي، ووقتها سأترك سكن العاملات ولن تراني مجددًا. لا أظن أني سأكون محظوظة بأن تسمح لولدي بالعيش معي، لكني على الأقل أرجو أن تدعني أتمتع برؤيته ولو مرة في الشهر».

أخبرتني أمي أن والدي يومها لم يرد ولا بكلمة واحدة واكتفى بأن أومأ برأسه واستدعى مساعدته وطلب منها أن تتواصل مع مدير سكن العاملات ليمنح أمي غرفة للمبيت دون

إعطـاء مزيـد مـن التفاصيل. وعندما همت أمـي بالخروج خلف السكرتيرة سمعت أبي يعد بأن يرسل لها معونة شهرية تدبر أمرها بها. خرجت أمي من المكتب دون أن تعقّب وهي تجاهد لتحبس دموعها.

20

سارة

لا أكاد أذكر آخر مرة سافرت بها بالطائرة بمفردي.

جبيني يتصبب عرقًا. ظهري متصلب. أتشبث بالمقعد بكلتا يديّ وأدعو في سري بأن ترتفع الطائرة بأمان وألا يصيبني مكروه. حوادث الطيران حقيقية ونسبة النجاة منها تقترب من الصفر. أقول في ذهني وأتذكر يوسف عندما يجادلني بأن الطيران أكثر وسائل النقل أمانًا وحوادثها نادرة. ربما كان على حق، ولكن ماذا لو كنت من أولئك القلة غير المحظوظين فتعرضت طائرتي لعطل ما أثناء الإقلاع فتوقف محركها أو انفجر؟ بماذا تنفعني إحصاءات الأمان حينها وجسدي يتحول إلى أشلاء؟

ليتك معي يا يوسف تمنحني يدك فأتشبث بها وأغرز فيها أظافري.

أعترف أني أفتقدك وأفتقد لانا وهشام، لكني كنت مضطرة لتسجيل موقف. لا أستطيع أن أتقبل أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة وكأننا سنحل قضية فلسطين إذا تركنا أشغالنا ومكثنا في ذلك المنزل المتهالك. يوسف عاطفي زيادة عن اللزوم وأحيانًا تدفعه

عاطفته لاتخاذ قرارات متهورة غير مدروسة. وما زاد الطين بلة أنه ورّث تهوره ذلك لابنينا. يؤسفني أن أكون الوحيدة التي تمثل صوت العقل في هذه العائلة. أتمنى فقط أن يتعظوا بابتعادي عنهم بضعة أيام فيعودوا إلى رشدهم ويلحقوا بي في أقرب وقت قبل أن تشتعل المنطقة ويصاب أحدهم بمكروه لا سمح الله.

أنا أعرف أنهم ينظرون إليّ على أني امرأة أنانية متسلطة باردة المشاعر متحجرة القلب، همها الوحيد مصلحتها المادية، ولا تلقي بالًا للقضايا الوطنية. كثيرون اتهموني بذلك دون أن يملكوا الشجاعة ليواجهوني باتهاماتهم أو يكلفوا أنفسهم عناء أن يسمعوا ردي أو يفهموا وجهة نظري.

ربما لا أكون عاطفية مثل يوسف وهذا لا يعيبني، لأني ببساطة أفضل أن أكون واقعية. فأي فائدة ستعود على فلسطين إن عشنا فيها وتركنا كندا؟ على الأقل في كندا نحن قادرون على إسماع صوتنا والدفاع عن قضيتنا من فوق شتى المنابر دون أن نخشى أذىً أو اضطهادًا. في كندا نستطيع أن نحشد الدعم لأهالينا في فلسطين وننشر الرواية الحقيقية للأحداث. أما في فلسطين فإما أننا سنقبع تحت نير سلطة فاسدة أو احتلال جائر بغيض.

يوسف يصر على أننا نستطيع أن نقدم الكثير إذا عملنا في فلسطين وشاركنا بخبراتنا. لا أتفق معه في هذه المسألة، ففلسطين لا ينقصها الأطباء أو مدرسو الجامعات. فلسطين بحاجة أولًا إلى حكومة تنبذ الفساد وتوحد الشعب وتقدم

مصلحة البلد على الانتماء السياسي. فلسطين بحاجة إلى دعم حقيقي في المحافل الدولية لرفع الحصار وكشف ألاعيب أولئك الذين لا يتوقفون عن النهب والسلب وانتزاع الأراضي. فلسطين بحاجة إلى استقطاب الأموال العربية للاستثمار في مشاريع تنموية تنهض بالدولة في شتى الميادين وتحقق للشعب التقدم والرخاء. لا يمكن لفلسطين أن تعود إلى أهلها دون إعداد العدة والارتقاء بالدولة، وذلك لا يكون بالخطب الرنانة والشعارات الجوفاء.

أقلعت الطائرة أخيرًا ومرت الدقائق الحرجة بسلام. أرخيت قبضتي عن مسند المقعد وكدت أتنفس الصعداء قبل أن أنتبه إلى فعلتي الشنعاء التي احمر وجهي خجلًا بسببها فاعتذرت بكل اللغات التي أعرفها للراكب المسكين عن يساري والذي لم يتذمر رغم أني متأكدة أن أظافري قد تركت علامات على ساعده توارت تحت كُمّ قميصه.

«لا داعي للاعتذار. لم أشعر بشيء. فقدت الإحساس بساعدي منذ زمن طويل، فمخالب زوجتي أطول ونحن كثيرو السفر» قال بالإنجليزية وابتسم وهو ينظر إلى سيدة على يساره تسند رأسها إلى كتفه وقد غطت في نوم عميق بمجرد صعودها إلى الطائرة.

كررتُ اعتذاري وحمدت الله في سري على أن زوجته لم تكن مستيقظة وإلا لتضاعف شعوري بالحرج.

«تسافرين إلى تورونتو في رحلة عمل؟» سألني والابتسامة لا

تزال مرسومة على وجهه المكتسي بلحية بيضاء قصيرة جعلتني أخمّن أنه في العقد الخامس.

«بل أعيش في تورنتو. قضيت عطلتي الصيفية هذا العام في فلسطين».

«في رام الله؟» سألني وقد بان الاهتمام على وجهه.

«بل في يافا» أجبتُ بثقة.

«ولكن يافا ليست في ....» همّ ليكمل جملته ثم تراجع واكتفى بأن أومأ برأسه وتوقفت المحادثة عند هذا الحد.

لا أدري لماذا ابتسمتُ، ولكني شعرتُ بأني أحرزت نصرًا صغيرًا مُرضيًا. أغمضت عينيّ واستسلمت للنوم بعد أن صلّبت ذراعيّ حول صدري خشية أن يتكرر الاعتداء على جاري.

21

عندما غادرتنا أمي كنت لا أتجاوز الثالثة من عمري. لا أذكر بالطبع كيف كانت حياتي من دونها لكني أخمن أن جدي وجدتي بذلا مجهودًا كبيرًا حتى من قبل أن أفترق عنها ليضعفا تعلقي بها.

ما من شكٍ لدي في أن أمي عانت كثيرًا في تلك السنين التي مُنعت فيها من التواصل معي. لم يكلّف والدي نفسه عناء أن يتراجع عن موقفه أو يتحقق من التهمة التي أُلصقت بزوجته زورًا وبهتانًا. كان ذلك كله نتيجة لمكر جدي الذي تعمد أن يحدث ما حدث في وجود شهود لن يتورعوا عن نشر تفاصيل الواقعة وتضخيمها حتى تصبح فضيحة مدوية تلطخ سمعة عائلته. كان مستعدًا للقبول بهذا الثمن الباهظ في سبيل التفريق بين ولده البكر وتلك السفارديم التي اقتحمت حياته. يؤسفني أن والدي انطلت عليه تلك المكيدة، ولعله أدرك في وقت لاحق أنها كانت مؤامرة، لكنه لم يفعل شيئًا حيالها بعد أن خاض الناس في عرضه وتهامسوا في حضوره ومن خلف ظهره بقصة زوجته التي خانته في غرفة نومه مع بستاني سفاردين حقير. هذه المرة لم يستطع أن يترك المركز المرموق والجاه العريض وراءه ليلحق بالمرأة التي ظلمها.

لم تمكث أمي طويلًا في سكن عاملات المصنع ولم تنفق رغم حاجتها الشديدة شيكلًا واحدًا من النقود التي أرسلها والدي كل شهر. اكتفت بأن فتحت حسابًا باسمي وأودعت فيه الشهرية التي تلقتها. حاولت في البداية أن تجد عملًا في المصانع الأخرى مستفيدة من خبرتها في العمل في مصنع والدي، ولكنها لم توفق إلى ذلك إذ كان يرفض طلبها وتطرد من العمل بمجرد أن يتعرف صاحب العمل على هويتها، وكأن جدي قد حرص على الإيعاز لأصحاب المصانع الآخرين بعدم السماح لها بالعمل. حاولت بعدها التقدم للعمل في الموانئ، ولكنها لم تحظ بفرصة مناسبة لكونها امرأة. لم تكن متعلمة لهذا لم تتمكن من العمل في المكاتب أو الشركات. في نهاية الأمر وبعد أن كادت تموت جوعًا اهتدت للعمل في جني ثمار البرتقال في البساتين المحيطة بمدينة يافا. ولكي تخفض من نفقاتها لم تكن ترجع إلى المدينة في نهاية كل يوم كما فعلت زميلاتها، بل اكترت بمبلغ زهيد بالقرب من المزرعة التي تعمل فيها غرفة في بيت عربي قديم متهالك كان فيما مضى تابعًا لقرية سلمة التي تحولت بعد أن نزح عنها أهلها العرب إلى مستوطنة وقد نجا بأعجوبة من الهدم.

لم تتوقف أمي عن مراسلة والدي والتوسل إليه ليسمح لها برؤيتي. لم يكن يرد على رسائلها وكان يكتفي بإرسال النقود إلى العنوان الجديد. لم تملك أمي في ذلك الوقت الجرأة لتلجأ إلى القضاء لتطالب بالاجتماع بولدها وكانت تخشى سطوة جدي وتدرك أنه يملك ما يكفي من النفوذ لإسكاتها إلى الأبد.

مرت بضع سنوات تحسن فيها حال أمي وأصبحت مسئولة عن العاملات في المزرعة واكتسبت خبرة كبيرة في إدارة العمل في البساتين. في ذلك الوقت كنتُ قد كبرتُ وبدأتُ أسأل عن أمي. أخبرني جدي حينها أن أمي هجرتني بعد ولادتي فورًا واختفت ولم يعرفوا لها عنوانًا.

لم يمض وقت طويل حتى أدرك أبي وعائلته أنني لم أكن صبيًا عاديًا. كنت قليل الكلام لا أجيد التواصل مع الآخرين، أميل للانطوائية والاعتزال عن الناس. لم يكن لدي أصدقاء وكنت أرفض المشاركة في الحفلات والمناسبات العامة. في المدرسة كنت أجد صعوبة بالغة في التعاطي مع التلاميذ والمدرسين وكنت أتعرض بسبب ذلك للتنمر، مما دفع والدي لإخراجي من المدرسة وتعيين مدرسين خصوصيين لتدريسي. كانت علاماتي رغم ذلك مرتفعة وتشي بأني أملك عقلًا نشطًا وإن كنت فاشلًا تمامًا في المهام التي تتطلب عملًا جماعيًا. في ذلك الوقت بدأت معاملة جدي تتغير نحوي، فما عدت الحفيد المدلل وأصبحتُ كثيرًا ما أسمع عبارات توجه إلى والدي مثل «لابد أنه تأثر بنسب أمه الوضيع» و«أرأيت؟ ها هو ولدك الوحيد يعاني تخلفًا عقليًا. ألم نحثك مرارًا أنا وأمك على الزواج مجددًا وإنجاب المزيد من الأولاد؟» و«من حسن الحظ أن أخويك رزقا بأولاد طبيعيين وإلا لكانت كارثة أن نورث هذه الإمبراطورية الصناعية الكبيرة لولدك شلومو المعتوه».

عندما تفاقمت حالتي وأصبحت لا أطيق أن يقترب مني

أحـد أو أن يكلمنـي أحـد علمـتُ أن أمي على قيد الحياة، وذلك عندما أصبحوا يتكلمون أمامي علانية وكأني غير موجود فيقولون لوالـدي «ألـق بـه إلى أمه فهي أولى به. ما حاجتنا بصبي متخلف يجلب لنا العار؟ ما أدرانا إن كان ولدك أصلًا. لابد أن أباه أحد معاتيه الحثالة السفارديم».

الغريـب فـي الأمـر أن والـدي لـم يكن يدافـع عني أو حتى يرد عليهم وكأنه قد استسـلم تمامًا لآرائهم وما عاد يفكر بشـيء آخـر سـوى مسـتقبله السياسـي بعـد أن انضم إلى حـزب العمل وذاع صيته. أيقنتُ وقتها أنه سيتخلى عني عاجلًا أم آجلًا. لهذا، عندما بلغت العاشرة من عمري استجمعتُ شجاعتي وقررتُ أن أصارحه بما يعتمل في صدري.

عندمـا تحدثـتُ إليـه ذلك اليوم وكنت قـد انتظرتُ الفرصة المناسبة لأجتمع به بمفرده، كانت المرة الأولى التي أتكلم فيها مع أحد بإسـهاب منذ سـنوات. تفاجأ عندما دخلتُ عليه غرفته وقلت له:

«أبي. أود التحدث إليك في أمر هام» خرجت الكلمات من فمي بصعوبة وكنت قد تدربت على ما أريد قوله لأيام.

«نعم. بالتأكيد. كلي آذان مصغية» قالها والدهشة تعلو وجهه.

«أريـد أن أعيـش مـع أمـي. أنا أعرف أنها حيـة. هذا أفضل للجميع. أرسلني إليها غدًا. تستطيع رؤيتي إن شئت لكنك لست مضطرًا» بذلتُ جهدًا كبيرًا لأكبت مشاعري.

هز أبي رأسـه وشـعرتُ وكأنني أنقذته في الوقت المناسـب

من الحرج الذي كان يشعر به وقد أضمر أن يتخلص مني بالفعل ويتركني لأمي. حاول أن يرد بكلام يدافع به عن نفسه وينأى عن النية التي أضمرها وأحس أني فطنت إليها. خرجت منه الكلمات مبعثرة غير مترابطة وأفشت بتوتره. لم يكن لحديثه عن حبه لي وتعلقه بي أي قيمة. المهم في الأمر أنه استجاب لطلبي وكنت في اليوم التالي على موعد للالتقاء بأمي التي لا تعرف شكلي ولا أعرف شكلها.

22

توقفت سيارة الأجرة أمام أحد المنازل القديمة في زقاق ضيق في الحي العربي في يافا. أصررتُ على الخروج بسيارة أجرة ورفضت عرض والدي في الليلة السابقة أن أذهب مع سائقه الخاص. أخبرني والدي أن أمي انتقلت مؤخرًا للسكن في هذا المنزل وأنها لابد استأجرته بالنقود التي كان لا يزال يرسلها شهريًا. كرر ملاحظته حول النقود أكثر من مرة. لم أكن واثقًا إن كنت سأجدها في المنزل، ولم يكن لدي أي خطة بديلة في حال لم أجدها أو لم تستقبلني. لم يكن لدي أي نقود سوى ما دفعت به إلى سائق الأجرة، ورفضتُ ما عرضه علي والدي عندما دس يده في جيبه وأخرج حفنة من العملات المعدنية أراد أن يضعها في كفي وكأنه يتصدق على مشرد متسول. هززت رأسي وكابدت لأمنع عيني من فضح مشاعري التي لم يكن يظنها موجودة وقد اقتنع فيما يبدو بكلام جدي بأني معتوه متخلف عقليًا. خرجتُ من القصر بحقيبة واحدة جمعت فيها بعضًا من ملابسي. لم يودعني أحد سوى مدبرة المنزل ومربيتي وبعض الخدم. خرج والدي إلى العمل باكرًا قبل أن أستيقظ وكأنه يتعمد ألا يلاقيني. لمحتُ جدي وجدتي ينظران من خلف ستارة غرفة النوم. رغم

المهانة إلا أني شعرت براحة كبيرة بمجرد أن خطوتُ خارج عتبة القصر. تنفستُ الصعداء كمن خرج إلى الحرية بعد حبس طويل.

طرقتُ الباب باستحياء وانتظرت. لم يفتح أحد. أعدت الكرة بقوة هذه المرة ثم ضغطت على جرس الباب. مرت ثوانٍ ثقيلة خشيت فيها أن تكون أمي خارج المنزل في مكان ما أو أن العنوان خاطئ. مسحتُ حبات العرق عن جبيني وتلفتُّ حولي أفكر إلى أين أذهب.

تحرك المفتاح في القفل وانفرج الباب عن شق نظرت منه سيدة متوسطة العمر نحوي وسألت «من أنت وماذا تريد؟»

بقيت متسمرًا في مكاني أنظر إليها وأتساءل إن كانت أمي حقًا. تأخرت الكلمات في الخروج فسألتني مجددًا «ما بك يا فتى؟ هل أنت بخير؟ هل تبحث عن شخص ما؟»

أومأت برأسي وأجبتُ بعفوية «أبحث عن أمي».

فُتح الباب على مصراعيه وخطت السيدة خارج المنزل وقد بان على وجهها الاهتمام «ما اسم أمك؟ لعلي أعرفها أو أدلك على من يعرفها».

«أبيجيل. اسمها أبيجيل» لم أكن أعرف حتى كنيتها.

شحب لونها ولاحظتُ ارتجافًا في يديها وفي نبرة صوتها «وأنت ما اسمك يا بني؟»

«شلومو يا أمي. أنا ولدك شلومو» قلتها دون تفكير.

في لمح البصر أخذتني في حضنها ولم أشعر إلا وجسدي يرتفع عن الأرض كدمية في يد طفلة. كادت تسحق ضلوعي

وهـي تعانقني وتتمتـم «حمدًا للرب الذي أعـادك لي»، وانهالت عليّ بالقُبل.

خلصـتُ نفسـي بصعوبـة بعد أن كـدت أختنق وأنا الذي لم يعتد العناق ولا الاقتراب من البشر إلى هذا الحد.

حملَـت حقيبتـي وأدخلتني وأغلقت الباب بسـرعة وكأنها تخشـى أن يعـود الـذي تركني أمـام منزلها فيأخذنـي. لم يتوقف سـيل القبل عن الانهمار على وجهي إلا بعد أن أخذت تمطرني بوابـل مـن الأسـئلة. كيـف حالي وأين أدرس وكيـف أتيتها ومن دلني على بيتها وماذا آكل وماذا أشـرب وماذا أحب وماذا أكره. كل هـذا وأنـا أجـد صعوبة جمة في تجميـع الكلمات لأرد على أسئلتها التي لا تنتهي.

«أمي. لقد أتيت لأعيش معك. تركني والدي لأني كما ترين» توقفتُ أبحث عن الكلمة المناسبة «مختلف لكني لست متخلفًا كمـا ينعتنـي جدي. أنا أتكلـم قليلًا ولا أجيد التعامل مع الناس» قلتُ بصعوبة، ولكن دون أن أتلعثم وتوقفتُ مجددًا ونظرتُ في عينيها «هل تقبلين بي؟» وانهمرت دموعي التي حبستها عن أبي.

أخذتنـي بيـن ضلوعها وهـي تقبّلني وتجهش وتقول وتكرر «أقبل. أقبل».

23

أحببت العيش مع أمي. لم تكن متطلبة وتفهمت حالتي دون أن تشعرني بأني غريب الأطوار. في البداية لاقت صعوبة في الحد من القبل والأحضان، لكنها بعد فترة نجحت في أن تتأقلم تمامًا وتعتاد على طريقتي المختلفة في التواصل مع الآخرين. أكثر ما أعجبني في الأمر أنها كانت تعاملني كشخص بالغ، بل وتستشيرني في أمور حياتها وتأخذ برأيي في كثير من الأحيان. قصت علي حكايتها مع أبي منذ البداية وإلى أن طُردت مثلي من القصر. حزنتُ لما لاقته من ظلم وسوء معاملة، ولكني شعرت بالفخر عندما علمت بالصعاب التي واجهتها والمحن التي تجاوزتها حتى أصبحت مسؤولة بشكل كامل عن محصول البرتقال في البساتين المحيطة بيافا وتل أبيب. كانت تشرف على العاملات في جني الثمار ثم على الحمالين وأصحاب الشاحنات وتقوم بنفسها في التعامل مع تجار الجملة المحليين، بل ومع مندوبي الشركات الموكل لهم تصدير البرتقال إلى الخارج. لم تكتف بذلك، بل التحقت بدروس محو الأمية وتعلمت القراءة والكتابة.

بيتي الجديد يختلف كثيرًا عن القصر الذي نشأت فيه،

فمنـزل أمـي صغير ومتواضع وبناؤه قديم لكنه متماسـك. الحي الـذي تسـكن فيه أمي يعبق بشـذى الماضي. أزقتـه ضيقة وأبنيته أثرية تجاوز عمرها القرن. عندما كنت أتنزه حول المنزل سـواء بمفردي أو بصحبة أمي كنت أستغرب اللغة الغريبة التي يتحدث بهـا الصبيـان والمارة وأصحاب المتاجر. عندما سـألتُ أمي عن الأمر أخبرتني أن هؤلاء عربًا وهم مختلفون عنا.

«أنـا مختلـف أيضًـا» فكرتُ يومها لكني لم أتلقّ تفسـيرًا لما قصدته أمي بكونهم مختلفين عنا.

في مناسبة أخرى حاولتُ أن أستزيد فأسألها لماذا لا يضع الصبيان العرب طاقية مثلي على رؤوسهم.

أجابتني باقتضاب «لأنهم ليسوا يهودًا مثلنا».

شـعرت بالفضـول حينهـا «مـاذا هـم إذًا إن لـم يكونـوا يهودًا؟»

تأففت وأجابت «أغلبهم مسـلمون. نحن نبينا موسـى وهم نبيهـم محمـد. دعنـا منهم وإياك أن تتحـدث معهم أو تخالطهم» تفاجـأتُ يومهـا من عصبيتها غيـر المبررة وتكوّن لدي انطباع أن العرب أشـرار، ومع الوقت توقفت عن طرح المزيد من الأسـئلة عندما لاحظت أن أمي تضيق بها وتتعمد أن تغير الموضوع كلما جئـت علـى ذكـر جيراننا العرب. لكنني لـم ألتزم بتوجيهاتها فلم أدعني منهم وكنت مصرًا على التعرف أكثر على هؤلاء الأشرار المختلفين.

في يوم من الأيام وبينما كنت أشتري غرضًا للبيت من متجر

عربي قريب سألني بلغتي ابن صاحب المتجر وكان صبيًا في نفس طولي «من أي البلاد أتيتم؟» لم أفهم سؤاله وظننته يعني المنطقة التي كنت أسكن فيها قبل أن آتي للعيش مع أمي فأجبته «كنت أسكن في شارع ديزنغوف في تل أبيب» حاولت أن يبدو كلامي طبيعيًا قدر الإمكان كي لا أتعرض للسخرية. خرجت الكلمات متقطعة وغير انسيابية لكن الصبي لم يستغل الأمر ضدي.

هز برأسه «لا. لا. أقصد أجدادك وعائلتك هاجروا إلى فلسطين من أي البلاد؟»

أنقذني والده عندما أخذه بعيدًا وأعطاني الغرض الذي جئت من أجله. «ما هي فلسطين هذه التي ذكرها ولماذا ستهاجر عائلتي إليها» تساءلتُ في طريق عودتي إلى المنزل وقد ساءني أن يعرف ذلك الصبي أمورًا أجهلها. ألقيت باللائمة على التعليم المنزلي وأسرعت لأسأل أمي وإن ترددتُ بالإفصاح عن مصدر السؤال فأعدت صياغته.

«أمي، أنت أين ولدتي؟» ابتسمتُ ابتسامة بريئة.

نظرت نحوي مستغربة بطرف عينها «لماذا تسأل؟»

«مجرد فضول» وأبقيت على ابتسامتي البلهاء.

«في تل أبيب».

«وأبوك وأمك؟ أقصد جدي وجدتي أين ولدا؟»

«في بلد بعيد اسمه المغرب» أجابت بدون تفصيل.

هززت رأسي باهتمام وأردفت «وجدي من أبي أين ولد؟»

«في أمريكا طبعًا» أجابت بتهكم.

«إذا كان جدي من ناحية الأب أمريكيًا ومن ناحية الأم مغربيًا فماذا أكون أنا؟» سألتها بجدية.

«أنت إسرائيلي طبعًا».

أومأت برأسي. «وأين تقع فلسطين؟» باغتّها بالسؤال.

ألقت ما في يدها وأجابت بغضب «ألم أحذرك من مغبة التحدث إلى العرب؟ أي أفكار شريرة زرعوها في رأسك؟ هنا لا توجد فلسطين. هنا إسرائيل فقط».

24

لم يزرني والدي ولو مرة واحدة منذ أن خرجت من قصره. لم يكلف نفسه حتى عناء الاتصال بي هاتفيًا. حتى أمي استغربت جفاءه وأخبرتني أنه لم يكن هكذا في شبابه. خمنتُ أنه ربما تزوج وينتظر أن تنجب له زوجته من ينسيه ولده البكر غريب الأطوار. عرفتُ من أمي بأنه زاد في المعونة الشهرية لتغطي مصاريف معيشتي ودروسي الخصوصية. أخبرتها أنني لست بحاجة إلى أمواله وأني أفضل الالتحاق بمدرسة حكومية مجانية وأتحمل الهمز واللمز من التلاميذ على أن أشعر في يوم من الأيام بأي فضل له علي. وقد كان ما وعدت به، إذ انتظمتُ في مدرسة قريبة مع بدء العام الدراسي.

وطدتُ نفسي من اليوم الأول على تجاهل جميع التلاميذ والتركيز فقط على تحصيلي العلمي. أردت أن أثبت لأبي أنه على خطأ وأنني لست عديم الفائدة كما يزعم جدي الذي لا أتشرف بالانتساب إليه. تحدثت أمي مع إدارة المدرسة وشرحت لهم حالتي وأني قد أبدو للوهلة الأولى بليدًا أو بطيء الفهم، ولكن الحقيقة غير ذلك فأنا وإن كنت غير قادر على التفاعل مع الآخرين فإني في كامل قواي العقلية ولا أحتاج إلى أي

مساعدة جسدية وأن كل ما في الأمر أني قليل الكلام وأفضل عدم الاختلاط بالآخرين.

واجهت صعوبة في بداية الأمر في غض الطرف عن ضحكات التلاميذ من طريقة سيري أو أسلوبي المتقطع في الحديث. كنتُ أشعر بغضب يعتمل في صدري ويظهر أثره على وجهي فيتخضب بحمرة قانية تزيد الأمر سوءً عندما تعلو ضحكاتهم. من حسن الحظ فإن ذلك لم يدم طويلًا، اذ استطعت أن أطور ملكة الانفصال عن العالم الخارجي والغوص في أعماقي. كنت أكتفي بأن أختار بقعة منزوية فأجلس فيها متكورًا على نفسي وأنتقل آنيًا إلى عالم آخر لا يصلني فيه زعيقهم ونباحهم، وكأن روحي انعتقت عن جسدي لتسبح في فضاء عالم موازٍ بعيد.

لم أحصل على درجات مميزة في عامي الدراسي الأول من التحاقي بالمدرسة، لكني لم أرسب في أي مادة. عوضت في العام الدراسي التالي ونجحت بأن أكون في زمرة الأوائل. في العام الذي يليه حصلت على المركز الأول ونعتني مدير المدرسة أمام أمي بأني عبقري، وانتقلت مباشرة إلى الصف الدراسي الأخير متجاوزًا أقراني جميعًا لأنهي دراستي الثانوية وانا في الرابعة عشر من عمري.

في العام التالي أصبحت جاهزًا للالتحاق بالجامعة واخترتُ أن أدرس تخصصين دفعة واحدة: الفلسفة وعلم النفس. فكما أن الفلسفة تهتم بالأعمال العقلية والأفكار المنطقية ووجهات النظر المرتبطة بمجريات الحياة اليومية للناس، فإن علم النفس

يهتم بدراسة سلوك الفرد وشخصيته؛ للوصول إلى دوافع ذلك السلوك وتفسيره، والتنبؤ به والتحكم فيه. ربما يجد البعض الأمر غريبًا أن أدرس طباع البشر وسلوكهم وأنا لا أطيق الاقتراب منهم أو الاختلاط بهم. وربما كان مضحكًا أن أعترف بأني أتخيل نفسي كائنًا فضائيًا مهتمًا بدراسة النوع البشري وتحليله.

نسيتُ أن أشير إلى أن أمي وبدون علمي أرسلت نسخة من شهادة تخرجي المدرسية مع ما أُلحق بها من إشادات المدرسين بنبوغي وعبقريتي إلى والدي وجدي. ويبدو أن ذلك آتى أكله، فقد وجدنا بعد أيام سيارة ليموزين تقف أمام منزل أمي المتواضع ويترجل منها سائق لا أعرفه يطلبني بالاسم مع أمتعتي ليعيدني إلى القصر. لم تستطع أمي أن تخفي قلقها وربما لامت نفسها على إرسال الشهادة، لكني أسرعتُ فهونتُ عليها وأكدتُ لها أني لا أباع وأشترى، ورفضتُ العرض بلباقة.

في اليوم التالي فوجئت بالسائق نفسه يطرق الباب ويخبرني أن والدي ينتظرني في السيارة في الخارج. نظرتُ إلى أمي فأومأت برأسها، لكني أجبته بأننا لا نرد أحدًا عن منزلنا، فإن شاء فليتفضل ومرحبًا به، أما أنا، فلا أستطيع الخروج إليه. توقعتُ أن يعود أدراجه وألا تسمح له أنفته أن يتنازل فيدخل منزلًا حقيرًا تسكنه امرأة اتهمها بشرفها. خيّب توقعاتي عندما اقتحم المنزل، ويا لدهشتي عندما رأيت جدي في إثره يدق الأرض بعكازه وقد بلغ أرذل العمر. حاول أبي أن يأخذني في حضنه فتراجعتُ لا شعوريًا ودفعته عني بلطف ومددت يدي لأصافحه مع أني حتى

المصافحة لا أحبذها. هز يدي بقبضة قوية فسرت القشعريرة في جسدي. تجاهل أمي ولم ينظر نحوها فاستأتُ كثيرًا وظهر ذلك على وجهي. تركتنا أمي وانسحبت بهدوء إلى غرفة نومها فأقسمتُ في سري على أن آخذ لها حقها.

«جئنا لنصطحبك معنا. لستَ بحاجة إلى أي متاع. غرفتك في القصر مؤثثة بكل ما تحتاج» أعلن جدي بتعالٍ وهو يقلب نظره في جدران المنزل باشمئزاز وينفض عن ثيابه غبارًا وهميًا.

«نعم يا شلومو. هيا بنا. جئتُ مع جدك خصيصًا من أجلك. سجّلتك في الجامعة العبرية في القدس لتدرس الاقتصاد والعلوم السياسية» قال أبي باعتزاز.

ابتسمتُ وأنا أحدث نفسي بأنهما لم يتغيرا قيد أنملة.

«شكرًا.. لك.. سيد...موشيه. أنا ...مرتاح...هنا.... مع ...أمي» تعمدتُ أن أتكلم بطريقة متقطعة أسوء بكثير من واقع الأمر وأردفت «قررتُ... أن أدرس... الفلسفة ...وعلم النفس... ونجحت...في الحصول ...على منحة ... لإعفائي ... من الرسوم» ثم لهثتُ لأزيد الطينة بلة وأنا أراقب جدي وهو ينظر نحوي شزرًا ولسان حاله يقول «لابد أن في الأمر خدعة ما. لا أراه ألا وقد زاد عتهًا وتخلفًا».

«شكرًا...على الزيارة...لم يكن...من داع.... لتتعبا نفسيكما...لتزورا .... شابًا معاقًا..... يسكن في ...بيت عربي... سُلب من أهله...كما سُلب بلد بأكمله».

انفجر جدي غاضبًا «ماذا يقول هذا الأحمق؟ أرأيت أي تربية وفرتها له تلك الساقطة؟»

«توقف. لا أسمح لك بالتطاول. أخرج من بيت أمي حالًا وإياك أن تسيء لها. لن أقبل منك أي إهانة أخرى» قلت بعصبية، ولكن بلهجة سليمة واضحة.

لم ينبس والدي ببنت شفه وخرج وجدي في أعقابه يُرغي ويُزبد.

25

لم تتكرر الزيارة ولم ألتق بجدي مرة أخرى حتى سمعت أنه توفي بنوبة قلبية. لم أحزن لموته ولم أتأثر لكني دفنت معه غضبي منه واستيائي من سوء معاملته لي ولأمي.

لم يتوقف والدي عن إرسال النقود ومحاولة استرضائي بالهدايا. أشارت عليّ أمي بأن الوقت قد حان لأصلح علاقتي بأبي خاصة بعد وفاة جدي. لم يكن أمرًا هينًا بعد ما لاقيته منه في صغري، ولم أنس بسهولة كيف طوعت له نفسه أن يتركني أخرج من قصره وأنا في تلك السن الصغيرة. أصبحتُ أزوره في المناسبات أو كلما شعرت بحنين لرؤيته، لكني رفضتُ أن أنتقل للعيش معه وفضلتُ أن أبقى بصحبة أمي أرعاها وترعاني خاصة بعد أن فقدت عملها بوشاية مُغرضة من جدي بعد زيارته المشؤومة، ولم تتمكن من امتهان أي عمل آخر بعدها. أقنعتها أن تستعين بالأموال التي تجمعت خلال السنوات من المعونة الشهرية التي لم تكن تمسها.

بطريقة ما نجح والدي باستصدار صك ملكية للعقار الذي نقيم فيه باسم أمي، عرفتُ لاحقًا أنه جاء بوثيقة تزعم أن أصحاب البيت العرب قد باعوه إلى أبيه قبل أن يهاجروا إلى لبنان وأن

ملكية العقار انتقلت إليه بالوراثة بعد وفاة جدي وأنه وهبه طواعية إلى طليقته. أمي كانت تعرف أن الوثيقة مزورة وكذلك علمت إدارة الأملاك الوطنية، لكن لم يكن أحد يبالي، إذ يكفي أن تجد بيتًا مهجورًا فتضع يدك عليه ثم تؤلف وثيقة مزورة بثمن بخس تدعي فيها أنك صاحب البيت الأصلي أو أنك اشتريته بمبلغ ما من أصحابه الذين تركوه بإرادتهم.

فرحت أمي بملكية المنزل، بل وأقامت حفلًا بهذه المناسبة دعت إليه صديقاتها. لم أشارك في الحفل، ليس لأني لا أحب الحفلات بطبعي فقط، وإنما لقناعتي بأنه حفل لمناسبة تستحق أن تكون سببًا لوصمنا بالعار. يومها خرجت من المنزل لأبتعد عن صخب الحفل وضوضائه. تمشيت قليلًا بين الأزقة كعادتي وأنا أتنشق عبير زهور البرتقال وثماره التي يزرعها العرب في أفنية منازلهم. استرعى انتباهي لافتات علقت على شرفات المنازل تحمل كتابة عربية وتحتها ما بدا أنه ترجمتها الإنجليزية.
'The house of Saleem Al Beeshawi is not for sale and was never sold'

«منزل سليم البيشاوي ليس للبيع ولم يتم بيعه أبدًا»

أدركت على الفور أن المنزل المقصود هو المنزل الذي تحتفل أمي بملكيته المزورة. طأطأتُ رأسي خجلًا وأنا أرى نظرات الاستنكار والاستحقار في عيون المارة وهم يتمتمون بكلمات عربية لم أكن بحاجة إلى تخمين ترجمتها. تمنيتُ لو تنشق الأرض فتبلعني. ودون أن أشعر، وجدتني أدخل فناء أحد

الأبنية الحكومية تبين لي لاحقًا أنه مصرف ثم أجلس تحت شجرة برتقال وافرة الظلال فأدفن رأسي بين ساقيّ وألتحف بذراعيّ وأغمض عيني. لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا على هذا الحال، لكني عندما رفعت رأسي بعد أن نكزني أحدهم وجدت الشمس وقد غابت وهبط الظلام. طلب مني حارس المبنى أن أغادر لأن ساعات عمل المصرف قد انقضت ولابد من إقفال المكان. نهضتُ ورجعت إلى المنزل دون أن أنطق بكلمة واحدة، ولم أستطع أن أفسر لأمي سبب غيابي الطويل.

ليلتها ولأول مرة في حياتي شعرتُ بأننا نعيش كذبة كبيرة أكبر مني ومن أمي وأبي. كذبة بحجم بلد بأكمله. دخلتُ غرفتي وأحكمت إغلاق الباب وتجاهلتُ عرض أمي بأن أتناول من المهلبية التي تعلم أني أحبها وقد أعدّتها بمناسبة الاحتفال. سخرتُ في سري من حالنا عندما خطر ببالي أن تلك الحلوى هي أيضًا مسروقة مع الحلاوة الطحينية والفلافل والحمص والشكشوكة وغيرها من الأطعمة التي أحبها وتفاجأتُ عندما علمت بالصدفة وأنا أجري بحثًا للمدرسة أنها كلها أكلات عربية معروفة، مع أنه يروج لها في برامج الطبخ العبرية على أنها مأكولات من المطبخ الإسرائيلي. حتى الأزياء التقليدية الإسرائيلية تبين لي في بحثي أنها أثواب اشتهرت بها النساء الفلسطينيات. لا أدري ماذا بقي لنسرقه وننسبه لأنفسنا وقد سرقنا الأرض والزرع، والبيوت، والأطعمة، والأزياء.

من يومها وأنا أشعر ببغض كبير لكل ما يجري حولي من

كذب وخداع يشارك فيه الجميع الصالح والطالح، ويومًا بعد يوم زاد يقيني بأن أمي كانت على خطأ عندما نعتت جيراننا العرب بأنهم أشرار. لقد كنا نحن الأشرار ولا ندري.

ومنذ ذلك اليوم وأصبح من طقوسي اليومية الغريبة زيارتك يا صديقتي يا شجرة البرتقال. لا أنكر أنني أحيانًا كنت أضل الطريق فأدخل منزلًا آخر بالخطأ أو أتطفل فأرتاح في أفنية أخرى يجذبني إليها شذى أزهارها وقد نما لدي عشق غير مفسر للبيوت العربية القديمة وما يزرعونه في أفنيتها، وأصبحت متعتي الحقيقية في أن أتخذ زاوية نائية فأتكوم على نفسي وأستنشق عبير الأزهار بينما يأخذني عقلي بعيدًا إلى عوالم أخرى. أنا أعلم أن تصرفاتي هذه تؤكد لكل من يراني أو يقترب مني أني بالفعل غريب الأطوار. لم أعد أبالي بآراء الآخرين وتصنيفاتهم لأفعالي. أنا لا أسيئ لأحد ولا أتعمد إزعاج أحد، وكل ما أريده أن يدعني الناس وشأني ويتجاهلون وجودي.

أنهيت دراستي الجامعية في ثلاث سنوات وقررت ألا أتوقف عن تحصيل العلم فأكملت دراسة الماجستير وكنت على وشك التحضير لرسالة الدكتوراة عندما انقلبت حياتي رأسًا على عقب بوصول العائلة الفلسطينية الكندية إلى حينا.

26

لا أدري ما الذي جعلني أقترب من هذه العائلة وأتجرأ فأقتحم حياتهم وأنا الذي لا يحب الاختلاط بالآخرين وأفضل الانعزال في ركني الخاص خارج هذا العالم. إن أردتني أن أخمن فسأقول إن للأمر علاقة بمعاملتهم المختلفة لي. وعندما أقول معاملتهم فأنا أقصد معاملة تلك الفتاة التي أظنها في مثل عمري.

كانت المرة الأولى التي لا أشعر فيها وأنا أتحدث إلى شخص بأني غريب الأطوار. كانت تخاطبني وتوجه لي الحديث بكل أريحية وكأني صديق قديم دون أن تشعرني للحظة باختلافي. امتلكت تلك الفتاة الفلسطينية الكندية قدرة عجيبة على ولوج عالمي الخاص والتجول فيه بحرية وكأنه عالمها هي وأنا ضيف عليه.

هي مثلي تحبك يا شجرة البرتقال ولا أدري إن كنت أبالغ عندما أتخيل أنك أنت من أتيت بها من وراء البحار لتكافئيني على إخلاصي لك. ربما لا تصدقين إن أخبرتك أن ملامحها استقرت في مخيلتي من النظرة الخاطفة الأولى، وأنت تعرفين كم يصعب عليّ التحديق في وجوه الآخرين. ما أفزعني في لقائنا الأول أني شعرت عندما رفعت رأسي وتلاقت نظراتنا أن عينيها

الخضراوين اخترقتا حصوني واقتحمتا على روحي خلوتها لتنظر عميقًا في وجداني فتعرف حقيقتي.

لست أبالغ حتمًا عندما أقر بأني وجدت لحياتي معنىً عندما اقتربتُ من تلك العائلة وشاركتها همومها وساهمت في الأحداث التي كادت تعصف بها. أسعدني كثيرًا أنني استطعت تقديم المساعدة في الوقت المناسب، وأن رب العائلة والذي كان يعاملني في البداية بتحفظ وجفاء معتقدًا أني لا أختلف كثيرًا عن أولئك الذين نشأ وهو يعلم أنهم سلبوا وطنه ولا يتورعون عن إلحاق الأذى بقومه، استطاع أن يتقبلني في النهاية، بل ويشكرني.

استأت كثيرًا عندما علمت بالأذى الذي لحق بهشام من قبل تلك الزمرة البغيضة المتعصبة وهو صبي لم يبلغ الحلم. لم أستطع تقبل الأمر يومها وشعرت بكل الغضب الذي تراكم في صدري طوال سنين حياتي جراء الظلم الذي تجرعته من أقرب الأقربين يوشك أن ينفجر. لا أدري ما الذي أصابني وقتها، ولكني أحسست وكأن روحي تلبست جسد عملاق مفتول العضلات، ولم أدر بنفسي إلا وأنا أترك بيت عائلة لانا بعد أن رأيت العصابة حول رأس أخيها الصغير وأنطلق وبركان يهدر في جوفي.

بحثت عن تلك الثلة الآثمة التي صور لها أحبارها أنهم يتقربون إلى الرب بإيذاء الأغيار الأميين أو الجوييم كما يحلو لهم تسمية غير اليهود. وليتهم يفرقون بين صبي صغير أو كهل كبير.

لم يخطر ببالي حتى ذلك اليوم أني أملك من الشجاعة

مـا يجعلنـي قـادرًا علـى مواجهة عصابة من الفتيـان دفعة واحدة وأنا الذي تعوّد على تقبل الإهانات من كل حدب وصوب دون أن أحرك سـاكنًا. لم أعرف أن جسـدي هذا الذي يبدو كسـنبلة قمـح تطيـح بها أضعف هبـة ريح يحبس بين جنباته ماردًا يتحفز للخروج.

لا أكاد أصدق ما فعلته يومها ولولا أني أعرف أني لم أفقد بعـد عقلـي لظننتنـي متوهمًا أو أروي أحداث حلم خيالي ابتدعه عقلي وأنا أتقلب في سريري.

وجدتهـم حيـث خمنـت يتسـكعون بالقـرب مـن الكنيـس يتربصـون للمـارة مـن العرب فيتركون الأشـداء منهم ويتصيدون الضعاف من صغار الصبية أو النسـوة فيطلقون النكات السـمجة والعبارات العنصرية ثم يصفقون طربًا لأفعالهم الجبانة.

اقتربـتُ مـن أحدهـم وكان الأطـول بينهـم وكان بـدأ يهـزأ بمشـيتي وهو يراني مقبلًا نحوه من بعيد. فجأة ومن دون سـابق إنذار لطمته على وجهه بكل ما أوتيت من عزم وقوة فإذا به يترنح ويسقط أمام أقرانه الذين ألجمتهم المفاجأة، وقبل أن يفيقوا من الصدمـة زأرت فـي وجوههـم بصـوت لـم أكـن واثقًـا أنه صادر من حنجرتي وصرخت بهم محذرًا وأنا أشـعر بجسـدي يتطاول وأجسـامهم تنكمش وتتضاءل «أقسـم برب اليهود والمسـيحيين والمسلمين بأني سأذيقكم ألوان العذاب التي أنزلها نبوخذ نصر ببني إسرائيل إن رأيتكم مرة أخرى تتسكعون وتؤذون المارة في الطرقات». لا أعرف من ألقى بهذه الكلمات على لساني، ولكنها

كانت كفيلة ببعثرتهم من أمامي كفئران مرتعبة.

لن أستطيع أن أعبر لك يا برتقالتي عن النشوة التي شعرت بها يومها وأنا أنتصر بفعلتي تلك لكل مظلوم. لم أتخيل في أكثر أحلامي جموحًا أن أقوم بما قمت به يومها. رجعت إلى منزلي في أصيل ذلك اليوم وأنا شخص آخر. حتى أمي ظنت أن خطبًا أصابني وهي تراني ربما للمرة الأولى في حياتي أنظر إليها مبتسمًا في ثقة غير مطأطئ الرأس كعادتي. أخذتُ نفسًا عميقًا وزفرته وأنا أخبر أمي أني أتضور جوعًا. دخلَت المطبخ لتعد الطعام وهي تضرب أخماسًا في أسداس ولا تدري ماذا حل بولدها وأي روح غريبة تلبسته.

27

يوسف

وصلت صباح الجمعة مع الطاقم الطبي الذي يصحب قافلة المساعدات إلى رفح المصرية ومن هناك توجهنا نحو المعبر الحدودي لنجتاز إلى غزة بعد رحلة مرهقة من مطار العريش.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشر صباحًا عندما دخلتُ مع زملائي الأطباء مستشفى الشفاء في غزة حيث يفترض بنا تقديم المساعدة الطبية للجرحى هناك والذين كانت تعج بهم غرف المستشفى وأروقتها.

بناءً على طلبي توجهت فور وصولي إلى غرفة العمليات لأشارك في مساعدة أولئك الذين هم بحاجة إلى تدخل جراحي عاجل ممن تلقوا إصابة في الرأس وهو المجال الذي أستطيع أن أقدم فيه أكبر مساعدة ممكنة.

غسلت يديّ ووضعت الرداء الأخضر وارتديت القفازات ودخلت الغرفة حيث كان يرقد صبي في عمر هشام فاقد الوعي بعد أن أصابت شظية مؤخرة رأسه. باشرت العمل وانقطعت عن العالم الخارجي وبالي مرتاح إلى أن لانا وهشام لابد وقد صعدا

الطائرة متجهين إلى تورونتو. ذكّرت نفسي بأن أتصل منتصف الليل لأطمئن على وصولهما، وإن لم أكن واثقًا إن كنت بحاجة إلى شريحة هاتف محلية أم أستطيع الاتصال بشريحتي الكندية عبر خاصية التجوال الدولي.

أجريت العملية بنجاح، ولكني لم أستطع أن أكافئ نفسي بدقائق راحة، فقد كان عدد الإصابات كبيرًا وأغلبها يتطلب تدخلًا جراحيًا عاجلًا لا يحتمل التأخير. انتقلت من عملية إلى أخرى حتى فقدت الإحساس بالوقت ولم أشعر إلا وأحد زملائي يخبرني بأنني قضيت أكثر من اثنتي عشرة ساعة في عمل متواصل دون توقف.

خرجتُ من غرفة العمليات وأنا أشعر بإرهاق شديد. تمددتُ على الأرض لأريح عظامي قليلًا فتذكرتُ المكالمة الهاتفية. نهضت من فوري وتفقدت حاجياتي في غرفة الأطباء لأجد هاتفي قد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن نفدت البطارية. أوصلته بالشاحن وانتظرت ريثما ظهرت التفاحة المقضومة. أصبت بالإحباط عندما اكتشفتُ أن شريحتي لم تتصل بأي من شبكات الاتصال المتوفرة في غزة، وبعد عناء تطوع أحد الزملاء وجاءني بشريحة محلية. طلبت رقم هاتف لانا المحمول وتبين لي بعد لحظات أنه خارج نطاق الخدمة. اتصلت من فوري بسارة والتي يفترض أن تكون في استقبال ولدينا. ردت بعد بضع رنات.

«لانا، هذه أنت؟ لماذا لم تخرجا بعد من بوابة الخروج؟ أنا أنتظر هنا منذ أكثر من ساعة وكل الركاب القادمين من تل

أبيب خرجوا من البوابة منذ زمن. هل واجهتكما أي مشكلة في الداخل؟» لم تتوقف سارة لحظة واحدة لأخبرها أنني المتصل وليست لانا.

«سارة، سارة، على رسلك. أنا يوسف أتصل من غزة كي أطمئن على وصول لانا وهشام».

«لماذا تتصل من رقم غريب؟»

«شريحتي لا تعمل هنا، ولكن هذا ليس مهمًا الآن. تقولين إنهما لم يخرجا بعد؟ توجهي فورًا إلى الاستعلامات وتأكدي من سبب التأخير واتصلي بي على نفس هذا الرقم حالما تحصلين على إجابة» قلت بتوتر وأقفلتُ الخط وانتظرت أن تعيد الاتصال.

مرت دقائق بطيئة قبل أن يرن هاتفي «أخبريني هل خرجا بخير؟» سألتها وأنا لا أطيق انتظارًا.

«يوسف. لدينا مشكلة كبيرة. اسماهما لم يردا في قائمة الركاب الذين صعدوا إلى الطائرة. لقد تخلفا عنها ولا أحد يعرف السبب. حاولتُ الاتصال بهاتف لانا ثم بهاتف هشام. كلاهما خارج نطاق التغطية. ماذا نفعل؟ أنا قلقة جدًا. كيف هان لك أن تتركهما بمفرديهما وتسافر إلى غزة وأنت تعرف الظروف السيئة التي تمر بها المنطقة؟ كيف سنصل إليهما الآن؟»

لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالدخول مع سارة في مهاترات «ألم يحاولا التواصل معك؟ كما أخبرتك فشريحتي لم تعمل، لهذا فأي محاولة منهما للاتصال بي كانت ستبوء بالفشل».

« تلقيت الكثير من الاتصالات من أرقام غريبة طوال اليوم،

ولكني تجاهلتها. لم يخطر ببالي أن يتصلا بي من أرقام مجهولة، قالت بشيء من البرود كاد يقتلني.

كظمتُ غيظي «حسنًا، أعيدي الاتصال بهذه الأرقام إن كانت تبدأ بالرمز الدولي لإسرائيل وهو 970 وأخبريني بالنتيجة على الفور» وأقفلت الخط.

مرت ربع ساعة قبل أن تتصل بي. أجبتُ من الرنة الأولى. كانت تجهش بالبكاء وبالكاد سمعتها تقول «لقد قبض عليهما. قبض عليهما في جريمة قتل».

28

كل ما استطاعت سارة معرفته من المكالمة التي أجرتها مع مركز الشرطة في تل أبيب كان يتمحور حول حقيقة واحدة. مُنع هشام ولانا من السفر وتم احتجازهما بعد أن عثرت الشرطة على جثة دُفنت تحت شجرة البرتقال في فناء السرايا. لم يُسمح لنا بالتحدث إليهما إلا بعد أن تواصلتُ مع المسؤولين في السفارة الكندية في تل أبيب وشرحتُ الموقف فتدخلوا مشكورين وحصلوا لنا على الموافقة المطلوبة بعد جهد جهيد نظرًا لحساسية القضية وارتباطها كما أخبروني بسياسي شهير، وبعد أن تعهدتُ بالرجوع إلى تل أبيب خلال 48 ساعة ليتم التحقيق معي والإفراج عن لانا وهشام ما لم يثبت تورطهما في القضية.

حاولَت لانا أن تبدو متماسكة وهي تروي لي تفاصيل اقتحام الشرطة للمنزل بناءً على شكوى من أم شلومو التي تعرفت على جثة ولدها على الفور بمجرد أن ظهرت يده من تحت التراب، وكيف أن رجال الشرطة اقتادوها وهشام على الفور قبل حتى أن يصل محققو مسرح الجريمة أو يخرجوا الجثة ويكتشفوا سبب الوفاة. أكدت لي لانا أنها وهشام ليس لديهما أي فكرة عن سبب وجود جثة شلومو في فناء المنزل ولا يستطيعان حتى

أن يخمنا هوية القاتل أو سبب ارتكاب الجريمة وأنهما لم يلتقيا بشلومو منذ أسبوعين أو أكثر. لم تخفِ لانا حزنها على شلومو الذي بدأتُ أنا نفسي أتعاطف معه خاصة بعد موقفه الشهم يوم اختفاء هشام. طمأنتها إلى أني سأكون معهما خلال ساعات وأنه ما من داعٍ للقلق، وأن السفارة الكندية ستحرص على أن تتم معاملتهما في مركز الشرطة بكل احترام وأنهما سيبيتان في أحد المكاتب ولن يتم احتجازهما في عنبر المتهمين. تحدثتُ إلى هشام وخاطبته كرجل وأوصيته برعاية أخته التي تكبره. كنت أعرف أن ذلك سيدفعه للتغلب على خوفه وقلقه.

أقفلتُ الخط وتحدثت إلى سارة وأعلمتها أني سأخرج من غزة على الفور وسأتوجه إلى العريش لأستقل أول طائرة متجهة إلى تل أبيب. لم أوافق على اقتراحها بالقدوم من تورونتو وطلبتُ منها أن تكون رابطة الجأش وأن تهوّن على نفسها وترتاح قليلًا ريثما أجتمع بولدينا وأطمئنها.

اعتذرتُ من زملائي المتطوعين في الطاقم الطبي لاضطراري لمغادرة قطاع غزة بشكل عاجل، وتفهم مدير الحملة الظرف وساعدني في الحصول على التصريح اللازم لاجتياز المعبر باتجاه الأراضي المصرية، في ظروف أخرى ربما كان من الأسهل استخدام معبر بيت حانون للدخول إلى الأراضي التي تقع تحت سيطرة الإسرائيليين. خلال بضع ساعات كنت على متن الطائرة أعد الدقائق لألتحق بلانا وهشام. لم أستطع أن أفكر بسبب يبرر أن يقدم أحدهم على الاعتداء على ذلك الفتى المسالم وقتله.

ثم تساءلتُ عن سبب دفنه في فناء منزلنا. لولا أني لست من مناصري نظرية المؤامرة لخطر ببالي أن أحدهم تعمد إلصاق التهمة بنا بعد أن اكتشف أننا عرب فلسطينيون، لكن لم يبد لي ذلك منطقيًا، فارتكاب جريمة قتل ليس بالأمر الهيّن وإلصاق التهمة بالآخرين من غير دافع قوي للقتل يبدو عملًا غبيًا وطائشًا. ربما لو كان مسرح الجريمة في إحدى الدول العربية التي ينعدم فيها الأمن لصدقت الأمر، ولكن ليس في تل أبيب وخاصة وأن للأمر علاقة بابن أحد السياسيين المهمين في إسرائيل.

لم أُدهش عندما اكتشفتُ أن اسمي كان على قائمة ما في مطار بنغوريون، ولم أكد أجتز إدارة التدقيق في الجوازات حتى تم اقتيادي بهدوء خارج الصف ثم خارج مبنى المطار من باب خلفي لأصعد إلى مركبة سوداء مظللة النوافذ أخذتني على جناح السرعة إلى مكان ما في مركز المدينة وتوقفت أمام المبنى الذي يُحتجز فيه ولداي.

في الطريق لم يُسمح لي باستخدام الهاتف ولا أجابوا عن أي من أسئلتي وطلبوا بأدب أن أنتظر ريثما نصل إلى وجهتنا.

أُدخلت إلى غرفة بدون نوافذ جلست فيها أمام مكتب صغير بعد أن تم تفتيشي والتحفظ على هاتفي المحمول وحقيبتي الصغيرة التي تحتوي أمتعتي الشخصية. كنتُ محظوظًا إذ فكرتُ بالاتصال بالسفارة الكندية بمجرد أن هبطت الطائرة ومست عجلاتها الأرض. أخبرتهم بوصولي وأني سأتوجه من فوري إلى مركز الشرطة بعد أن أتصل وأحصل على العنوان. وعدني

المسؤول الذي حدثني بكل اهتمام بأنهم سيرسلون محاميًا موكلًا من طرفهم ليكون معي ويحضر التحقيق.

مضت دقائق طويلة كأنها ساعات وأنا أنتظر إلى أن دخل عليّ رجل أربعيني متجهم. جلس خلف المكتب وبدأ يسألني بالإنجليزية أسئلة تقليدية عن هويتي وعملي وطبيعة زيارتي لتل أبيب ومكان سكني، قبل أن يرن هاتف رد عليه بعصبية ثم ارتفع صوته وهو يبرطم بالعبرية بغضب، وبعد تبادل ما خمنت أنها شتائم من نوع ما أقفل الخط وهو يتأفف.

«لقد وصل محامٍ من قبل السفارة الكندية. هل فعلتَ ما جعلك تعتقد أنك بحاجة إليه؟» سألني بمكر.

«ما دام قد وصل فأفضل أن أجيب على أسئلتك بوجوده» ابتسمتُ بتوتر.

«لا بأس، فمقتل النائب من حزب العمل موشيه وايزمان وعثورنا على جثته في فناء منزلك الذي اشتريته دون أن تفصح عن أصولك العربية يتطلب أن توكل محاميًا» نهض وغادر الغرفة وتركني في هم وغم وأنا لا أعرف من موشيه هذا الذي يتحدث عنه.

29

قضيت واحدة من أسوء ليالي حياتي وأنا محتجزة مع هشام في غرفة صغيرة بدون نوافذ. لم تكن غرفة من غرف السجن، ولكن كان لديها الأثر نفسه. عوملنا معاملة حسنة بعد أن أبرزنا جوازي السفر الكنديين. لم نتعرض إلى أي إهانات ولم يتعمد أحد إزعاجنا أو الإساءة إلينا، رغم ذلك فقد عشت رعبًا لا أستطيع وصفه أو التعبير عنه، بداية لأنها المرة الأولى التي أرى فيها جثة، وجثة شخص أعرفه ولا أتمنى له نهاية بشعة كهذه، ثم حقيقة أن الجثة دفنت في دارنا وأن أصابع الاتهام تتجه طواعية نحونا بحكم أنه منزلنا وأننا عرب مسلمون ونعرف المجني عليه. كلها أمور تبعث على القلق ولا تبشر بخير، ويقدر الله أن يحدث ذلك ووالدانا مسافران كل في بلد مختلف.

الغريب في الأمر أن هشام لم يكن خائفًا أو قلقًا وبدا وكأنه يشاهد فيلمًا بوليسيًا وهو أحد أبطاله. كان رابط الجأش طوال الوقت حتى أنه استغرق في النوم بمجرد أن تُركنا لوحدنا في الغرفة وعندما استيقظ في اليوم التالي استغرب عندما وجدني واجمة لم أنم وأثر البكاء واضح على وجهي. وكانت حجته بسيطة، فما دمنا لم نقم بأي خطأ وليس لدينا أي علاقة بهذه

الجريمة فلماذا القلق والتوتر. ربما نتأخر قليلًا عن الدراسة في كندا، ولكن هذا أقصى ما قد يحدث.

لا أستطيع أن أتعامل مع الأمر بهذه السطحية، فعثور الشرطة على الجثة في فناء منزلنا لابد وأن يكون له تبعات لا ندركها، وليس من الغريب أن يحاول أحدهم إلصاق التهمة بنا وزرع الكثير من الأدلة الحسية والظرفية. لا أظن أن الأمر سيمر مرور الكرام وأنهم سيطلقون سراحنا هكذا بكل بساطة عندما نؤكد لهم أننا بريؤون وليس لدينا علاقة بالجريمة.

لم تهدأ نفسي إلا بعد أن تحدثت مع أمي ثم مع أبي الذي طمأنني بأن السفارة الكندية ستتدخل في الأمر وأنه سيكون إلى جوارنا في أسرع وقت ممكن.

عندما خلوت بنفسي قليلًا وحيدت شعوري بالقلق بعد أن علمتُ أن والدي قد وصل وأنه في غرفة مجاورة يجري التحقيق معه بوجود محامي السفارة الكندية، وجدتني أفكر في شلومو وأتألم لما حل به وإن كنت لا أعلم ملابسات الجريمة أو طريقة القتل، وأحمد الله أن الشرطة أخذتنا بعيدًا قبل انتشال الجثة، وإلا لبقيت صورته عالقة في ذهني إلى أجل غير مسمى. لا أستطيع أن أنكر أني حزينة عليه وربما دمعت عيني تأثرًا بموته، فقد كان شابًا طيبًا مهذبًا ولم يتأخر عن تقديم المساعدة رغم حساسيته المفرطة للاختلاط بالناس والصعوبة التي شعرت أنه يجدها في التعامل معهم.

هل قُتل المسكين جزاءً لحسن معاملته لنا؟ يصعب أن أقتنع

بذلك وإن كنت لا أستطيع أن أتخيل سببًا يدفع أحدهم ليقتله ثم يدفنه في فناء منزلنا دون أن يكون قاصدًا توريطنا بطريقة أو بأخرى، وخاصة في خضم الأحداث الأخيرة وتصاعد التوتر في المنطقة.

قبل أن أزور فلسطين كان لدي تلك النظرة السطحية التي تضع الفلسطينيين كلهم في سلة واحدة وجيرانهم اليهود في سلة أخرى. كنت أعرف أن العداء بين الطرفين مستفحل، لكني لم أتوقع أن أجد بين اليهود من يتمنى لنا الموت كما يوجد بينهم من يتعاطف مع قضيتنا، بل ويعترف باغتصاب قومه لوطننا. لم أتخيل أن الفريق الأول الذي يكرهنا يتمنى الموت حتى لأطفالنا بينما يرفض الفريق الثاني حتى فكرة قيام دولتهم ويعتبرها دولة عنصرية يجب تفكيكها. لكن ماذا لو كان هناك فريق ثالث لديهم لا يتمنى لنا الموت، ولكنه مقتنع أنه يعيش في وطنه وعلى أرضه التي ولد فيها ولا يعرف سواها؟ هل يحق لي أن أطالبه أن يرجع إلى البلد الذي جاء منه والداه أو جداه؟ أم أتقبل أن يعيش في فلسطين ويقاسمنا أرضنا؟ هل هذا يعني أن علي أن أتقبل أن يكون له دولته الخاصة أم الحق أن أطالب بدولة فلسطينية قائمة على العدل على كامل أرضنا مع السماح لليهود بالإقامة فيها معنا جنبًا إلى جنب كما كان الحال منذ مئات السنين؟ ارتاحت نفسي للخيار الأخير وكأنه خيار حقيقي مطروح وأنا أدرك أن الفلسطينيين والعرب والمسلمين أبعد ما يكونون عن تحقيقه.

تذكرت أمي وموقفها الرافض لبقائنا في فلسطين. أنا أعرف

أنها ترى أن الحياة في كندا أفضل وأننا نستطيع أن نخدم قضيتنا بشكل أفضل ونحن هناك. أبي يخالفها الرأي، وكثيرًا ما حاججها بأنه لو فكر كل إنسان بأنانية بنفسه ورغد عيشه فمن يبقى في الوطن ويدافع عنه؟ فلسطين بحاجة للعلماء والأطباء والمختصين في شتى المجالات وهي أولى بأبنائها. لقد قدر الله لكثير من الفلسطينيين بأن يدرسوا ويعملوا في الخارج ويكتسبوا الكثير من الخبرات التي يحتاجها وطنهم. إن بقي هؤلاء في الخارج فعلى عاتق من ستقوم دولة الحق والعدل؟ كيف للفلسطينيين أن ينشئوا دولة متقدمة وخيرة شبابهم وخبراؤهم وعلماؤهم يعيشون في الخارج؟ كيف لنا أن نلقي اللوم على رداءة الخدمات وسوء التعليم وتخلف الأساليب ما دام أهل الخبرة والاختصاص ينعمون في الخارج ويخدمون دولًا أخرى؟ أنا وكما أصبحتم تعرفون، أميل لوجهة نظر والدي وأراها أقرب للحق وإن كانت أمي تصر على أنها نظرة مثالية بعيدة عن الواقع.

تشتتت أفكاري عندما دخل ضابط ما الغرفة وأخبرنا أنه سيتم الإفراج عنا. سألته عن أبي وإن كان سيمر بنا لنخرج معًا. أجابني بابتسامة صفراء أقلقتني «ستخرجان بمفرديكما. أبوكما لن يخرج».

30

انتظرتُ اتصاله بفارغ الصبر. كان يفترض به أن يكلمني فور انتهائه من جلسة التحقيق واطمئنانه على لانا وهشام. مرت ثلاث ساعات منذ أن سمعت منه آخر مرة وكان قد خرج لتوه من الطائرة. مرت ساعة أخرى قبل أن يرن هاتفي وأرد بلهفة «يوسف هذا أنت؟»

«مرحبًا أمي. هذه أنا لانا، ومعي أخي. لقد أفرجوا عنا للتو. هل كلمك والدي؟»

«حمدًا لله على سلامتكما. لا تدرين كم كنت قلقة عليكما. هل تعرضتما لأي مكروه أثناء الاحتجاز أو التحقيق؟»

«أمي نحن بخير، لا داعي للقلق، ولكن هل سمعت من والدي؟ هل اتصل بك هو أو المحامي الذي حضر معه؟»

«ماذا تقصدين؟ ألم تلتقيا به؟ كيف أُفرج عنكما دون أن تراياه؟ ألم يأتي إلى مركز الشرطة؟ إلى أين ذهب إذًا ولماذا يغلق هاتفه؟»

«على رسلك يا أمي. لقد حضر والدي إلى مركز الشرطة وقد علمتُ أنه كان بصحبة محامٍ موكل من السفارة الكندية. لكننا لم نلتق به وأخبرونا أنه لن يخرج معنا. هذا كل ما أعرفه. حاولي

التواصل مع السفارة فلابد أن لديهم تفاصيل أكثر وتستطيعين الحصول على رقم هاتف المحامي الذي حضر التحقيق مع أبي. سأعود مع هشام إلى السرايا وننتظر هناك ريثما يخرج والدي. اتصلي بنا لو سمحت بمجرد أن تعرفي شيئًا عنه. هذا هشام يود أن يسلم عليك».

تحدثتُ مع هشام ثم أقفلت الخط وذهني شارد والقلق يفترسني على والده. هل احتجزوه مقابل الإفراج عن ولديه؟ لماذا لم يتصل إلى الآن ليطمئنني؟ هل وجدوا ما يدينه أو يربطه بتلك الجريمة؟ هل الأمر خطير لدرجة منعه من إجراء مكالمة؟ نفضتُ عني هذه الأفكار المقلقة واتصلت من فوري بالسفارة الكندية في تل أبيب.

بعد أخذٍ وردٍ حصلت على رقم هاتف المحامي. رن هاتفه طويلًا دون أن يرد. استنتجت أنه ربما لا يزال بصحبة يوسف يحضر التحقيق. زادني ذلك قلقًا، فأي تحقيق ذلك الذي يستغرق ساعات طويلة ولا يكون أمرًا جللًا؟ ربما اتهمَته أم شلومو رسميًا بأنه قتل ولدها وربما عرفوا بأصله الفلسطيني فلفقوا له المزيد من التهم. كنت أدرك أن هواجسي هذه لن تنتهي وستأثر بي مهما بدت غبية.

جفلت عندما رن هاتفي واكتشفت أنه المحامي يعيد الاتصال. أخبرته بهويتي فتغيرت نبرته. أكد مخاوفي عندما أخبرني أن جلسة التحقيق الأولية انتهت للتو وأن يوسف لن يستطيع أن يكلمني قبل بعض الوقت. علمتُ منه أن القضية

ليست هينة نظرًا لهوية القتيل الذي تبين أنه ليس شلومو، بل والده وأنه سياسي مهم. أخبرني أنه تمكن بصعوبة من حث السلطات على الإفراج عن لانا وهشام وأنه ما من دليل إدانة مؤكد يربط يوسف بالجريمة وأن كل ما لديهم الآن لا يعدو كونه أدلة ظرفية واشتباه ليس أكثر، وذلك نظرًا للمكان الذي عُثر فيه على الجثة وقد تبين أن الوفاة سببها انقطاع في وصول الأوكسجين إلى الدم مما يوحي بتعرض الضحية للخنق وهذا لا يتطلب أداة جريمة، وأن موعد الوفاة كان قبل سفر يوسف إلى مصر، وقد زاد الأمر سوءً اعتراف يوسف بأنه عاد لتوه من غزة، ثم حقيقة أن أصوله فلسطينية وأنه اشترى منزلًا في يافا دون الإفصاح عن أصوله العربية، ثم العلاقة الغريبة التي جمعت بين عائلته وشلومو المختفي منذ أيام من دون أثر. أخبرني أن كل ذلك جعلهم يتشددون في التعامل معه، وهم يسعون الآن للتحقق من علاقته بأي من الفصائل الفلسطينية. ارتعبتُ عندما أخبرني أن لديهم انطباعًا أوليًا أنه ربما يكون أحد كوادر حماس في الخارج وقد أرسل إلى تل أبيب في مهمة خاصة لاغتيال سياسي إسرائيلي عُرف بكرهه الشديد للعرب، وأنهم يدركون أنها ستكون سابقة أن يحدث أمر كهذا في عقر دارهم.

ما أثار قلقي حقًا هو أنني شعرت أن المحامي نفسه بدا غير واثق تمامًا من براءة يوسف رغم تأكيده على أن الأدلة ظرفية ضعيفة. قبل أن أنهي المكالمة أخبرني أنه سيتابع التحقيق وسيقف إلى جانب يوسف حتى النهاية وأن السفارة تعرض

المساعدة في نقل لانا وهشام إلى كندا على وجه السرعة. شكرته وأبديت تقبلي وامتناني لعرض السفارة ورجوته أن يحاول أن يدعني أتحدث إلى يوسف في أقرب فرصة ممكنة.

أغلقتُ الخط واتصلت بلانا وأخبرتها أن أباها ربما يتأخر قليلًا ريثما يثبت عدم تورطه في الجريمة، وأن السفارة ستتواصل معها لتسهيل عودتها مع هشام إلى كندا. حاولت لانا أن تقنعني أنه من الأفضل أن تبقى في يافا إلى أن يتم الإفراج عن والدها، لكني أخبرتها أن هذا محال أن يحدث وأن والدها سيرغب في أن تكون بأمان مع أخيها لأننا لا نعرف ردة فعل العامة إن علموا أن أباهما متهم بقتل سياسي إسرائيلي معروف. وافقَت على مضض ووعدتني أن تتجهز للسفر في أول رحلة توصي بها السفارة الكندية.

لم أجد ما أفعله سوى أن قمت فصليت ركعتين دعوت الله فيهما أن يفرّج عن زوجي كربه وأن يعيده لي سالمًا.

31

ها أنا أكتب لك مجددًا يا شجرة البرتقال. هذه المرة أنا على عجلة من أمري، ولكني في ظرف يتطلب مني أن أكون هادئًا رابط الجأش. لم أجد أفضل من أن أكتب إليك لتهدأ نفسي وأستطيع أن أتعامل مع الموقف الذي وقعتُ فيه. اعذريني إذ اضطررت إلى أن أكتب لك على ورق انتزعته عنوة من آلة طباعة. أعدك أني سأعيد كتابة هذه السطور في مفكرتي لتنضم إلى باقي رسائلي إليك.

ربما لن تصدقي يا شجرة البرتقال العزيزة النشوة التي شعرت بها عندما عدت إلى المنزل ذلك اليوم. كانت المرة الأولى التي أحس فيها بأني غير مستضعف وأنني قادر على حماية نفسي. لم أستطع النوم ليلتها وأنا أعيد في عقلي وقائع ذلك اليوم ابتداءً برحلة القدس وانتهاءً بلطم ذلك المتنمر المتعصب. تحمرُّ الآن وجنتيّ وأنا أعترف لك أني كم وددت لو كانت لانا حاضرة عندما تصديتُ لتلك الزمرة. لا تسأليني لماذا، ولكني ربما كنت بحاجة إلى شاهد على الحدث وليس أي شاهد، فهي الوحيدة التي أشعر في وجودها بأني شخص طبيعي.

في صباح اليوم التالي تلقيتُ اتصالًا غريبًا من والدي

يدعوني فيه لتناول الغداء معه. لم يكن ذلك من عادته رغم تحسن علاقتنا. وافقتُ على عرضه لكني قررت ألا أخبر أمي. إذ لم أكن واثقًا من ردة فعلها، ولم أشأ أن تشعر ولو للحظة بأني أخونها عندما أسمح لوالدي بالتقرب إلي. بكل الأحوال لم أظن أن اللقاء سيطول، فأخبرتها أني سأخرج في حاجة ما ولن أتأخر. سألتني وبدون مقدمات إن كنت سألتقي بالعائلة الكندية، فهززت رأسي نافيًا دون الدخول في تفاصيل. أومأت برأسها وكأنها لا تصدقني، فخرجتُ على عجلٍ قبل أن تخوض معي في تحقيق مطول لن أخرج منه سالمًا.

اتفقتُ مع والدي على أن أمُرّ بقصره ونخرج من هناك سويًا. كان ذلك اقتراحي بدل أن يأتي هو إلى بيت أمي ويحدث ما لا تُحمد عقباه.

استقبلتني خادمة بشت في وجهي وكادت أن تأخذني في أحضانها لولا أني ابتعدت في الوقت المناسب. تعرفتُ عليها عندما دققتُ النظر، كبرت في السن عما أتذكرها واكتسبَت الكثير من الوزن مقارنة بما كانت عليه عندما كانت ترعاني وأنا صغير. قادتني إلى مكتب والدي وطرقَت الباب تستأذن بالدخول. بينما ننتظر خارج الباب تناهى إلى سمعي ما بدا لي جدالًا محتدًا بين رجلين. مرت بضع ثوان قبل أن يرد والدي ويسمح لي بالدخول. وجدته مستندًا إلى مكتبه يحدث شخصًا آخر لم أتعرف عليه إلا بعد أن قدمه والدي على أنه عمي بنيامين. كنت أعرف أن لدي عمّين وعمات، ولكني لم ألتق بأحد منهم منذ أن كنت مقيمًا في

القصر، وحتى حينها كنت أقابلهم نادرًا.

مددتُ يدي لأصافح والدي فأخذها بحماس، أما عمي فسلم عليّ بفتور وهو ينظر نحوي شـزرًا وكأنه مجبر على أن يعاملني باحترام. لم ألق له بالًا وسـألت والدي إن كان جاهزًا للخروج، فأومأ برأسه وطلب مني أن أسبقه فأركب سيارته البنتلي في مقعد السائق. اتسعت ابتسامتي بعفوية وأنا أرقب عمي المستاء.

أدرت ظهري وهممت بالخروج وإذ بعمي لا يتمالك نفسه ويصيح بوالدي قبل حتى أن أخرج من المكتب «لن أسمح لك لا أنا ولا إخوتي بالانفراد بإدارة المصنع وإقحام ولدك هذا في عملنـا. تراجـعْ عما عزمـت عليه ولا تذهب إلى المحامي اليوم. انتظر حتى نجتمع كعائلة ونتخذ قرارًا جماعيًا».

تباطأتُ وأنا أسمع والدي يرد بعصبية «هذا ليس من شأنك. سأقوم بما يخوّله لي منصبي وحصتي في المصنع، ولست بحاجة لسماع أي من آرائكم، فلتحتفظوا بها لأنفسكم».

خرجـت وعمـي يعقب «إذًا فلا تلومن إلا نفسـك» ولم أكد أغلق الباب حتى اندفع منه عمي واصطدم بي فأوقعني وهو يتمتم ويتوعد.

32

وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب...

نهضتُ وعقلي يراودني أن أدخل على أبي فأستفهم منه. فضلتُ أن أنصاع إلى أمره وأنتظره في السيارة، لكني قررتُ أن أفاتحه في الأمر إن لم يتطوع هو فيخبرني عن سبب حنق عمي وعن علاقتي أنا بالأمر برمته. أردتُ أن أؤكد له أني غير مهتم بإرثه ولا بمصنع جدي وأني أفضل أن يكون لي مساري الخاص في الحياة.

توجهتُ إلى الباب الخلفي وقد تذكرتُ أن والدي سبق وأخبرني مرارًا أنه يركن أثيرته البنتلي في مرآب مستقل في الجهة الخلفية من القصر. استغربتُ عندما وجدت الباب مغلقًا. بحثتُ عن البواب في الجوار فلم أجده، وازداد الأمر غرابة عندما لم أعثر على أيٍّ من الخدم في أي مكان.

قررتُ أن أخرج من الباب الأمامي وأدور حول القصر لأصل إلى المرآب الخاص. توجهت إلى الردهة الأمامية واجتزتُ البهو وكل هذا وأنا لا ألمح أحدًا ولا أسمع سوى صدى خطواتي على البلاط. اقتربتُ من الباب الخشبي الذي يرتفع ثلاثة أمتار واستغربت أن أجده موصدًا. أمسكتُ بالمقبض ودفعت الباب

برفق فانفتح وهممتُ بالخروج، وإذا بقبضة تسحبني من عنقي إلى الخارج وتثبتني ووجهي إلى الجدار، وقبل أن أهمّ لأعترض أو أنطق بكلمة شعرت بيد تتحسس جسدي وتنتزع الهاتف من جيب سروالي الخلفي وبحركة سريعة شعرت بذراعيّ وهما يلتويان خلف ظهري قبل أن يدفعني أحدهم بقوة إلى الداخل ويوصد الباب.

لم أستطع أن أستوعب ما حدث وبمجرد أن أفقتُ من الصدمة استجمعتُ شجاعتي وعاودتُ الكرّة فدفعتُ الباب بقوة وأنا أصيح بصوت كان يفترض أن يكون عاليًا «أنا ...شلومو... ابن... موشيه... سيد ...القصر» خرجت كلماتي مهتزة متقطعة بنبرة يرثى لها فغضبتُ من نفسي.

«نحن نعرف من أنت، ابق في الداخل. هذه هي التعليمات» أجابني صوت أجش قبل أن يصفق الباب بقوة.

ابتعدتُ عن الباب وحركتُ الستائر لأنظر من أقرب نافذة. في الخارج رأيت مجموعة من الرجال الملثمين ضخام البنية في بزات سوداء يحيطون بالمدخل. لم أستطع أن أتخيل سبب وجودهم في الخارج ولا سرّ إصرارهم على احتجازي في الداخل. تضاعفت حيرتي عندما تناهى إلى سمعي حديثهم فيما بينهم. لم يكونوا يتحدثون العبرية.

خطرت ببالي عشرات التحليلات وأنا أسمع كلماتهم العربية. أمطرني عقلي بسيل من الأسئلة. هل أنا على وشك أن أشهد عملية إرهابية؟ هل أصبحتُ وأبي رهينتين؟ ماذا

فعلوا بالخدم؟ هل قتلوهم بدم بارد؟ ما هي مطالبهم ولماذا اختارونا نحن بالذات؟ هل للأمر علاقة بمنصب والدي وتوجهه السياسي؟ ماذا سيفعلون بنا؟ هل سيأخذوننا أسرى ثم يساومون على إطلاق سراحنا؟ كيف وصلوا أصلًا إلى تل أبيب واستطاعوا بهذه السهولة أن يسيطروا على قصر في أهم منطقة فيها؟ هل هم على علاقة بحماس؟ كيف ينوون أن ينسحبوا بعد أن ينتهوا من عمليتهم أيًا كانت أهدافها؟

تذكرتُ والدي فأسرعتُ نحو مكتبه أطمئن عليه وأحذره وأطلب منه أن يتصل بالشرطة قبل فوات الأوان. فتحتُ الباب من دون استئذان وأنا أصيح «أبي، خذ حذرك، القصر محاصر ونحن محتجزان هنا». تبددت صيحاتي هباءً عندما وجدتُ الغرفة خاوية. «هل خرج والدي ورأى ما رأيتُ عندما كنت منشغلًا في الجهة الخلفية من القصر؟ هل قبضوا عليه؟ هل هو بخير؟» تصببتُ عرقًا وعقلي لا يوحي لي إلا بالأفكار المقلقة التي لا تبشر بخير.

تجولتُ بين الغرف أفتحها واحدة تلو الأخرى وأنا أنادي والدي بأعلى صوتي، ولكن دون جدوى. صعدتُ إلى غرفة علوية وتوجهتُ إلى شرفتها لأراقب ما يحدث في الخارج وأبحث عن والدي بين الجمع في الأسفل.

ما كدتُ أُخرج رأسي وأخطو بقدمي إلى الشرفة حتى سمعتُ عيارًا ناريًا يصم الآذان، وإذا بعينين غاضبتين في وجه مقنع في الأسفل تشيران إليّ بالدخول وبندقية صغيرة موجهة نحوي في إيحاءة محذرة.

أدركتُ أنى أصبحتُ حبيس القصر وأن والدي لابد وقد وقع بين أيديهم. اقتادتني قدماي إلى مكتب والدي فجلست خلف مكتبه. خطر ببالي أن أتصل بالشرطة من الهاتف الأرضي، ولكن حدسي كان في محله عندما وجدت الخط مقطوعًا. أيقنتُ أنهم في الخارج محترفون وأنهم يعرفون تمامًا ماذا يفعلون. تعاظم قلقي على والدي وكدت أفقد أعصابي. لم أهدأ حتى تناولتُ ورقًا من طابعة قريبة وأخذتُ أخطُ هذه الكلمات.

33

وجدتُ السرايا موحشة جدًا عندما دخلتها مع هشام بعد إطلاق سراحنا. مجرد أن أتذكر أن جثةً دفنت تحت شجرة البرتقال التي أحبها حتى ينقبض صدري وأشعر بالغثيان. لم يبق بالطبع أثر للجثة، ولكن الشجرة ومحيطها كانا لا يزالان محاطان بشريط لاصق خاص بالشرطة ومحققي مسرح الجريمة وقد أخبرنا المحامي أنه حصل بصعوبة على تصريح لنا بدخول السرايا في هذا الوقت المبكر من التحقيق.

لا أدري إن كانت ستطاوعني نفسي بأن أجلس مجددًا في ظل برتقالة جدتي بعد أن ينتهي كل هذا. لا أستطيع أن أنكر أو حتى أخفي ما أشعر به من غبطة وقد تبين بأن الجثة ليست لشلومو وإنما لأبيه، والآن لا أملك إلا أن أتمنى صادقة أن يصلني ما يؤكد لي أنه بخير.

القلق يساورني حول مصير أبي. أنا أعلم أنه بريء من كل شبهة، ولكني لا أثق بنزاهتهم هنا، فتلفيق التهم ليس غريبًا عنهم وإن كنت أميل للاعتقاد بأنهم يفضلون أن تكون الحادثة بعيدة عن أي عمل يتورط فيه فلسطينيون، لأن ذلك سيضر بسمعة استخباراتهم التي لطالما قرأتُ أنهم يفاخرون بها ويروجون

لكونها الأخطر والأمهر في العالم. فأن يُقتل سياسي شهير في تل أبيب على يد فلسطيني سيعد انتكاسة خطيرة.

أدهشني هشام بنظريته حول سبب الجريمة. هو يعتقد أن المجرمين تلقوا إشعارًا من شلومو يخبرهم بالموقع المحتمل للكنز المدفون في السرايا، والذي توصل إلى مكانه بعد سنوات من البحث والتنقيب الحثيث، وهو ما يفسر وفقًا لنظريته زيارات شلومو المتكررة للسرايا، وأنهم عندما عثروا أخيرًا على الكنز اختلفوا فيما بينهم فقُتل أبو شلومو واقتيد ابنه إلى جهة مجهولة وربما ألقي في البحر، وأن باقي أفراد العصابة يحتفلون الآن بما حازوه من عملات ذهبية ومجوهرات نفيسة. لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك رغم الظرف الذي نمر فيه وأنا أرى هشام يتحسر على ضياع كنزه المزعوم وقد علت وجهه نظرة غيظ جدية. قلتُ له مازحة يومها وقد تمثلتُ الجدية في صوتي وقسمات وجهي أن ما أدراك أنهم وجدوا الكنز كاملًا، علهم وجدوا النزر اليسير بينما ظل الجزء الأكبر مختفيًا بانتظارك لتكشف عنه. تهللت أساريره وقد أعجبته الفكرة فهب واقفًا وانطلق بحماس واختفى عن ناظري دون حتى أن يشكرني على أفكاري النيرة.

انقضت ليلتان لم نسمع فيهما عن والدي سوى ما أخبرنا به المحامي بأن التحقيق لا يزال جاريًا وأنه لم تظهر أي دلائل جديدة في القضية. أكد لنا مجددًا أنها مسألة وقت فقط قبل أن يفرجوا عنه لانعدام الأدلة.

تواصلت معي موظفة من السفارة الكندية وأخبرتني أن موعد السفر في صباح اليوم التالي. كم تمنيتُ لو كان باستطاعتي الرفض أو تأخير الرحلة ولو أسبوعًا آخر ريثما يخرج والدي، ولكنها كانت تعليمات أمي وأظنها رغبة أبي أيضًا. حتى هشام لم يعجبه الأمر وكان أكثر مني استياءً، ربما لأنه يعلم أنه مضطر للعودة للمدرسة بمجرد أن يصل إلى كندا، أو لعله يأمل حقًا في العثور على الكنز كما أوحيتُ له. عليّ أن أحزم أمري أنا أيضًا بخصوص الجامعة. لا زلتُ أتمنى أن أعيش في فلسطين وأن أدرس هنا، ولكني مدركة أن الأمر ربما أصبح أكثر تعقيدًا الآن مع معارضة أمي وظروف الجريمة هذه التي لم تكن بالحسبان. سأرجئ التفكير في الموضوع إلى أن يُفرج عن والدي ويلحق بنا.

في تلك الليلة التي تسبق يوم السفر جافاني النوم وحدثتني نفسي بفكرة أعجبتني. قررت ليلتها أن أدون ما مر بنا من أحداث منذ وطأت أقدامنا أرض فلسطين لأوثق رحلتنا هذه التي تختلف عن أي رحلة تقليدية قمنا بها من قبل. بدأت أنقر على لوحة المفاتيح في حاسوبي المحمول وأنا أتوقع أن أملأ بضع صفحات. انبلج الفجر وأنا لا أزال أكتب. نظرتُ إلى عدد الصفحات فوجدتها تجاوزت الستين رغم أني اخترت أصغر خط ممكن. تفاجأتُ وأنا أسأل نفسي من أين جئت بكل هذه الثرثرة والحشو وأنا قليلة الكلام.

نظرتُ إلى الساعة فوجدتها تقترب من السادسة صباحًا.

قررتُ التوقف عن الكتابة ومحاولة النوم لأستيقظ في العاشرة وأستعد للسفر.

لم أكد أتدثر في فراشي وأغمض عينيّ وتمر لحظات حتى تناهى إلى سمعي رنين جرس الباب. نهضت فزعة وقد انقبض صدري، فآخر مرة حدث فيها ذلك لم يكن الأمر خيرًا البتة.

نزلتُ على عجل وهرولتُ إلى الخارج وأنا لا أدري أي مصيبة جديدة تنتظرنا. فتحتُ الباب لأجد شلومو في الخارج وقد تغيرت هيئته عما أحفظ في ذاكرتي. لم يعد شديد النحول ولا مطأطئ الرأس وقد لفت نظري تحسن هندامه. جذبني بقوة من يدي دون أن يؤذيني وابتسامة غريبة ترتسم على وجهه. فتح باب سيارة فارهة مكشوفة تختلف عن تلك التي يركبها عادة وأدخلني وقد ذهلتني المفاجأة فلم أقاوم ولا حتى أسأل إلى أين يأخذني. ركب في مقعد السائق وانطلق بنا في أقصى سرعة. تذكرتُ أني تركت هشامًا بمفرده واستغربتُ عندما لم أبال ولم أطلب من شلومو أن نعود أدراجنا لاصطحابه. ما زاد الأمر سوءً أن شعري تطاير بفعل الريح فجزعتُ وقد تذكرت أني عندما خرجتُ على عجل نسيت أن أضع غطاء رأسي. لمح شلومو اضطرابي فابتسم وقال بغرابة: «لا تقلقي سأغض بصري وقد أصبحتُ مثلك أشهد الشهادتين».

34

رغم انعدام الأدلة لا أزال محتجزًا والتحقيق لا يتوقف. بذل المحامي جهدًا كبيرًا في إطلاق سراح لانا وهشام. ربما كان من السهل إطلاق سراح هشام بمفرده نظرًا لصغر سنه أما لانا وقد بلغت الثامنة عشرة فلم يكن من الهيّن أن يتركوها ويسمحوا لها بالسفر لولا تدخل السفارة الكندية بكل ثقلها بعد أن تبين أن القتل تم خنقًا وهو ما لا تستطيع لانا أن تقوم به بأي حال من الأحوال.

انصبّت أغلب أسئلة المحققين على زيارتي الأخيرة لغزة، ورغم نفيي المتواصل لأي علاقة لي بأي من الحركات والمنظمات الفلسطينية وتأكيدي بأن زيارتي كانت تطوعية ولأسباب إنسانية بحكم تخصصي الطبي، إلا أن ذلك لم يمنعهم من إعادة استجوابي مرارًا وتكرارًا بهدف إيجاد ثغرة ما في سردي للوقائع منذ أن غادرت باتجاه مصر وإلى أن عدت منها.

تعقّد الأمر قليلًا عندما سألوني عن علاقتي أنا وعائلتي بشلومو، ولأني أعرف أني لم أقم بأي عمل خاطئ يجرّمني فقد قررت ألا أخفي شيئًا، وليتني فعلت فقد ندمتُ على تعجّلي وعدم استشارتي لمحاميّ الذي ثارت حفيظته واستاء كثيرًا عندما

تطوعتُ بإخبار المحققين عن زيارتنا للقدس بصحبة شلومو للبحث عن هشام. جرّ ذلك عليّ سيلًا من الأسئلة التي لا تنتهي. ما علاقتكم بالشغب الذي حصل في القدس؟ هل أنتم من الممولين لمثيري الشغب في ذلك الشارع؟ هل تنفذون تعليمات حماس؟ هل نقلتَ إلى غزة تفاصيل ما حدث في القدس؟ ما علاقتك بسقوط الصواريخ على إسرائيل؟ هل أرسلت إحداثيات المواقع الحساسة لتصيبها الصواريخ؟ هل أخذت شلومو رهينة عندما ذهبتم إلى القدس؟ ماذا فعلتم به عند عودتكم؟ هل استخدمت أولادك لتبادل الرسائل مع المعتصمين في المسجد؟ وعشرات الأسئلة غيرها. تمنيتُ لو أتراجع عن ذكر قصة القدس تلك، فبسببها وبالرغم من إطلاق سراح لانا وهشام فإن المدعي العام وقبل موعد سفرهما بسويعات أصدر قرارًا بمنع السفر ريثما ينتهي التحقيق، وهكذا وبسبب قصر نظري وسوء تقديري علقنا جميعًا هنا. أسوء ما في الأمر أن يبادر المحامي فيخبر سارة أن رحلة ولدينا إلى كندا قد ألغيت بسبب الانتكاسة التي تسببتُ بها أثناء التحقيق. لن أفلت من لسانها وتأنيبها، وإنني لأكاد أسمعها تزعق في أذني بصوت حاد، ولو استطاعت لخرجت من سماعة الهاتف لتوبخني على تسببي في ضياع السنة الدراسية وتعريض ولدينا للخطر.

ما زاد الطين بلة كان اختفاء شلومو في صباح اليوم التالي لعودتنا من القدس دون أن يخبر أمه بوجهته، وشهادتها بأنها كانت عادة ما تجده في منزلنا، وهكذا تحول سير التحقيق للتركيز

على شلومو وعلاقته الملتبسة بنا، وقد توصل المحققون إلى قناعة بأن حل قضية موشيه السياسي المقتول تبدأ بالعثور على ولده شلومو، والذي تبين أنه تلقى اتصالًا من هاتف والده في يوم اختفائه قبل أن يتم إغلاق الهاتفين، هاتف الابن وهاتف الأب لاحقًا ذلك اليوم.

لم تتوقف ملابسات القضية عن السير في غير صالحنا، فقد فوجئت عندما باغتنا المحقق بإخبارنا بأن أبيجيل أم شلومو تتهمنا أيضًا بتوريط ولدها في مشاجرة مع متدينين، والذين قدموا شكوى في حق شلومو يزعمون فيها أنه اعتدى عليهم بتحريض من العرب. لم يكن لديّ ما أعلّق به على الحادثة سوى أن أبتسم وأنا أتخيل شلومو ذلك الفتى المسالم قليل الكلام غريب الأطوار يعتدي على أحدهم لدرجة أن يقدم فيه بلاغًا.

استأتُ عندما شعرت أن المحامي ما عاد متفائلًا كما كان من قبل، بعد أن تبين أن شلومو لم يكن يتواصل مع أحد سوانا نحن وأمه وأباه. أدركتُ أنني لن أفلت من هذه القضية ولن تمر بسلام قبل أن يظهر شلومو ويبرئ ساحتنا. هذا إن كان بخير ولم يُقتل كوالده. حاولتُ جاهدًا أن أجد سببًا لدفن موشيه ذاك في باحة منزلنا إلا أن يكون الغرض توريطنا بسبب أصولنا العربية وعلاقتنا الغريبة بولده شلومو، أو بالأحرى علاقته هو بنا وبمنزلنا.

حدث ما كنت أخشاه عندما نقل المحامي رسالة شفهية من زوجتي بعد أن رفضت الشرطة لحسن الحظ السماح لها بمهاتفتي. أخبرني أنها مستاءة جدًا وتحملني المسؤولية. لم

يعجبني أن تنقل مشاعرها إليّ عبر المحامي. لم أطلب منه أن يوصل لها ردًا سوى تفهمي لقرارها بالعودة إلى تل أبيب لتبقى بصحبة لانا وهشام حتى يتم رفع حظر السفر عنهما. تقبلتُ الأمر وأيقنتُ أنه تصرف حكيم، فبقاء ولدينا بمفردهما في هذه الظروف لا يخلو من مخاطرة، خاصة بعد أن أبلغني المحامي أن القضية وصلت إلى الصحافة وقد ألمحت إلى تورط عائلة عربية كندية مقيمة في يافا.

ظروف الاحتجاز لم تكن سيئة، ولكنها لم تكن جيدة كذلك. أخبرني أحد المحتجزين معي وكان يحمل الجنسية الألمانية لكنه مثلي فلسطيني الأصول أن طريقة المعاملة كانت لتكون أسوء بكثير لو كنتُ فلسطينيًا ولا أحمل جنسية بلد غربي. لم آخذ وأعط معه كثيرًا عندما وجدته كثير الأسئلة، وخشيت أن يكون مدسوسًا من قبل المحققين ليوقعني في فخ ما يزيد من موقفي سوءً.

35

طنين في أذني أرّقني. لا يكاد يتوقف حتى يعود مجددًا أشد إلحاحًا. طوحت بيدي يمنة ويسرة لأسكته. لم يتوقف حتى بعد سماعي لصوت ارتطامه بالأرض. فتحتُ عينًا واحدة مرغمة وأنا أشتم في سري ذلك الذي يصر على إزعاجي وإقلاق نومي. مددت يدي تحت السرير وتناولت الهاتف وحمدت الله على نجاة شاشته من أثر السقطة. نظرتُ إلى اسم المتصل فطار النوم من عيني على الفور واعتدلت جالسة وأنا أرد على المحامي.

«طاب صباحك آنسة لانا. أعتذر على الاتصال في هذا الوقت المبكر، ولكن ما أحمله من خبر لا يحتمل التأجيل، وأنا أعلم أنك وأخاك تستعدان للذهاب إلى المطار لاحقًا اليوم للعودة إلى تورونتو» قال المحامي باللغة الإنجليزية بنبرة سريعة لا تخلو من انزعاج.

«طاب صباحك سيد إيلي. ما الأمر؟ لقد أثرت قلقي. هل أصاب والدي مكروه وهو محتجز؟ هل من تطورات سلبية في قضيته؟ من فضلك لا تخفي عني شيئًا، فلن أقدم على السفر إن كان والدي في خطر».

«لا. لا داعي للقلق. والدك بخير ولم يطرأ ما يسيء إلى

موقفه. كل ما في الأمر أنك وأخاك لن تستطيعا السفر مؤقتًا ريثما ينتهي التحقيق في القضية، لكن كوني على يقين بأن السفارة الكندية لن تكف عن الضغط للسماح لكما بالسفر في أقرب وقت ممكن. ربما تتأخران أيام قليلة فقط» تنفستُ الصعداء وأنا أنصت إليه وهو لا يدري أن خبره صادف هوىً في نفسي، فأنا لم أرغب في السفر وما كنت لأقدم عليه لولا إلحاح أمي. «هكذا أفضل بكثير. لعلنا ننتظر قليلًا فيطلق سراح والدي ونسافر جميعًا». فكرت في سري قبل أن أشكر المحامي وأطلب منه أن يسعى لاستخراج تصريح لأزور والدي في محتجزه. وعدني خيرًا وأنهى المكالمة وكنت على وشك أن أسأله عن أمر ما لكنني ترددت.

لا أدري لماذا استبشرتُ خيرًا بهذا الخبر. ربما لأني أشعر أن قصتي في يافا لم تنته بعد ولا أريد لها أن تُبتر هكذا فجأة. كنت لا أزال لم أنهض من سريري عندما داهمت ذاكرتي على حين غرة الأحداث العجيبة التي ظننتها واقعية وحقيقية. أدركتُ أن لقائي الغريب بشلومو وإعلانه إسلامه لم يكن سوى أضغاث أحلام، ولولا أني أجدني في غرفة نومي ولا أستطيع أن أتذكر ماذا حدث بعد أن ركبت سيارة شلومو لأجزمت أن ما رأيته لم يكن وهمًا من اختراعات عقلي.

لم يمنعني ذلك من تأمل الأمر، بل وبالشعور بشيء من الحرج وأنا أواجه عقلي الباطن الذي تجرأ وأخرج إلى العلن في حلم واضح المعالم ما تتمناه نفسي ولا تقوى على البوح

به. نعم، لا أنكر أنه خطر على بالي غير مرة أن شلومو لا يشبه الآخرين وأنه وبالرغم من أن شخصيته الانطوائية تجعله غريبًا في مجتمعه فإن أفكاره المتزنة ونظرته للأمور تتسق مع رؤيتي وطريقتي في التحليل. لا أدري لماذا لطالما شعرتُ بأن شلومو أقرب إلينا من قربه لأبناء قومه وأصحاب ملته، وربما رأيته في الحلم يعتنق ديني لأن ذلك يسعدني، وقد جُبلنا نحن البشر على تفضيل التعامل مع من يشبهنا. أعترف أيضًا أنني ربما أريد بذلك أن أرفع عن نفسي الحرج وأصرف الضيق الذي يصيبني كلما تذكرتُ بأن شلومو إسرائيلي وأنا فلسطينية. بكل الأحوال، فأنا لا أستطيع أن أنكر أني قلقة على مصيره ويهمني أمره وأرجو أن أطمئن عليه في أقرب وقت، وأتمنى أن يكون حلمي الليلة الماضية رؤيا حق مبشرة بأنه بخير ولم يصبه سوء.

دفعني فضولي للبحث عن تعبير للرؤيا التي رأيتها فتناولتُ هاتفي وأدخلتُ في محرك البحث: تأويل ابن سيرين لرؤية غير المسلم يدخل الإسلام في المنام. وفي غضون ثوانٍ معدودة وجدت الإجابة:

«بالنسبة لرؤية غير المسلم يدخل الإسلام في المنام أو أنه يصلي صلاة المسلمين مستقبلاً القبلة فإن رؤيته تشير الى الهداية واعتناق الاسلام واتباعه في الواقع إن كان هذا الشخص يعيش في بلد مسلم أثناء الرؤية، أما إن كان يعيش في بلد غير مسلم أثناء الرؤية فإن رؤيته تشير الى انقضاء عمره ووفاته وانتقاله للدار الآخرة في الأيام القادمة».

شعرتُ برعدة سرت في جسدي وببرودة تسللت إلى أطرافي وأنا أقرأ بفزع العبارة الأخيرة.

تبددت أفكاري على وقع طرقٍ على باب غرفتي وصوت هشام يصدح من ورائه يستحثني على النهوض من نومي استعدادًا للسفر. أقفلتُ هاتفي بتوتر وقمت فبللتُ وجهي على عجالة وخرجت إليه أزف له الخبر، فصدق حدسي عندما رأيتُ في وجهه أمارات الحبور وهو يعلن في سعادة أنه سيستأنف التنقيب عن الكنز.

هاتفتُ أمي وأخبرتها النبأ فثارت ثورتها وصبت جام غضبها على المدعي العام ودولته والسفارة والمحامي، وحتى والدي ناله نصيب من سورتها وقد خمنَت أنه أسهب في الحديث عن زيارته إلى غزة. أمّنتُ على كلامها خشية أن تفطن إلى مدى سروري بتأخير السفر فيصيبني جانب من غضبتها.

قررتُ بعدها أن أتصل بالمحامي وأسأله صراحة عن أي جديد بخصوص مصير شلومو. لم يفدني اتصالي سوى بتذكيري بالمقولة التي كان يرددها معلم الدراسات الاجتماعية في المدرسة « No news. Good news. لا أخبار، إذًا فالأخبار جيدة».

36

لا أدري متى ستتاح لي الفرصة لأوثق الأحداث التي مرت بي ذلك اليوم وما تلاه. سأتخيل أني أخاطبك بعقلي يا شجرتي العزيزة وأنا لا أجزم ان كنت سأراك مجددًا أو ستتاح لي فرصة أن أستظل بظلك.

تذكرين أنني أخبرتك بما حدث في صباح ذلك اليوم المشؤوم وكيف تم احتجازي في القصر وحيدًا بعد أن اختفى والدي وجميع الخدم. قضيتُ يومها بعض الوقت في غرفة المكتب أدوّن ما مر بي في الأيام السابقة. لم أكد أنتهي من الكتابة حتى تناهى إلى سمعي من خارج الغرفة وقع خطوات كثيرة مسرعة على الأرضية الخشبية وكأن كتيبة عسكرية قد اقتحمت القصر. هممتُ نحو الباب لأحكم إغلاقه عله يصرف من بالخارج أو يمنعهم من الوصول إلي. فُتح الباب عنوة قبل أن أصل إليه واندفعت ثلة من الملثمين أحاطوا بي، وقبل أن تخطر ببالي أي ردة فعل وجدتُهم يعصبون عينيّ ويقيّدون يديّ خلف ظهري ثم يدفعونني خارج الغرفة ويقتادني أحدهم وأنا مستسلم لا أنبس ببنت شفه وقد تجمد عقلي وأنا لا أدري من هؤلاء ولا ما يريدون.

أحسست بهم يجروني خارج القصر ثم يدفعونني بعنف إلى داخل مركبة مرتفعة، وما أن استجمعت شجاعتي لأسألهم عن هويتهم وهدفهم من اختطافي حتى انطلقت السيارة بأقصى سرعة مصدرةً صريرًا حادًا من احتكاك إطاراتها بالأسفلت.

لم يجيبوا على أسئلتي واكتفى أحدهم بأن أمرني بالعبرية بأن أصمت وأن أكون هادئًا كي لا يضطروا إلى إيذائي. أذعنتُ لهم وقد تيقنتُ ألا فائدة ترجى من المقاومة.

طوال الطريق لم يتوقفوا عن الحديث بينهم بالعربية وخمنتُ أنهم لا يعرفون أني أجيدها. أنصتُ إلى حوارهم علني أتوصل إلى فهم ما يجري أو تخمين مصيري ومصير والدي.

«اتصل بالمعلم وأخبره أن العملية تمت بنجاح وأن الطلبية أصبحت في حوزتنا» صدر الصوت من الشخص الذي يجلس إلى جانبي.

«فعلتُ ذلك قبل أن نتحرك من أمام القصر» رد عليه أحدهم في المقعد الأمامي.

«هل سنأخذه إلى نفس المكان حيث أخذنا الرجل الآخر قبل قليل؟» ربما يقصد والدي. خمنتُ في سري.

«لا، الموقع الذي يظهر في الرسالة مختلف» رد شخص آخر صوته رخيم.

«وهل سيبقى رجالنا يحيطون بالقصر؟» سأل نفس الشخص الذي يجلس إلى جانبي.

«أنت كثير الأسئلة. لا. لقد انتهت مهمتنا. سيعود الخدم

بعد قليل إلى القصر وهو يظنون أن فريق التعقيم قد انتهى من مهمته الروتينية. لن يشتبهوا في شيء» أعلن صاحب الصوت العميق قبل أن يصدح صوت مغنية عربية أخذوا يرددون الكلمات وراءها.

مر وقت طويل غفيت فيه عيني قبل أن أشعر بالمركبة تتوقف ويسحبني أحدهم خارجها. شعرت بالحصى يتململ وينهرس تحت حذائي قبل أن يتناهى إلى سمعي صوت مفاصل باب تصر ثم يدفعني أحدهم لألج إلى مكان ما أنت ألواح أرضيته الخشبية تحت أقدمانا. ضغط أحدهم على كتفيّ وأنزلني لأجلس على ما خمنت أنه كرسي خشبي بسيط.

«اسمع. لا نريد إيذاءك ولن نعتدي عليك ما دمت تنفذ أوامرنا بحذافيرها» قال كبيرهم صاحب الصوت العميق.

«هل لك أن تخبرني بما تريدونه مني؟»

«الأمر بسيط. سنصورك بالفيديو وأنت توجه رسالتين. الأولى لوالدك تقول فيها باقتضاب «أبي، استجب لمطالبهم دون تأخير وإلا أصابني مكروه» وفي الثانية تتوجه إلى الحكومة فتقول «أنا شلومو موشيه وايزمان. أعلمكم أنه تم اختطافي واحتجازي من قبل مقاتلي كتائب القسام وقد اقتادوني إلى مكان مجهول في غزة. أنقذوني قبل فوات الأوان بالاستجابة إلى جميع مطالبهم».

ذهلتُ وأنا أنصت إلى كلامه. هل يعقل حقًا أني أصبحت في غزة بهذه البساطة؟ كيف استطاعوا العبور إلى غزة والتسلل بعيدًا عن أعين الجيش؟ هل هؤلاء حقًا من الكوادر المسلحة

لحماس؟ هل اختاروني لأكون وسيلة ضغط على أبي وحكومته؟ هل سأبقى محتجزًا لديهم سنوات طويلة كما حدث مع شاليط؟ وهل سيحسنون معاملتي عندما يعرفون أني متعاطف مع قضيتهم؟

أومأت برأسي موافقًا «سأقول أي شيء تريدونه، ولكن لا تسيئوا إلى والدي، وأتمنى عليكم أن تصلحوا من هندامي في التسجيل لأبدو في هيئة حسنة حتى إذا ما وصلت صورتي إلى أمي لا يشتعل قلبها قلقًا علي».

37

حصل في الأيام السابقة ما لم يخطر لي ببال. زُلزلت المنطقة كلها واشتعلت كبرميل وقود. تجدد القصف العنيف على غزة فردت بوابل من الصواريخ محلية الصنع. لم تتوقف المحطات الإخبارية ووكالات الأنباء عن عرض التسجيل المصور وتحليله وترجمته إلى مختلف اللغات. أجمع المختصون في شأن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بأن الحدث غير مسبوق وينبئ بمرحلة جديدة شديدة الخطورة. العجيب في الأمر أن حماس وبالرغم من مرور عدة أيام على انتشار التسجيل ما زالت لم تؤكد علاقتها بالأمر ولم تنفها، ولم تقدم أي طلبات للطرف الإسرائيلي أو للوسطاء المصريين رغم استئناف الأعمال العسكرية وتأكيدها على عزمها الرد على العدوان بكل ما أوتيت من قوة ومن إمكانات.

كان هشام هو أول من نبهني إلى أن شلومو ظهر على التلفاز. في البداية لم أصدقه وظننت أنه اختلط عليه الأمر عندما شاهد شخصًا يشبهه. أخذته على محمل الجد عندما عاد فأخبرني أن شلومو صرح باسمه الكامل على التلفاز «شلومو موشيه وايزمان» وأنه مختطف في غزة. أسرعتُ حينها فقلبت بين المحطات حتى وجدت قناة الجزيرة. جلستُ أمام التلفاز بكل انتباه وأنا أنصت

لكلمات شلومو المتقطعة بصوته المتهدج. شعرت بنخزة في قلبي وتألمت لحاله. لم أملك إلا أن أتساءل في سري بصوت لم أعرف أنه مسموع «ألم تجد حماس من بين أعدائها هدفًا أفضل من شلومو المسكين؟ ألا تدرك أن اختيارها لشخص مسالم لا يضمر شرًا للفلسطينيين يضر بقضيتها ويفقدها التعاطف؟» رفع هشام حاجبيه باستغراب عندما دمعت عيني وأنا أسمع شلومو يوجه رسالة إلى أمه يطمئنها بأنه بخير وأنهم لم يتعرضوا له بسوء قبل أن ينقطع التسجيل فجأة.

لم أفهم لماذا تأخر بث هذا التسجيل كل ذلك الوقت وشلومو مختف منذ فترة. لماذا لم ينشر قبل الآن؟ وهل لذلك علاقة بمقتل والده؟ لم يذكر التسجيل شيئًا عن اغتيال الأب ولا عن شروط الخاطفين لإطلاق سراح الابن.

علمتُ من المحامي لاحقًا أن هذه التطورات عقدّت من موقف أبي بشكل كبير، إذ كان الخيط الوحيد الذي تملكه السلطات في ذلك الوقت، ومع هجوم الصحافة الإسرائيلية الشرس ونقدها اللاذع لأداء الشرطة والجيش، وإشادتها بنجاح حماس في تنفيذ عملية نوعية في قلب إسرائيل ثم إخفاق السلطات في القبض على الخاطفين قبل أن يصلوا إلى غزة سالمين مع رهينتهم، فإن ذلك كله شكل ضغطًا هائلًا على جهة التحقيق ودفعهم إلى الإعلان مبكرًا بأنهم قبضوا على أحد أفراد المجموعة التي قامت بالعملية، رغم أنهم فشلوا في تقديم ولو دليل واحد يؤكد تورطه.

الأسوء من ذلك كله كان انتشار صور السرايا على القنوات الإسرائيلية وشبكات التواصل الاجتماعي، لنجد بين ليلة وضحاها منزلنا وقد أصبح محط أنظار العالم، فلم تبق قناة إخبارية ولا صحيفة سياسية لم تطرق بابنا لتمطرنا بالأسئلة وتطلب إجراء المقابلات المطولة سعيًا خلف سبق صحفي. التزمتُ وهشام بتعليمات المحامي فلم ندل بأي تصريح، ورفضنا إعطاء أي معلومات من أي نوع كي لا نضر من غير قصد بقضية والدي. اتفقنا على جملة واحدة نرددها «والدنا يوسف الباتع بريء من جميع الاتهامات ونطالب السلطات بإطلاق سراحه فورًا».

ازداد الأمر سوءًا عندما أصبح منزلنا قبلة للمتعصبين الذين لم يتورعوا عن قذف نوافذ البيت بالحجارة وكتابة الشعارات المسيئة للعرب على سور السرايا الخارجي. أصبحنا لا نجرؤ على الخروج من المنزل وتحولنا إلى سجناء داخله، ولولا أن جيراننا الفلسطينيين من سكان يافا هبوا لنجدتنا والتناوب على حراسة السرايا، لأصبحنا في خبر كان مع تقاعس الشرطة عن حمايتنا وغضها الطرف عن الأعمال العدائية للمتطرفين المعادين للعرب.

لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن نصبح هكذا فجأة في مركز الحدث ونحن لم نقم بأي عمل بطولي أو نستحق كل هذه الضجة التي أثيرت حولنا. لم نكن أكثر من عائلة مسالمة جاءت لتقضي إجازة قصيرة في بيت أجدادها بعد عشرات السنين من الغياب. فجأة نجد أنفسنا في عين العاصفة وإذا بجريمة تهز البلد

تُرتكب في فناء منزلنا ويُتهم فيها أبونا زورًا وبهتانًا، فنصبح أنا وأخي من حيث لا ندري أيقونة مقاومة.

في خضم ذلك كله لم أتوقف عن التفكير في مصير شلومو المسكين والتساؤل عن الذنب الذي ارتكبه ليعاني هو الآخر ويتحمل مسؤولية الظلم الذي يوقعه شعبه وحكومته بالفلسطينيين، وهو نفسه لم ينج من تنمرهم وإساءاتهم. ألم يكن حريًا بحماس أن تختطف من يناجز الفلسطينيين العداء جهارًا، وما أكثرهم؟ لم أستطع تقبل فعلتهم ولولا الحياء لجهرتُ بانتقادهم علنًا أمام الجميع.

أمي وكما أظنكم تتوقعون، فقد جن جنونها. لم تترك يومًا يمر دون أن تتصل بالسفارة الكندية تحثهم على الضغط على السلطات الإسرائيلية للسماح لنا بالسفر على جناح السرعة. حاول المحامي جاهدًا تلبية رجائها، ولكن دون جدوى، فالصحافة هنا ما كانت لتغفر قرارًا كهذا طالما لم يتم إقفال القضية.

من جانبي أصبحت أتابع كل ما ينشر عن القضية وقد آلمني أن يستمر احتجاز والدي كل هذا الوقت رغم براءته المؤكدة. مُنعنا من زيارته وحتى من التحدث معه بالهاتف، لكني علمت من مجمل ما قرأت من تفاصيل التحقيق والتي كانت تُسرب بشكل يومي، أن المحققين لم يتمكنوا من ربط مقتل موشيه بوالدي أو بأي أحد آخر. كل ما كان لديهم من معلومات لم يزد على أن موشيه وولده شلومو خرجا في الصباح من القصر ولم يعودا، ولولا أن أبيجيل أم شلومو قدمت بلاغًا باختفائه

وقادتهم بحدسها إلى السرايا، ما كان ليخطر ببالهم أن موشيه مدفون هناك.

الغريب في الأمر أن أفراد عائلة موشيه كانوا مصرّين وعلى يقين ـ دون تقديم أي دليل يدعم ادعاءهم ـ بأنه قُتل على أيدي الإرهابيين بدافع عنصري واستهدافًا لمنصبه السياسي، وأنهم يطالبون بتوقيع أغلظ العقوبات بحق والدي والانتقام من الحكومة الفلسطينية وحركة حماس لتجرئهم على ارتكاب هذه الجريمة البشعة في قلب إسرائيل.

38

كانت الأسابيع القليلة الأخيرة هي الأسوء في حياتي كلها. كنت مستعدة لكل ما ترميه الحياة في وجهي أو يوقعه الرب على رأسي عقابًا أو ابتلاءً. كل شيء إلا أن أصاب في فلذة كبدي. اختفى ولدي الوحيد فما عدت أعرف للنوم سبيلًا، استبشرتُ عندما أخذت الشرطة الأمر بمحمل الجد ووافقت على البحث عن شلومو في منزل العائلة العربية التي اعتاد أن يقضي الوقت معها. خشيت أن مكروهًا قد أصابه من قبلهم، وكنت على ثقة أنهم يعرفون على الأقل مكانه. أنا أعلم أن شلومو يحسن الظن بهم ولا يذكرهم إلا بخير ويثني على حسن معاملتهم، ولكنه فتىً قليل الخبرة ولا يجيد الحكم على البشر أو فهم دوافعهم.

كاد قلبي أن ينخلع من صدري عندما قادنا كلب الشرطة المدرب إلى تلك الشجرة وهو يزمجر وينبح بلا هوادة. لم أشعر بالدنيا إلا وهي تدور بي وتسقطني أرضًا عندما لمحتُ طرف كمّ معطف شلومو يظهر من تحت التراب وفي ثناياه يد بشرية.

جفلتُ عندما فتحتُ عيني ووجدتني في سيارة إسعاف وممرضة تعلق محلولًا يقطر في أنبوب مغروز في يدي. من غير تفكير أو أخذ ورد، نزعت الأنبوب وهرعت خارج السيارة

ألتفت يمنة ويسرة. كنت على بعد خطوات من المنزل المشؤوم. تقدمتُ ففتحتُ البوابة وركضت نحو الشجرة لأتحقق من هوية الجثة التي أُخرجت من تحت الأرض.

شـهقت عندما رأيته. اختلطت أحاسيسي. حزنت وسررت في نفس الوقت، ضحكت وبكيت، وكأن قلبي قد انفلق نصفين. نصـف سـعيد ويحتفـل بـأن الجثة لم تكن لشـلومو ونصف آخر حزيـن لرؤيـة مـن كان في يوم من الأيام قـرة عيني وحب حياتي وقد أصبح جسدًا بلا روح.

كانـوا قـد تعرفـوا عليـه على الفور، فصورتـه لا تكاد تفارق المحطات التلفزيونية، وفي غضون دقائق هاجت الأرض وماجت برجال الشرطة والمحققين. وقتها لم أكن أفكر إلا في أمر واحد. أين شـلومو؟ شـعرت بصدري ينقبض وقد خطر ببالي أن يكون هو الآخر مدفون في مكان ما من فناء ذلك المنزل. توجهتُ إلى من خمنتُ أنه كبير المحققين وسألته إن كانوا قد بذلوا ما يكفي من الجهد للتنقيب في المكان عن أي أثر لشلومو. أكد لي وقد فطن إلى مرادي بأنهم لم يعثروا على أي جثة أخرى.

عـدتُ يومهـا إلـى منزلـي وعقلـي لا يـكاد يهـدأ مـن كثرة التفكير. أين ولدي؟ ماذا حل به؟ من قتل موشيه وأرداه صريعًا؟ ولمـاذا هـو مدفـون في فناء ذلك المنزل تحديـدًا؟ لماذا وجدوه يرتدي معطف شـلومو الذي لا يناسـب مقاسـه أصلًا؟ هل هذا يعني أن شـلومو كان معه عندما قُتل؟ شـحب وجهي وقد خطر ببالي أن يكون شـلومو هو من قتل والده وألبسـه معطفه الخاص

كوسيلة للاعتراف بالجرم. لم أستطع أن أتقبل هذه الفكرة ولا أن أصدقها. علاقة شلومو بوالده أصبحت على ما يرام في السنوات الأخيرة، وحتى لو لم تكن جيدة فمحال أن يقدم شلومو على أمر بهذه البشاعة؟ صرفت تلك الفكرة المرعبة لكني أصبحت على يقين بأن اختفاء شلومو لابد وله علاقة مباشرة بمقتل أبيه. لم يمض وقت طويل حتى عاودتني الهواجس عندما علمت أن مجموعة من الفتية المتدينين قد قدموا بلاغًا يتهمون فيه شلومو بالاعتداء عليهم. شلومو ولدي المسالم متهم بالاعتداء بالضرب المبرح على جيران لنا في الحي متدينين. من يصدق ذلك؟ أثار ذلك الخبر جزعي وجعلني أتساءل فيما إذا كنت أعرف شلومو حق المعرفة أم لا. إن كان ولدي قادرًا على إلحاق الضرر بمتدينين مسالمين فلربما ليس من المستبعد أن يفعل أكثر من ذلك. تراءت صورته أمامي عندما جاءني صغيرًا وقد نبذه أبوه وجده. تخيلت القدر العظيم من القهر الذي لابد وقد أحس به فملأ صدره بالحقد على أبيه لينتظر حتى إذا كبر واشتد عوده تحيّن الفرصة للانتقام. رفضتُ أن أصدق ذلك وأسرعت فقدمت بلاغًا بدوري أتهم به العائلة العربية بتحريض ولدي وربما إرغامه على الاشتباك مع أولئك الفتية.

مرت الأيام ثم فجعتُ بذلك التسجيل المصور الذي ظهر فيه شلومو وهو يحدث العالم بكلماته المتقطعة وأسلوبه الذي يكسر القلب بأنه أصبح أسيرًا ورهينة في أيدي إرهابيي حماس في مكان ما من قطاع غزة.

فـي أعماقـي ارتحـت يومها قليلًا عندمـا أيقنتُ أنه على قيد الحيـاة، ولكـن لـم تلبث أن تراءت لي قصة ذلك الجندي جلعاد شاليط والذي أسرته حماس قبل خمسة عشر عامًا وبقي محتجزًا لديها أكثر من خمس سنوات قبل أن يفرج عنه في صفقة تبادلية مع حكومتنا. لم أكن مستعدة لأعيش يومًا واحدًا وهو بعيد عن ناظري، فما بالك بسنوات طويلة.

لـم أضـع يومًـا واحـدًا منذ أن نشـر التسـجيل. لـم أدع قناة إخبارية لم أظهر فيها وأنا ألتمس المساعدة من الحكومة وأحثها على تلبية جميع مطالب المختطفين وفي نفس الوقت أستعطف حمـاس ليحسـنوا معاملة ولدي ويطلقوا سـراحه فـورًا، وخاصة وأنه لم يسـبق له أن انخرط في صفوف الجيش الإسـرائيلي ولا قام بأي أعمال عدائية في حق العرب، ناهيك عن إصابته بالتوحد وانعزاله عن أغلب البشر. حاولتُ أن ألتقي بعائلة موشيه لأحثهم على الوقوف معي والضغط على حكومتنا لتبذل كل جهد ممكن لإطلاق سـراح شـلومو. يؤسـفني أن أقول أنهم رفضوا استقبالي وطلبوا من الخادم أن يمنعني من دخول القصر وأن يخبرني بأنهم لا يعبؤون بمصير شلومو ولا يهمهم أمره.

مـا أثـار ريبتـي وزاد مـن قلقي وخوفي على مصير ولدي أن حماس وحتى اليوم لم تعترف بأنها أسرته ولم تعلن أي مطالب. خشيت أن يعني ذلك أنه قد قتل وبالتالي فإنهم غير قادرين على المساومة عليه حيًا. وما زاد الطين بلة اندفاع إسرائيل في الهجوم على غزة وتحويل عشرات المباني السكنية إلى أنقاض. كيف لي

بعد ذلك أن آمل بتساهل من الطرف الفلسطيني في قضية ولدي؟

خطر ببالي أن أزور ذلك العربي جوزيف في السجن وأستعطفه ليتدخل فيطلب من جماعته الإفراج عن ولدي مقابل أن تطلق السلطات سراحه. أعلم أنها ربما تكون فكرة ساذجة، ولكن ولدهشتي فقد أعجبت كبير المحققين وقرر أن يعرضها على المدعي العام ووعدني خيرًا، أما أنا ولكي أزيد من فرص تعاون العربي معي، سحبتُ الشكوى التي قدمتها واتهمته فيها هو وعائلته بإرغام ولدي على التورط في مشاجرة مع فتية الكنيس.

39

مضت أيام كثيرة توقفت عن عدها وأنا في محبسي الموحش هـذا. مـا عـدتُ أفرق بين ليل ونهار في هذه الغرفة الصغيرة التي لا نوافذ لها. يُفتح باب الغرفة مرتين في اليوم ليدخل عليّ أحد الملثميـن بطعـام وشـراب دون أن ينطـق بكلمة واحدة أو يجيب عـن أي مـن تسـاؤلاتي. للغرفـة دورة ميـاه ملحقة بهـا. ليس لها نوافذ هي الأخرى.

حدثتني نفسـي وقد فكـوا وثاقي منذ يومي الأول أن أصنع من قطع الأثاث آلة حادة أطعن بها سجاني عندما يأتيني بالطعام وأفـر هاربًـا. لـم ألبث أن أدركـتُ وربما أدرك خاطفي أيضًا أنني لست من ذلك النوع الذي يجيد مثل تلك الأمور، وأن أي محاولة من هذا النوع لن تنتهي إلا بإيقاع الأذى بنفسي وربما بتعريضي للخطـر. لأهـوّن علـى نفسـي وحشـة الاحتجاز طلبـتُ منهم أن يسـمحوا لـي بالكتابـة وأن يأتونـي بـأوراق وأقلام. لدهشـتي لم يمانعوا، بل لبوا الطلب دون جدال، وهكذا تجدينني يا شجرتي العزيزة أكتب لك مجددًا.

حاولـتُ جاهـدًا ومنـذ اليـوم الأول أن أفطـن إلـى حقيقـة نواياهـم ومـا يعزمـون علـى فعله بـي، لكنني لم أسـتطع أن أجد

تفسيرًا لإصرارهم على انتزاع معطفي وأخذه بعيدًا. في البداية ظننتُ أن النص الذي أرغموني على النطق به أمام الكاميرا يؤكد أنهم من حماس وأن هدفهم سياسي بحت، إلا أن ردة فعلهم وانغماسهم في نوبة من الضحك ما أن انتهيت من التسجيل جعلني أشك في الأمر. اعتقدتُ أول الأمر أنهم يضحكون على طريقتي في الكلام، وكنت معتادًا على ذلك، لكني ما لبثت أن شعرت أن الأمر أكبر من ذلك، وتعاظمت شكوكي عندما رأيتهم يومها يحتفلون بشرب أعداد لا تنتهي من علب الجعة المُسكرة. لم تكن تصرفاتهم توحي بأنهم متدينون على الإطلاق. كانت ألفاظهم العربية وحتى العبرية نابية في معظمها وكأنهم مجموعة من الأوباش الرعاع وليسوا أناسًا يحملون رسالة أو يعتنقون إيديولوجية يؤمنون بها.

منذ أن أودعوني هذه الغرفة وأنا أقضي جل الوقت في الكتابة أو إلصاق أذني بالباب علّني ألتقط أطرافًا من أحاديثهم فأعلم شيئًا عن مصيري أو مصير والدي. استغربتُ كثيرًا وأنا أسمعهم يتحدثون عن ملاهٍ ليلية يرتادونها وأماكن مشبوهة يترددون عليها وجميعها في الشمال الإسرائيلي. حتى أسماء الشوارع والطرقات والأماكن العامة التي ذكرت في ثنايا أحاديثهم كانت جميعها تشير إلى حقيقة واحدة. أفراد هذه المجموعة ليسوا من قطاع غزة وربما لم يدخلوه في حياتهم. توصلتُ إلى أنهم على الأغلب يعيشون في حيفا وربما لم يسبق لهم مغادرة إسرائيل. قادني ذلك إلى استنتاج غاية في الأهمية، وقد أصبحت على يقين أنني

لست في غزة وأن هؤلاء ليسوا من حماس ولا علاقة لهم بها من قريب أو بعيد.

استنتاجي ذلك أراحني قليلًا إذ يعني أنني محتجز في مكان ما داخل إسرائيل ولم أجتز الحدود أو أقترب من غزة، كما أنني في قرارة نفسي سررت لأنني لم أقع رهينة لدى الفلسطينيين الذين أتعاطف معهم، بل وأؤمن بقضيتهم. في نفس الوقت بتُّ أشعر بالقلق وأنا لا أدري السبب الحقيقي لاحتجازي ولا النية التي يضمرها الخاطفون في حقي. فما داموا ليسوا من حماس ولا علاقة لهم بالسياسة كما استنتجت من أحاديثهم التافهة، فهل هذا يعني أنهم أفراد عصابة منظمة؟ إن كان الأمر كذلك فما الفائدة التي سيجنونها وقد ألصقوا التهمة بحماس؟ إذ كيف لهم أن يحصلوا على الفدية باسم حماس، والتي يعرف الجميع أنها لم يسبق أن أفرجت عن أسرى مقابل المال؟ قادني تفكيري لاحقًا إلى تذكر التسجيل الثاني الذي طلبوه مني في يومي الأول وكان موجهًا إلى والدي، وإذ ذاك تجلت أمامي الحقيقة واضحة. هداني عقلي لأتوصل إلى أن غرضهم من اختطافي لابد وأن يكون ابتزاز أبي ليفتديني بمقدار كبير من الأموال، أما التسجيل الأول فلم يكن هدفه أكثر من مجرد ذر للرماد في العيون وتضليل السلطات الإسرائيلية المتحفزة دومًا للمواجهة مع الفلسطينيين، وهكذا يضربون عصفورين بحجر واحد. يحصلون على الفدية من والدي ويلصقون التهمة بحماس. لكني وإذ توصلت إلى هذه القناعة لم أكن واثقًا مما ينوون فعله بي ما أن يحصلوا على

الفدية من والدي. فهل سيطلقون سراحي وهم يظنون أن الخدعة قد انطلت عليّ وأنني سأؤكد الرواية التي اخترعوها بأنني كنت محتجزًا لدى حماس في قطاع غزة قبل أن يطلقوا سراحي فجأة ويعيدونني إلى إسرائيل؟ أم أنهم سيفضلون قتلي والتخلص من جثتي وترك السلطات الإسرائيلية تلاحق حماس وتمطر غزة بالصواريخ بينما يحتفلون هم ويضحكون على سذاجة حكومتهم؟ لم أستطع أن أتوصل إلى أيٍ من الخيارين سيميلون وإن تناهى إلى سمعي قبل يوم جملة قالها أحدهم موجهًا حديثه للشخص الذي يأتيني بالطعام:

«زد له في الكمية. نريده أن يسمن ويمتلئ. لا نريد أن تُتهم حماس بأنها لا تحسن تغذية أُضحياتها» قبل أن تتعالى ضحكات رنانة.

هل يعنون بذلك أنهم قد عزموا على ذبحي قريبًا وتوريط حماس؟ لا أنكر أن تلك الفكرة أرعبتني وقد فطنت أنها ربما تكون مفضلة للخاطفين، فهي لا تدع مجالًا لأي خطأ أو احتمال لسوء تصرف من قبلي إن هم أطلقوا سراحي، إذ يكفي أن يقتلوني وربما يصورون عملية الذبح ويبعثوا بها إلى السلطات مع ديباجة تناسب الموقف وتأجج المشاعر، ثم يدفنون جثتي في بقعة نائية وينتهون من القصة بعد أن يكونوا قد حصلوا على الكثير من الأموال.

ما أن سيطرت على ذهني تلك الفكرة الأخيرة حتى امتلأت نفسي رعبًا أطار من عيني أي رغبة في النوم. نعم يا شجرتي

العزيـزة. هـو الخـوف مـن المـوت، ولكـن ليس هو وحـده، بل الخـوف علـى أمـي عندمـا يصلها الخبر وهي التـي لا تملك في هـذه الدنيـا عزيـزًا غيري. أنا على يقين بأنها لن يطيب لها العيش مـن بعـدي، ولا أسـتبعد أن تنهـي حياتها بيديهـا إن هي فقدتني، خاصة بتلك الطريقة الشنيعة التي يلمحون إليها.

أنا الآن أجاهد لأخرج نفسي من هذه الحالة وقد استبد بي شـعور خانق بالاستسـلام التام لمصيري، وكأني نعجة تسـاق في سكينة إلى المسلخ.

40

طالت أيام احتجازي دون بارقة أمل في إطلاق سراح قريب رغم الجهد الجبار الذي بذله المحامي ومن ورائه السفارة الكندية. تعقد الأمر كثيرًا بعد ذلك التسجيل الذي ظهر فيه شلومو وهو يؤكد أن مقاتلي حماس هم من اختطفته. أصبح التحقيق كله منصبًا على محاولة إرغامي على الاعتراف بعلاقتي بحماس وبتنسيقي معها في زيارتي الأخيرة إلى غزة. لم يكن لديهم أي دليل يستندون إليه في اتهاماتهم سوى إقراري بأني ذهبت إلى غزة، وكأن قيامي بواجبي كطبيب وتطوعي لعلاج ضحايا قصفهم الهمجي أصبح جريمة تستحق العقاب والتعزير. تسربت اتهاماتهم الباطلة إلى الصحافة ووسائل الإعلام فكان ولداي أول المتضررين بعد أن أصبح منزلنا مستهدفًا من قبل المتطرفين وعموم المتعصبين. لم أكن أنا لأعلم بذلك لولا الأخبار التي تناقلها زملائي في الاحتجاز والذين أصبحوا يعاملونني كبطل حرب وقد صدقوا الرواية الرسمية بأني متورط في الجريمة رغم تأكيداتي المتواصلة بأني بريء من هذه التهمة. كانوا يهزون رؤوسهم مبتسمين ولسان حالهم يقول «نعم، نعم، أنت بريء بالتأكيد. نحن نعلم أنك أجهزت على ذلك الطاغية،

ولكنك ترفض أن تعترف نكاية بهم. سنشترك معك في هذه المسرحية». لا أستبعد أن يكون بينهم عميل متستر يتحفز لالتقاط اعتراف مني.

ساءت ظروف احتجازي كثيرًا ونقلتُ إلى زنزانة أخرى عندما انتشر خبر فرار ستة من الأسرى الفلسطينيين من واحد من أشد السجون الإسرائيلية حراسة. جن جنون الصحافة والرأي العام الإسرائيلي بعد هذه الفضيحة التي هزت صورة أجهزة الأمن الإسرائيلي وأدواته التقنية التي يروجون لها بأنها الأفضل في العالم. فتُحت تحقيقات مع العديد من الجهات بما فيها المخابرات الإسرائيلية التي فشلت في إيقاف العملية أو التنبؤ بها، وانتشرت الكثير من الشائعات حول فساد الحراس في كثير من السجون وتورطهم في تهريب الممنوعات للمعتقلين مقابل المال. ضجت السجون باحتفالات الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين بنجاح العملية النوعية التي لم يُسمع بمثلها منذ عقود. عن نفسي وإن كنت أعلم القليل عن سبب اعتقال أولئك الفارين فإنني لم أستطع منع نفسي من مشاركة زملائي فرحتهم. سمعتُ في محبسي الكثير من القصص وهالني أن ألمس حجم المعاناة والقهر الذي يعاني منه الفلسطينيون وهم يُقتلعون من بيوتهم وتُصادر أراضيهم وتُحرق بساتينهم وتتوسع المستوطنات السرطانية على حساب قراهم وبلداتهم فتنهب الماء والكلأ. ربما يكون فرار معتقلين من سجن ما في بلد آخر مجرد خبر يصلح للتندر، أما هنا وبالنسبة لشعب يعاني الأمرين وقد أصبح

وطنه كله معتقل كبير فإن حدثًا كهذا يعد إنجازًا كبيرًا وبارقة أمل يستبشر بها العامة ويبحثون فيها عن معانٍ خفية أو علامات لنبوءة يتعلقون بها منتظرين تحققها بزوال الاحتلال.

استغربتُ كثيرًا في خضم ما مر بي من أحداث ما وصلني مما يتناقله المحتجزون عن اقتراب حدوث معجزة ما العام القادم، وذهلتُ من يقينهم بأن دولة إسرائيل ستزول عن الوجود في عام 2022. لم يسبق لي أن سمعت بتلك النبوءة أو قرأت عنها وتعجبت عندما ساق لي أحد زملائي في الزنزانة عشرات الأدلة التي كان يحفظها عن ظهر قلب وينقلها عن مفكر فلسطيني اسمه بسام جرار لم أسمع به من قبل. أغلب الأدلة كانت تدور حول ما يسمى بحساب الجُمَل وهي طريقة تقوم على إعطاء كل حرفٍ من حروف الهجاء العربية قيمة عددية موجبة ثابتة، فحرف الهمزة يعادل الرقم واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة وهكذا، ومن هذه الأعداد يتم استنتاج تواريخ معينة. ومما فهمته فإن صاحب النبوءة بزوال دولة إسرائيل قد طبق حساب الجُمَل على بعض آيات القرآن واستنتج منها أن الزوال سيتحقق في عام 2022. لم أقتنع كثيرًا بتلك الأدلة وخشيت أن يقود تعلق الناس بمثل تلك النبوءات إلى التواكل ثم الصدمة والانهيار في حال أتى ذلك التاريخ المزعوم ولم يحدث ما أخبرت به النبوءة.

أخبرني المحامي ذات يوم بأن السيدة أبيجيل والدة شلومو تطلب لقائي وأنها تنازلت عن الشكوى التي قدمتها في حقي. استغربت الأمر وإن خطر ببالي أنها ربما تكون أحد أساليب

المحققين وألاعيبهم في استخراج المعلومات. وافقتُ على الالتقاء بها وحاولتُ ألا أتبنى أي نظريات أو توقعات مسبقة.

عندما أُدخلتُ غرفة التحقيق وجدت أبيجيل تجلس تنتظرني. بدت لي وقد شاخت كثيرًا عن آخر مرة رأيتها فيها في السرايا عندما جاءت تبحث عن ولدها. سُمح لنا بأن نجتمع بمفردنا، وإن كنت على يقين بأن المحققين يشاهدوننا ويسمعون حديثنا.

عندما جلستُ قبالتها أدركت على الفور أنني أنظر في عيني أم مفجوعة في ولدها ولم تذق طعم النوم منذ أيام. شعرتُ بتعاطف معها ورثيتُ لحالها وأنا أدرك صعوبة الأمر عليها وهي لا تعلم إن كان ولدها بخير أم لا وإن كان سيتاح لها أن تراه مجددًا.

«كيف هو شعورك وأنت بعيد عن زوجتك وأولادك؟» سألتني فجأة بلغة إنجليزية ركيكة لم أكن أعرف أنها تتحدث بها.

«مشتاق لهم شوقًا لا أستطيع وصفه» أجبتها صادقًا.

«أما أنا فلا عائلة لي. زوجي السابق مقتول وولدي الوحيد الذي هو كل ما تركه الرب لي خُطف ولا أعلم عنه شيئًا» قالت والدموع تترقرق في عينيها.

تنهدتُ «وهذا حال مئات إن لم يكن آلاف من النساء الفلسطينيات...» وقبل أن أكمل قاطعتني.

«وما ذنب ولدي أنا؟ لم يرفع شلومو سلاحًا في حياته ولا حمل في قلبه ضغينة نحو العرب أو سواهم. لماذا تحملونه وزر آخرين لا علاقة له بهم؟ ألم تجدوا في إسرائيل كلها سوى ولدي

الوحيد لتنتزعوه من بين أحضاني؟» وانهمرت دموعها.

انتظرتها إلى أن هدأت قليلًا «لقد التقيتُ ولدك وشاء الله أن أعرفه عن قرب في موقف ظهرت فيه شهامته وحسن خلقه. أنا أعترف أنني في بادئ الأمر كنت متشككًا في نواياه ولم أصدق حتى أنه كان مصابًا بالتوحد. ظننت الأمر مجرد ادعاء وتمثيل سيء. تبين لي لاحقًا أنه شاب صادق لا يضمر لنا أي شر، بل على العكس لا يتوانى عن تقديم المساعدة بدون مقابل» نظرتُ في عينيها فلمحت رضىً من إطرائي فأردفت «أتمنى صادقًا أن يعود لك ولدك سالمًا في أقرب وقت دون أن يصيبه مكروه. أنا أعلم أنك ربما تظنين أنني متورط في اختطاف ولدك أو أعرف مكانه. ليتني قادر على تقديم أي مساعدة لك أو لولدك. مهما قيل، فإن الحقيقة الوحيدة التي يهمني أن تعرفيها هي أنني وعائلتي لسنا أكثر من ضحايا كولدك تمامًا. ليس لنا أي علاقة لا بجريمة القتل ولا بالاختطاف» انتظرتُ لحظات قبل أن أباغتها بسؤال لا أظنه خطر ببالها «بالله عليك، هل يعقل أن أكون بتلك السذاجة فأدفن زوجك السابق في فناء منزلنا وألبسه رداء ولدك المختطف ثم أسافر بكل برودة أعصاب إلى غزة وأترك ولديّ الوحيدين في المنزل مع الجثة؟ هل هذا أمر يصدقه عاقل؟ ألم يكن من الأسلم أن نسافر جميعًا إلى كندا قبل أن يكتشف أمرنا؟» طأطأت رأسها ولم تجب وإن خمنتُ أنها أخذت تُعمل التفكير في أسئلتي. تابعتُ «أنا موجود هنا لأن أحدهم أراد توريطنا نحن العرب ليبعد نظر المحققين عن المتهم والمستفيد الحقيقي من

الجريمة. أنا لا أزال محتجزًا لأن شـرطتكم لم تسـتطع أن تجد المتهم الحقيقي وفضلت أن تسكت الرأي العام بادعائها الباطل بأنها أمسكت الجاني وعلى وشك حل القضية. أنا لا أعلم حقًا إن كان للفلسطينيين علاقة بخطف ولدك، فحتى اليوم لم تتبنّ أي جهةٍ فلسطينية الحادث رغم مرور أسابيع. إن أردت أن تحسني لولـدك وتنقذيـه ممـا هـو فيه، حاولـي فقط أن تجدي المسـتفيد الحقيقي من كل ما جرى».

دخل أحد الحراس غرفة التحقيق وأمرني بأن أتبعه. نظرتُ في وجه أبيجيل. كفكفت دموعها ونهضت من مقعدها وقبل أن تخـرج مـن البـاب التفتت نحوي وقالت «شـكرًا لك» ثم غادرت الغرفة.

41

أفقتُ من نومي فزعة وجرس الباب لا يكف عن الرنين. فتحتُ عينيّ وأنا غير واثقة إن كنت أحلم أم أنني فعلًا استيقظت في جوف الليل. ترنحتُ عارية القدمين في طريقي إلى الطابق السفلي وأنا نصف نائمة. انقبض قلبي وأنا أخرج إلى الحديقة وأمرّ بشجرة البرتقال الحزينة. توجهتُ نحو البوابة ولا يخطر في ذهني سوى أكثر الأفكار سوءً وسوداوية. كيف لا وطارقنا نادرًا ما أتى بخير.

أدرتُ القفل وفتحتُ البوابة من غير أن أسأل عن هوية الزائر اللحوح وكأنني لم أعد أبالي بما قد يحمله من شرور بعد الذي أصابنا.

أخذتني بالأحضان قبل أن يتعرف عقلي نصف النائم على هويتها.

«أردتُ أن أجعلها مفاجأة. لم أستطع أن أبقى بعيدة عنكم فترة أطول. أين هيشو؟ أما زال نائمًا؟ ما بك قد انعقد لسانك؟ وكيف تخرجين وأنت هكذا ثائرة الرأس؟» وقبل أن أجيب صاحت بي وقد لمحت قدميّ العاريتين «لانا. هل فقدت عقلك؟ تمشين حافية مثل النَوَرا! يبدو أنك نسيتِ كل ما ربيتك عليه. أي

مصائب أخرى تنتظرني؟ هيا أسرعي وادخلي المنزل. سرحي شعرك واغسلي قدميك وارتدي حذاءك ولا تعودي إلى فعلتك هذه أبدًا. أيقظي هشام لكن لا تخبريه أنني هنا. أود أن أشهد بنفسي ردة فعله عندما يجدني أمامه».

كل هذا وأنا لا أزال لم أنطق بكلمة واحدة «حمدًا لله على سلامتك يا أمي» قلتُ وأنا أتبعها فلم تسمعني وقد دلفت إلى البيت على عجالة وبدأت تُجيل ببصرها وتهز رأسها في استنكار وهي تلقي التعليمات لثلة الخدم الوهميين حول كيفية الاعتناء بالمنزل والحفاظ على نظافته.

لم أكن بحاجة لإيقاظ هشام، فصوت أمي الرنان كان كفيلًا بذلك. نزل الدرجات مسرعًا وارتمى في حضنها. قبلَته على وجنتيه ولم تلبث أن قطبت جبينها وأمرته أن يصعد فيستحم ثم يأتي لاستقبالها كما يليق.

أذعنتُ لأوامر أمي دون جدال وساعدتها في حمل الحقائب إلى غرفتها. أصلحتُ من هندامي والتحقتُ بها واقترحتُ أن تنال قسطًا من الراحة وقد فطنتُ إلى أن الساعة لم تتجاوز الثانية بعد منتصف الليل.

«الوقت لا يزال عصرًا في كندا. لن أستطيع النوم الآن. تعالي واجلسي بقربي وحدثيني عن أحوالكما وكيف تتدبران أمريكما».

«لكن الوقت متأخر ولم ننل نحن قسطًا كافيًا من النوم. ألا

نستطيع تأجيل الحديث إلى الصباح؟» قلتُ في عقلي دون أن أفتح فمي وبدلًا من ذلك ابتسمتُ لها واقتربتُ منها وجلست إلى جوارها فمسّدت شعري براحتها وقربتني إليها وضمتني وقبلت رأسي وتنهدت «ليت والدك معنا. لو أنه أخذ برأيي وتركنا نسافر جميعًا لم حصل ما حصل. فات الأوان الآن ولم يعد ينفع الندم. فكّ الله أسره».

«آمين» همستُ قبل أن أسألها «لماذا قررتِ العودة بشكلٍ مفاجئ؟ هل نصحك المحامي بذلك؟ ألن يطلقوا سراح أبي قريبًا؟ وهل أخبرته أنك قادمة؟»

«لا. لم أخبره. لقد اتخذتُ قرار السفر بمجرد أن شاهدتُ ذلك التسجيل الجديد الذي عُرض على قناة الجزيرة. أدركتُ على الفور أن ذلك يدين والدك وأن فرص إطلاق سراحه باتت في حكم المستحيل».

أومأتُ برأسي قبل أن أنظر في عينيها وأسألها «هل تصدقين أن لوالدي علاقة بمقتل ذلك الرجل او اختطاف شلومو؟»

هربت بناظريها وهي تقول في لهجة غير حاسمة «لا أدري ماذا أصدق، ولكني لا أجد تفسيرًا لقيام ذلك الملثم في التسجيل المصور بإمهال السلطات الإسرائيلية ثلاثة أيام لإطلاق سراح والدك والسماح له بدخول غزة معكما بشكل آمن، وأنه وفي حال انتهت المهلة ولم يتم تنفيذ الطلب، سيقدمون على قتل شلومو وتصوير عملية القتل ونشرها في وسائل الإعلام».

«لكـن حمـاس نفـت أي علاقـة لها بهـذا التسـجيل الأخير وأكـدت أنهـا لا تلجـأ إلـى هـذه الأسـاليب. يسـتحيل أن يكون لوالـدي أي علاقـة بـأي من هذه الأحداث» قلتُ في لهجة عتاب وأنا أجد الشك وقد تسلل إلى نفس أمي والتي يُفترض أنها تعرف أبي خيرًا مني.

تجاهلـت عتابـي وقالـت بنبـرة الواثـق «يبـدو أن المحللين يميلون إلى الاعتقاد أن المجموعة التي تحتجز شلومو قد انشقت عـن حمـاس وأعلنـت ولاءها لتنظيم الدولة، وهذا أسـوء بكثير، فأسـاليب هـذا التنظيـم أكثر عنفًا وأفكاره أشـد تطرفًا. إصرارهم على إطلاق سـراح أبيك لا يبشـر بخير ويوحي بأن أمره يهمهم. أيقنتُ سـاعتها وأنا أشـاهد التلفاز أنني لابد أن أكون معكم في هذا الظرف الدقيق، وهكذا جئتكم على جناح السرعة على متن أول رحلة متاحة».

دخل هشـام علينا فأفسـحتُ له وتركته مع أمي يحدثها عن مغامراته وكأنه وإياها قد انتقلا إلى عالم موازٍ آمن لم يصيبنا فيه ما يصيبنا هنا.

لـم يسـتطع قلبـي أن يتقبـل أن يكون لوالـدي أي علاقة بما جـرى. أمـا دماغـي فقد انقسـمت آراء شـطريه الأيمن والأيسـر. فشـطر أراد أن يقنعنـي أن أبـي متـورط وأنـه فعـل مـا فعل كأحد أشـكال المقاومة المشـروعة للمحتل، أما الشـطر الآخر فأوحى لي بأنها مؤامرة وقع والدي ضحيتها لسبب مجهول لا أعلمه.

ذهبتُ إلى غرفتي فتوضأتُ وصليت ركعتين دعوت الله فيهما أن يهدي قلبي وينزل السكينة على روحي وأن يفرج الكرب ويرفع الغمة ويعيد والدي إلينا سالمًا غانمًا وأن ينجي شلومو المسكين مما هو فيه.

42

جافاني النوم ليلة البارحة، فلم أستطع أن أغلق عينيّ وعقلي لا يكاد يتوقف عن التفكير وإثارة الهواجس في نفسي. فجر اليوم انتهت المهلة التي منحها الخاطفون لإطلاق سراحي. ليس لدي أدنى فكرة عن هويتيهم أو سبب إصرارهم على إطلاق سراحي وإرسالي إلى غزة. لستُ على علاقة بأي من التنظيمات السياسية أو الأحزاب أو الجماعات ولا أدري لماذا يقحم هؤلاء اسمي ويضرون بقضيتي بهذا الشكل. من سيصدق الآن أنني بريء؟ حتى محامي الخاص الذي انتدبته السفارة الكندية جاءني محملًا بالأسئلة والشكوك بعد انتشار التسجيل الأخير، وفاجأني عندما أخبرني أن السفارة تتحفظ على المضي قدمًا في تبني قضيتي وأن عليّ أن أتحمل أتعاب المحاماة من مالي الخاص. كل هذا لا يهم. ما أخشاه حقيقة هو الأعمال الانتقامية التي ستستهدف عائلتي في حال لم يقم الخاطفون بتمديد المهلة بعد أن رفضت الحكومة الإسرائيلية الاستجابة لطلباتهم. ماذا سيحدث إن أقدموا على قتل شلومو ونشروا تسجيلًا مصورًا يؤكد ذلك؟

بالأمس طلبتُ من المحامي أن يحث السفارة الكندية على التدخل للسماح لعائلتي بالسفر والعودة إلى كندا في أسرع وقت

ممكن. لقد مر وقت طويل ولم يثبت تورط أي من أفراد عائلتي في القضية ولم توجه لأي منهم أي تهم، وهذا يعني أنه بقليل من الضغط من الجانب الكندي لن يكون من الصعب أن يُسمح لهم بمغادرة البلاد.

عندما بلغت الساعة الثامنة صباحًا جاءني أحد السجانين إلى زنزانتي الانفرادية التي نُقلت إليها بعد التسجيل الأخير وكأني قد أصبحت فجأة من عتاة المجرمين أو أخطر الإرهابيين. أخبرني السجان أن المحامي يطلب لقائي. أثار ذلك قلقي إذ لم يعتد أن يزورني في هذا الوقت المبكر. خمنتُ أن السفارة ربما استطاعت إقناع السلطات بالسماح لعائلتي بمغادرة البلاد. لا. لا أظنه خبرًا يستدعي أن يأتيني في هذا الوقت المبكر ليُعلمني به. لعله أتى ليخبرني برفض السلطات طلب السفارة. لا. لا أعلم. كلها لحظات ويدخل عليّ المحامي وأعرف منه حقيقة الأمر.

دلف المحامي إلى الغرفة متجهم الوجه وجلس قبالتي دون أن يصافحني أو يلقي التحية فتعاظم قلقي وخشيتُ الأسوء.

أخرج هاتفه المحمول ونقر بعض الأزرار ثم أداره قبالتي «شاهد هذا» قال بنبرة لا تبشر بخير.

رأيت ما بدى لي وكأنه تسجيل مصور فانقبض قلبي على الفور. شاهدتُ شلومو في وسط الشاشة يجثم على ركبتيه وقد أوثقت يداه خلف ظهره. كان ينظر إلى الكاميرا بوجه شاحب وعينين مرتعبتين. خلفه ظهر رجل ملثم ضخم الجثة يحمل سيفًا كبيرًا. ارتعدت أوصالي لمجرد التفكير بما سيحدث لاحقًا.

«أما وقد انتهت المهلة دون استجابة أحفاد القردة والخنازير إلى مطالبنا فإن جوابنا هو ما ترون لا ما تسمعون» هدر الملثم بصوت جهوري بث الرعب في نفسي قبل أن يرفع سيفه عاليًا ويكبر. أشحتُ بنظري على الفور ودفعتُ شاشة الهاتف بعيدًا. لم أكن بحاجة إلى أن أنظر. لقد قتلوا شلومو المسكين من غير جريرة وسأكون أنا الضحية المقبلة.

«عائلتي. لابد من حمايتهم. يجب أن يغادروا البلاد على الفور. هل تسمعني؟ ما الفائدة من الجنسية الكندية إن لم تشفع لهم في هذ الموقف؟» انتفضتُ فجأة وصحتُ بعصبية بصوت ارتفع أعلى من اللازم وأنا أتخيل ما قد يصيب عائلتي بعد هذا التسجيل المروع.

«سأرى ما يمكننا فعله، لكني أخبرك من الآن. لن يكون الأمر سهلًا» أجاب باقتضاب وهو مقطب الجبين. نهض من كرسيه وهمّ بالمغادرة. نظر نحوي فجأة وقال مُباغتًا «سيد جوزيف. أريد منك إجابة صادقة وتأكد أنها مهما كانت ستبقى بيني وبينك ولن تؤثر على موقفي في الدفاع عنك» أومأتُ برأسي فأردف «هل تقسم بأنك بريء وألا علاقة لك بما شاهدته للتو؟»

«أقسم بأغلظ الأيمان بأنني بريء براءة الذئب من دم النبي يوسف الذي أحمل اسمه. لا علاقة لي لا من قريب ولا بعيد بمقتل موشيه ولا مقتل ابنه شلومو ولا أعرف من أقدم على ذلك ولا حقيقة نواياه» هدأت ملامح وجهه وعيناه تتفحصانني وتحاولان سبر أغواري. شعرتُ بأنه يصدقني. أومأ برأسه وخرج.

أناملي لم تتوقف عن الارتعاش وأنا أستحضر مُرغمًا صورة شلومو في التسجيل مرارًا وتكرارًا. ما هالني حقًا هو أن عقلي لم يكتف بعرض صورة شلومو وهو يستعد لاستقبال مصيره المحتوم، بل استبدل وجهه بوجه هشام تارة ووجه لانا تارة أخرى. أرعبني المنظر وحمدت الله أنني أشحت بنظري في الوقت المناسب قبل أن ينطبع مشهد أشد إرعابًا في ذاكرتي إلى الأبد.

لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أبيجيل المسكينة وردة فعلها عندما يصلها التسجيل. لن تتمكن على الأغلب مثلي من إشاحة النظر. لن تكف عن التشكيك فيما تراه عيناها حتى اللحظة الأخيرة. ربما تفقد وعيها وربما يحدث لها ما هو أسوء.

لم أعد قادرًا على التفكير بشكل سليم. لا أعرف من قتل موشيه ولا من قتل شلومو. هل هم حقًا فلسطينيون متطرفون؟ ماذا سيستفيدون من فعلة شنعاء كهذه؟ تساءلتُ بيني وبين نفسي وعقلي لا يستطيع بأي شكل من الأشكال أن يجد مبررًا لقتل شلومو الشاب المسالم. نعم، أنا أعلم أن الإسرائيليين يفعلون أضعاف ذلك بالفلسطينيين ولا يتوانون عن قتل المئات من الأبرياء منهم بما فيهم النساء والأطفال كل عام دون أن ترمش لهم عين وينجون بفعلتهم كل مرة لأنهم سادة الإعلام وسدنته. لكننا لسنا مثلهم ولا يجب أن نحذو حذوهم. فلا هذه أخلاقنا ولا هي مبادئنا. أصر عقلي على أن يقحمني في مواضيع شائكة تنهكني في كل مرة تخطر ببالي، ولم يدعني إلا وقد طرح الأسئلة

التي لا أجد لها جوابًا شافيًا. ماذا يفعل الفلسطينيون لاسترجاع أرضهم المسلوبة؟ ما كانت الحجارة لتجدي نفعًا، وإمكانيات الفلسطينيين البسيطة والحصار المفروض عليهم من العالم كله لا يسمح لهم ببناء جيش ولا امتلاك أسلحة، وإسرائيل لا تتوانى عن التهام المزيد من الأراضي كل عام دون رادع من شرق أو غرب. هل لأحد أن يستغرب بعد هذا كله أن يلجأ البعض منهم إلى التطرف بعد أن انقطعت السبل وانطفأ كل أمل لهم بالحرية؟ أنا على يقين بأن الأعمال الإرهابية ليست الحل وهي قطعًا لا تجدي نفعًا، بل تسيئ كثيرًا للفلسطينيين، بل للعرب والمسلمين جميعًا عندما يسارع الإعلام على جمعهم في بوتقة واحدة بعد كل عملية إرهابية. ليتني أملك وصفة سحرية لحل مشاكل الفلسطينيين واسترجاع أرضهم. لا يبدو لي أن ذلك ممكن دون تعاضد من جيرانهم وإخوانهم العرب والمسلمين. أرغمت نفسي على التوقف عن التفكير في الأمر قبل أن يجرني عقلي إلى حقل ألغام لا أخرج منه سالمًا.

43

ضجت القنوات الإخبارية المحلية والعالمية بالخبر بعد أن عرضت قناة الجزيرة تسجيلًا صادمًا لعملية قتل صديقي المسكين شلومو. كان منظرًا تقشعر له الأبدان. يومها كانت أمي تتابع نشرة الأخبار عندما نادتني فجأة وكنت في الحديقة أسقي شجرتي. «لانا، خبر عاجل. اتركي ما تفعلينه وتعالي على الفور. للأمر علاقة بالشاب اليهودي المختطف» صاحت بأعلى صوتها وهي تطل برأسها من باب السرايا. انقبض صدري وهرعت إلى الداخل لأتحرى الأمر.

وقفت أشاهد الخبر فلفت نظري أسفل الشاشة شريط تحذيري بلون أحمر فاقع ينبه المشاهدين بأن التسجيل يحتوي على مناظر صادمة لا تصلح للأطفال أو ضعاف القلوب. شحب وجهي وعلمت أن الأمر لا يبشر بخير. صرفتُ هشام خارج البيت وجلستُ أشاهد شلومو وهو يرتجف أمامي في اللحظات الأخيرة من حياته. انهمرت دموعي حتى قبل أن يهوي السيف على جسده. تسمرتُ أمام الشاشة ولم أستطع أن أبعد ناظري. أبت جفوني أن تنقذني من الصدمة. اجتاحتني العاصفة واخترقت روحي. شعرت بالمشهد يعرض بالتصوير

البطيء وأحسست بالسيف وهو يغرز عميقًا في قلبي. صرخت أمي من هول المفاجأة ورأيتها تسرع فتغلق التلفاز وهي تهذي بكلام غير مفهوم. لم أتحرك. لم أصرخ. لم ترمش لي عين. كنتُ مجمدة أنظر في الفراغ إلى شاشة مظلمة وأمي تصيح بي. بقيتُ على هذا الحال زمنًا ظننته الدهر. شهقتُ فجأة عندما شعرتُ بيدين تهزان جسدي في عنف. فتحتُ عينيّ اللتين لم أغلقهما واستجبتُ لأمي «أنا بخير. لا تقلقي» قلتُ باقتضاب ونهضت مسرعة إلى الحديقة وقد شعرت بأن الهواء قد سُحب من المنزل. أخذتُ نفسًا عميقًا ورميت بجسدي تحت الشجرة. لم أبال بما كان يرقد تحتها قبل أسابيع. ضممتُ ساقيّ إلى صدري متخذة وضعية الجلوس المفضلة لدى شلومو. دفنتُ رأسي بين يديّ وأطلقتُ لنفسي العنان. ارتعش جسدي وسالت دموعي حارة على وجهي. أخذ عقلي يعيد عرض المشهد. لم أشعر بنفسي وأنا أصرخ بكل ما أوتيت من عزم إلا عندما وجدت هشام يقف فوقي متسمرًا وقد انتابه الفزع. كفكفتُ دمعي ونهضتُ فعانقته «لا تقلق حبيبي. أنا بخير. نوبة جنون بسيطة» حاولتُ الابتسام وأخذتُ بيده ودخلنا المنزل وعقلي لا يزال مشلولًا من هول الفاجعة.

ساءت الأمور كثيرًا لاحقًا ذلك اليوم. اندلعت اشتباكات عنيفة أمام المنزل بين المتطرفين اليهود وأبناء الحي العرب الذين تناوبوا على حمايتنا. أصبح الشارع الذي تطل عليه السرايا أشبه بساحة حرب. إطارات مشتعلة. زجاجات حارقة وحجارة لا ندري من يلقيها على من. تدخلت قوات مكافحة الشغب

الإسرائيلية وكالعادة وفرت الغطاء والحماية للمتطرفين. انفجرت أمي غاضبة وهي تتحدث إلى أحد موظفي السفارة الكندية. هددتهم برفع قضية على السفارة في المحاكم الكندية لتقاعسهم عن توفير الحماية لمواطنين كنديين في الغربة وتراخيهم في الضغط على الحكومة الإسرائيلية للسماح لنا بالسفر إلى كندا على وجه السرعة.

آتت ضغوط أمي أكلها، فقبل غروب ذلك اليوم تلقينا اتصالًا من محامي والدي يخبرنا أن المدعي العام وافق على السماح لنا بمغادرة البلاد شريطة أن يتم ذلك في غضون أربعٍ وعشرين ساعة. شكرته أمي وحجزت تذكرة باتجاه واحد إلى تورنتو في رحلة صباح اليوم التالي. لم أستطع أن أعارض هذه المرة وإن حزّ في نفسي أن أترك بلدي بهذه الطريقة وأبي لا يزال محتجزًا ولا يعلم أحد متى سيطلق سراحه. هدأت الاشتباكات في الخارج مع انتشار سيارات الشرطة والصحفيين ومراسلي القنوات الإخبارية.

لم يغمض لي جفن في ليلتي الأخيرة. انتظرتُ انقضاء شطر الليل الأول وتسللت إلى الخارج على أطراف أصابعي وأنا أحمل غطاء سريري. جلستُ تحت شجرة البرتقال وتنشقت عبيرها. تدثرتُ وأسندتُ ظهري ورأسي إلى جذعها. أغمضت عينيّ وما هي إلا دقائق حتى شعرتُ بسكينة غريبة. انتظمت أنفاسي مع نبضات قلبي. لم أجفل عندما حرك النسيم أوراق الشجرة فشعرتُ بها تهمس في أذني «لا تقلقي. لن يطول الغياب. لم تنته الحكاية». فتحتُ عينيّ وأنا أشعر بطمأنينة وهدوء عجيب.

أخـذتُ نفسًـا عميقًـا وحمدتُ الله. نهضتُ علـى قدميّ وودعتُ شجرتي ودلفتُ إلى المنزل.

أفقنـا باكـرًا وتوجهنا مع سـاعات الصبـاح الأولى إلى مطار بن غوريون. كانت إجراءات المغادرة يسيرة فلم يوقفنا أحد ولم نتعـرض إلـى أي مضايقـات. لبثنا فقط بضـع دقائق أمام الضابط المكلف بالتدقيق بوثائق السفر ريثما خُتمت جوازاتنا. لم ننتظر كثيرًا حتى صعدنا إلى الطائرة. تنفست أمي الصعداء في مقعدها وهـي تجلـس بيننـا أنا وهشـام. ضمتنا وقبلت رأسـينا «أحمد الله على مغادرتنا سالمين وأدعو الله أن يلحق بنا أبوكما في القريب العاجل». أمّنّا على دعائها.

لـم أسـتطع أن أمنـع نفسـي مـن ذرف الدمـوع وأنا أشـاهد الطائـرة ترتفـع فـي الجو وأنـا أعلم أن أبي خلـف القضبان وفي مـكان مـا ترقـد جثة صديق وجارٍ مسـالم. لا أدري لماذا تذكرتُ حينها فجأة قول الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُـمُ اللهُ عَـنِ الَّذِيـنَ لَـمْ يُقَاتِلُوكُـمْ فِـي الدِّيـنِ وَلَـمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ * إِنَّ اللهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

44

مرت ليلتان لم يدخل فيهما أحد علي. اختفت جميع الأصوات في الخارج. نفد الطعام وسينفد ماء الشرب خلال أيام قليلة. خطر ببالي أن الخاطفين قد تركوني لألقى حتفي من الجوع والعطش. قبل أن يختفوا قيدوا قدميّ بالسلاسل. لا أزال قادرًا على جر نفسي إلى غرفة المياه، لكنني لا أملك من القوة أو الأدوات ما أستعين به لكسر باب الغرفة الحديدي أو فتحه عنوة والهرب من محبسي.

لم يغمض لي جفن منذ ليال عديدة وقد بدأتُ أشعر بأن ساعتي قد اقتربت. فقدتُ كل أمل في النجاة وأدركتُ أن مصيري بات محتومًا لا مفر منه. حدثتني نفسي بأن أنهي حياتي بيدي، فما دمتُ سأموت مقتولًا في نهاية المطاف، فلأعجل بالأمر وأختار ميتة أستعد لها جيدًا. فكرتُ مليًا بالأمر ووجدت أن الطريقة الأسرع هي الغرق. سأدخل رأسي تحت الماء في المرحاض ولا أرفعه أبدًا. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة واحدة، أستريح بعدها إلى الأبد. سيغفر لي ربي خطيئتي وهو يعلم أنهم لابد سيقتلونني بطريقة ربما تكون أشد بشاعة. هذا إذا لم يتركوني أصلًا لأموت من الجوع والعطش، وهي ميتة بطيئة ومؤلمة إلى أبعد الحدود.

كنت قد عزمت على تنفيذ حكم الإعدام صباح هذا اليوم وقضيتُ ليلتي الأخيرة في كتابة رسالة وداع مطولة إلى أمي رغم قناعتي بأنها لن تصلها أبدًا.

نهضتُ من سريري وجررتُ قدميّ بصعوبة نحو الحمام بينما ارتعدت فرائصي رغمًا عني. لم أكد أتجاوز العتبة حتى سمعتُ جلبة خارج غرفتي، وخلال لحظات فُتح الباب ودلف ثلة من الملثمين ومعهم شاب نحيل لم يكلف نفسه عناء تغطية وجهه.

«كما اتفقنا، خذ ما تشاء من الصور ومقاطع الفيديو. الأوامر تقتضي بأن يكون العمل متقنًا إلى أبعد الحدود» قال أحد الملثمين للشاب النحيل وهو يشير نحوي قبل أن يأمرني بالجلوس على كرسي وضعه في وسط الغرفة.

أومأ الشاب برأسه وهو يدور حولي ويتمعن في وجهي وهيأتي باهتمام «ربما يتطلب الأمر أن أصوره في وضعيات مختلفة، فهذا يسهل عملي».

«لا تقلق، هو طوع أمرك. ستجده مثل حيوان أليف مطيع. أليس كذلك يا شلومو؟» نظر إليّ بعينين آمرتين.

أشحتُ بنظري ولم أنبس ببنت شفه.

ضحك الملثم «لا بأس فهو مستاء لأننا لم نطعمه في الليلة السابقة. ضع له الطعام يا أبا النار» صاح وهو ينظر إلى أحدهم في الخلف.

رفع الشاب كاميرا بعدسة كبيرة يحملها حول عنقه وأخذ

يلتقط لي الصور من جميع الاتجاهات دون توقف. أمرني بأن أقف ثم أنحني، أحرك رأسي يمنة ويسرة. لم يدع وضعية ممكنة لم يصورني فيها. حاولتُ جاهدًا دون جدوى أن أهتدي إلى غايتهم من كل هذه الصور ومقاطع الفيديو.

غادروا الغرفة عندما انتهى المصور من عمله ووضعوا أمامي الطعام. علبة بيتزا كبيرة ملأت رائحتها أرجاء الغرفة واقتحمت أنفي. لم أستطع مقاومة شعوري القاهر بالجوع فقررتُ تأجيل تنفيذ حكم الإعدام وانهمكتُ في التهام قطع البيتزا الساخنة.

ما أن شعرتُ بالامتلاء حتى دفعني فضولي إلى إلصاق أذني بالباب لأسترق السمع وقد تعالت أصواتهم على غير العادة.

«ما الفائدة من كل ذلك؟ ألم يكن يفترض بنا أن نقتله وننتهي من الأمر؟» سمعت أحدهم يسأل فجفت الدماء في عروقي.

«المعلم لم ينته منه بعد. يقول إننا سنبيعه حيًا وميتًا ثم حيًا مرة أخرى» رد كبيرهم.

«ماذا يعني هذا؟ لم أفهم شيئًا» قال الأول.

«وما الغريب في ذلك؟ ومنذ متى وأنت تفهم أي شيء على الإطلاق؟» قال ثالث فتعالت الضحكات.

«ألم تنجح الخطة وانتهينا من الأب عندما رأى التسجيل وتفحص رداء ولده ووقع الشيكات جميعها؟ ألم ننفذ الأوامر وقمنا بدفنه في ذلك البيت العربي في يافا؟ لماذا لا زلنا نضيع الوقت هنا؟ لماذا لا نجهز على الشاب المعاق وندفنه في إحدى الخرابات فينال كل منا حصته وننتهي من الأمر؟ لماذا كل هذه

الألاعيب التي لا طائل منها سوى تعريضنا للخطر وتأخير حصولنا على نصيبنا في العملية؟» قال الأول بعصبية بصوت حاد ونبرة توحي بامتعاض شديد.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنهار على الأرض بعد أن توقفت قدماي عن حملي. لقد قتلوا أبي ودفنوه. لم أستطع تخيل الأمر. شعرتُ بضيق في التنفس وغثيان، وكدت أخرج كل ما في جوفي.

صحيح أنني لم أستبعد في ايامي السابقة أن يكون مكروهًا قد أصاب والدي، ولكن أن أتأكد من الخبر وأسمعه بأذني فله وقع آخر. مادت بي الأرض ودارت جدران الغرفة حولي. لم أستطع أن أستوعب أنني لم يعد لي بعد اليوم من أناديه أبتي. انقبض صدري وفاضت عيناي بسيل من الدموع لم يخطر ببالي يومًا أنني سأذرفها بهذه الغزارة حزنًا على فقد والدي الذي لم أتقرب منه إلا مؤخرًا.

شُلّ عقلي عن التفكير ولم أستطع أن أجد الرابط فيما يجري حولي وما سمعته. قتلوا والدي بعد أن حصلوا منه على مبتغاهم ثم دفنوه. لكن عن أي بيت عربي يتحدثون؟ فكرتُ لحظة ثم شهقت وقد ظهرت أمامي صورة البيت العربي الوحيد الذي يهمني أمره. رأيت جثة والدي وقد استقرت في البقعة التي أحبها تحت برتقالتي التي تحفظ أسراري. لم أكن بحاجة لتأكيد من أحد. كنت على يقين من أن والدي قد دفن هناك. أخذتُ أنتحب وأنا أخاطب صديقتي الوحيدة في هذا العالم وأوصيها على جسد والدي.

لـم أسـتطع أن أخمـن عن أي ألاعيـب يتحدثون، ولـم أفهم المغـزى مـن قـول كبيرهم أن المعلم لم ينته مني بعد وأنه يرغب في أن يبيعني حيًا وميتًا ثم حيًا مرة أخرى.

ساعتها أدركتُ أنني لن أقدم اليوم على الانتحار ولن أنهي حياتي بيدي ولن أسمح لهم بإنهائها. لا أدري من أين أتيتُ بكل ذلك العزم والإصرار على الخروج من محنتي هذه سالمًا لألتحق بأمي المسكينة التي لم يعد لديها أحد غيري في هذا العالم.

زفرتُ ما في صدري من آلام وتناولتُ قلمي وأخذتُ أدوّن ما مر بي من أحداث أقصّها على شجرتي العزيزة وأنا مدرك أن لي في ذلك أحسن العزاء.

تراءت لي صورة تلك الفتاة العربية فجأة من دون مقدمات، وتمثـل طيفهـا اللطيـف في غرفتي لأنظر إليهـا كأنها تقف أمامي فأبـثّ لها أحزاني فتواسـيني بأصدق العبـارات وأعذبها. تنهدتُ وأنـا أعلـم أن لخيالي شـطحات لا يمكـن أن تتحقق لا الآن ولا في أي وقت قريب.

انهمكـتُ فـي الكتابـة دون توقـف. أحسسـتُ بالإنهاك فلم أشعر بالقلم عندما سقط من يدي بعد أن ثقلت جفوني وتوسدت أوراقي وغبت عن الوعي في نوم عميق.

45

صدق حدس يوسف فقد أصيبت أبيجيل بانهيار عصبي حاد ونقلت إلى المستشفى في حال يرثى لها. عندما أفاقت من الغيبوبة أخذت تهذي بكلام غير مفهوم وهي تلطم وجهها وتنادي على شلومو كالمجنونة. لم تستطع أن تمحو منظر رأس ولدها وهو يتدحرج أمام جسده، وأصبحت ما تلبث تهدأ قليلًا بمفعول المخدر حتى تعود إلى الصراخ والعويل بمجرد أن تعود إلى وعيها فيتمثل مشهد القتل أمام ناظريها مرارً وتكرارًا في حلقة سرمدية من غير بداية أو نهاية.

نُشر نعي موشيه وولده شلومو على الصفحات الأولى في كبريات الجرائد الإسرائيلية. تُليت صلاة الكاديش في الجنازة وأقيمت مأدبة شفاء عظيمة وزع فيها البيض والعدس والكعك، واستقبل القصر جموع المعزين في أيام «الشفعاه» السبعة بعد أن غطى الخدم جميع المرايا. مُزقت الملابس ونُثر الرماد على الرؤوس وعلا صوت النساء ونحيبهم. لم تحضر أبيجيل أيًا من المراسيم لأنها لم تُدع أولًا ولأن حالتها العصبية لم تكن تؤهلها لمغادرة المستشفى بعد.

استطاع بنيامين بطرقه الخاصة وخلال أيام قليلة من إعلان

مقتل شلومو أن يحصر إرث موشيه ويضع يده على القصر والمصنع وباقي ممتلكات أخيه بالاتفاق مع باقي أفراد العائلة أو رغمًا عنهم.

تم تحويل يوسف إلى المحاكمة بعد أن تم اتهامه رسميًا بقتل موشيه والتخطيط لقتل ولده شلومو، رغم عدم امتلاك النيابة لأي دليل يعتد به، واستنادهم في الادعاء إلى أدلة ظرفية مثل زيارة يوسف لغزة ومطالبة الخاطفين بإطلاق سراحه وإرساله إلى القطاع. كان واضحًا لأهل الاختصاص أنها محاكمة سياسية هدفها الأساسي امتصاص غضب العامة وتقديم شخصية ذات أصول عربية لتكون كبش الفداء. لم يستطع المحامي تقديم أي مساعدة تذكر رغم يقينه بأن أدلة الادعاء واهنة ولا يمكن أن يؤخذ بها في محاكمة عادلة.

بمجرد أن وطأت قدما سارة الأراضي الكندية حتى أقامت الدنيا ولم تقعدها. سارعت ورفعت قضية تتهم فيها الحكومة الكندية بالتقاعس عن التدخل في إطلاق سراح أحد رعاياها المحتجزين ظلمًا وعدوانًا في إسرائيل بدون وجه حق.. ظهرت في القنوات الإخبارية والبرامج الحوارية ولم تدع سبيلًا لنشر قصة زوجها إلا وسلكته حتى صارت قضية رأي عام واضطرت الحكومة الكندية في آخر المطاف إلى مطالبة إسرائيل بالإفراج عن جوزيف الباتع على الفور وإعادته إلى كندا بعد أن أكد طاقم المحامين الذين أوكلتهم السفارة الكندية في تل أبيب لدراسة القضية وأمام وسائل الإعلام بأن احتجاز يوسف غير مبرر ولا

يستند إلى أي مسوغات قانونية.

كادت الضغوط الكندية تؤتي ثمارها بعد تأكيد وزير خارجيتها على حصول حكومته على ضمانات إسرائيلية بقرب الإفراج غير المشروط عن جوزيف، لكن وقبل ساعات من موعد إطلاق سراحه، حصل ما لم يكن بالحسبان، إذ نشرت قناة الجزيرة تسجيلًا مصورًا جديدًا ظهر فيه نفس الملثمين وهم يعلنون البيان المقتضب التالي:

«نعلن نحن كتيبة خطّاب الشيشاني بأننا سنرد على الدولة الصهيونية برد مزلزل في حال تجرأت ومسّت بسوء زعيمنا المناضل كبير المجاهدين أبو هشام يوسف ابن باتع اليافوي. هذا وقد أعذر من أنذر».

كان توقيت البث قاتلًا وكأنه اختير بعناية فائقة لهدف محدد ووحيد. حتى أسلوب البيان ولغته أوحت بأنه كُتب على عجالة.

ألغيت ترتيبات إطلاق سراح يوسف ولم تكرر الحكومة الكندية طلبها، بل سارعت إلى تأكيد وقوفها إلى جانب إسرائيل في حربها على الإرهاب.

انهارت جميع آمال سارة وولديها بلقاء قريب بيوسف وكانوا قد أعدوا حفلًا صغيرًا له وعزموا على استقباله في المطار. تبخرت أحلامهم وأعدوا أنفسهم لرحلة معاناة طويلة.

نُقلت أبيجيل إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد أن ساءت حالتها كثيرًا. لم يستطع المستشفى أن يتواصل مع أي من معارفها بعد أن فشل في العثور على أي أقارب من أي درجة، وهكذا فقد

ألقيت في إحدى الغرف النائية في المستشفى مع مجموعة من المرضى العقليين الذين لا يرجا شفاؤهم وليس لهم من يسأل عنهم أو يبالي بحالهم.

أما يوسف فقد أوكل أمره لله وقد أيقن أنه يتعرض لمؤامرة كبيرة الهدف منها صرف نظر العالم بعيدًا عن المجرم الحقيقي.

46

مر شهر كامل على عودتنا إلى كندا. قررتُ تأجيل التحاقي بالجامعة فصلًا آخر ريثما تنكشف الغمة ويعود أبي إلينا سالمًا. أمي فاجأتني عندما بذلت المستحيل لتطلق سراحه، وإن أردتم الحق فأنا لم يكن ليخطر ببالي أن لديها هذه الطاقة الجبارة والإرادة الفولاذية. لقد جعلت من قضية والدي قضية رأي عام في كندا، ولولا تعمد الخاطفين نشر ذلك التسجيل المُدين لكنا ننعم الآن بوجود أبي بيننا.

طيلة الأسابيع الماضية لم أكف عن رؤية شجرة البرتقال في أحلامي. كنت أراني أستند إلى جذعها وأنا منتشية بعبير زهورها وترانيم طيورها. في أغلب تلك الرؤى لم أكن بمفردي. كان شلومو يظهر فجأة وقد أسند ظهره إلى الجهة المقابلة من الشجرة. كان يحدثني فأسمعه ولا أراه. أشعر بوجوده دون أن أبصره. عندما أستيقظ في كل مرة يغمرني شعور جلي بأنني لا أزال في فلسطين وأن شلومو حي يرزق في مكان ما ليس ببعيد.

لم أستطع اليوم بعد أن صليت الفجر أن أعود إلى النوم. بقيتُ في فراشي أتقلب وأنا أفكر بوالدي تارة وببيتنا في يافا وشجرة البرتقال تارة أخرى. مرت صورة شلومو في ذهني في

ومضة مفاجئة فشعرت بشعور غريب. أحسست أنّ أمرًا ما بالغ الأهمية على وشك أن يحدث.

لم يكذب حدسي. تناهى إلى سمعي صوت أمي يصدح وهي تنادي باسمي. في البداية حسبتها أحلام يقظة قبل أن يُفتح باب غرفتي عنوة وتدخل أمي ثائرة الرأس.

«لانا، هل أنت مستيقظة؟» سألت بنبرة متلهفة.

جلستُ على سريري «لم أنم بعد الفجر. ما الأمر يا أمي؟ هل جافاك النوم أنت كذلك؟» سألتُها بتوجس وقلبي يخفق بقوة.

«إلحقي بي إلى غرفة المعيشة لنشاهد الأخبار معًا. حماس نشرت بيانًا غريبًا على قناة الجزيرة» خرجت من الغرفة على عجالة قبل أن يتسنى لي أن أسأل عن فحوى البيان.

نهضتُ فبللتُ وجهي بالماء وأسرعت في إثر أمي وعقلي يمطرني بعشرات الاحتمالات.

قعدتُ إلى جانب أمي وقد رفعت من صوت التلفاز.

«نعيد بث البيان الحصري الذي وصلنا قبل قليل من المتحدث الرسمي باسم حماس في قطاع غزة» قال المذيع مقطب الجبين بنبرة جادة قبل أن يظهر المتحدث الرسمي باسم حماس وهو يعلن بكل ثقة «نبشر أهلنا في فلسطين بأن جهودنا في مقاومة المحتل بشتى الطرق المشروعة لم تتوقف ونحن اليوم نطالب الكيان الصهيوني بالإفراج عن جميع الأسرى الفلسطينيين مقابل أن نقوم بتسليمهم شلومو موشيه وايزمان، والذي نؤكد أنه حي يرزق وبصحة جيدة، وسنقوم في الأيام المقبلة بنشر تسجيل

مصور حديث له من قلب غزة الصمود».

فتحتُ فاهي في دهشة قبل أن ترتسم ابتسامة واسعة على وجهي وأنا لا أكاد أصدق ما تسمعه أذناي. «ماذا عن التسجيل السابق الذي صور عملية قتل شلومو؟» تساءلتُ بصوت مسموع ولم أفق بعد من الصدمة.

«وفقًا لقناة الجزيرة فقد أقر الخبراء الإسرائيليون قبل قليل بأن التسجيل الخاص بعملية القتل قد تم تزويره بتقنيات التزييف العميق التي يستخدم فيها الذكاء الاصطناعي. يتنبأ محللو القناة بأن يشكل ذلك فضيحة كبيرة في الأوساط الإسرائيلية لا تقل سوءً عن فضيحة هروب المعتقلين الفلسطينيين من السجن رغم نجاح السلطات في إعادة القبض عليهم».

أومأتُ برأسي وأنا لا أزال منتشية بالخبر السار. شلومو إذًا بخير ولم يصبه مكروه. «كيف سيؤثر هذا الخبر على موقف والدي؟» سألتُ وأنا أنظر في الفراغ.

«ليس لدي أدنى فكرة فالأمور أصبحت ملتبسة تمامًا. فهل هذا يعني أن المجموعة التي ظهرت في التسجيلات السابقة كانت مجموعة وهمية هدفها التسلية ولفت الانتباه؟ أم أن حماس قد نجحت في التلاعب بإسرائيل لتوجيه ضربة موجعة لكبريائها؟ هل سيخدم أي من ذلك قضية أبيك؟ لا أستطيع أن أجزم بأي شيء. سأتصل بالمحامي وأتبين الأمر».

«حاولتُ أن أعيد ترتيب الأحداث في ذهني. لم يذكر البيان شيئًا عن مقتل موشيه، فهل هو من تدبير حماس أيضًا؟

إن كان ذلك من تدبيرها فما الحكمة من دفنه في باحة منزلنا وتوريط أبي في الأمر؟ ولماذا تأخرت حماس كل ذلك الوقت لتعلن عن أن شلومو بخير؟ ولماذا ينتظرون أيامًا إضافية لنشر التسجيل المصور؟ لماذا لم ينشروه اليوم؟ هل هي لعبة أخرى؟ ما المصلحة في تزييف مقتل شلومو؟ ومن قام بذلك ولأي غرض؟ ما دام شلومو لم يُقتل والتسجيل السابق وهمي ألا يعني ذلك أنه ما من مُسيّغ للاستمرار في احتجاز والدي؟ ألا يعني ذلك أن جميع التصريحات التي ربطت أبي بالجريمة هي تصريحات من جهة وهمية؟ ألم تفشل السلطات الإسرائيلية في إيجاد أي خيط يربط والدي بحماس؟» تشابكت الأفكار في عقلي ووجدتني أستدرك «لكن التصوير الذي تم تزييفه هو ذاك الخاص بعملية القتل فقط وليس التسجيل الأول الذي يظهر فيه شلومو وهو في قبضة الخاطفين. فهل ذلك التسجيل الأول كان من إعداد حماس؟ لماذا لم تقر بذلك وقتها وانتظرت مرور كل هذه الشهور؟» حدثتني نفسي بأن في الأمر سرًا ما لم يظهر بعدُ للعلن.

تواصلت أمي مع المحامي وتبين أنه هو نفسه في حيرة من أمره ولا يدري إن كانت الأخبار الأخيرة ستخدم قضية أبي أم لا. على الأقل فقد أبدى ارتياحًا بأن قصة تنظيم الدولة أصبحت مستبعدة وقد تبين للجميع أنها ملفقة، وإن دعا أمي للتريث ريثما يُنشر التسجيل الجديد الذي وعدت به حماس، للتأكد من أن شلومو على قيد الحياة بالفعل، فهذا سيسمح للحكومة الكندية

بأن تستأنف جهود إطلاق سراح أبي.

لا أستطيع أن أنكر أن حالتي النفسية تحسنت كثيرًا وقد أيقنتُ أن شلومو المسكين لا يزال على قيد الحياة، وكأن جبلًا جاثمًا على كاهلي قد تزلزل وانهار.

47

حسنًا يا شجرتي الغالية، ها أنا أرتب أفكاري لأكتب لك من جديد. لم يعد بحوزتي أية أوراق، لهذا سأحتفظ بخواطري منسقة بانتظار أن تتاح لي فرصة تدوينها قريبًا. أشعر اليوم بسعادة غامرة وأثق أنك عندما تعرفين السبب ستشاركينني سروري.

مرت بضعة أيام هادئة منذ أن جاء ذلك الشاب وقام بالتقاط الصور. لم يتركوني وحيدًا ولم تتأخر الوجبات كما حدث من قبل. صباح اليوم كان مختلفًا فقد دخل عليّ أحد الخاطفين متهلل الأسارير منبسط الوجه وهو يزف إليّ خبرًا لا يكاد يصدق «مبروك يا شلومو سنخرجك اليوم من هنا. تستطيع أن تغتسل وتصلح من هندامك. نريدك أن تظهر في أبهى صورة. أعلمني عندما تنتهي. سننطلق بالمركبة بمجرد أن تجهز». حاولتُ أن أسأله عما حدث ولماذا قرروا الإفراج عني وإلى أين سيأخذونني، لكنه خرج على عجالة وأشار إليّ بأن أغلق فمي وأتجهز.

لا أستطيع أن أصف لك شعوري، فقلبي يرقص طربًا وقد أصبحت على بعد سويعات من الالتقاء بأمي. لا أدري إن وصلها خبر الإفراج عني أم أنها ستكون مفاجأة. أجلسوني في المقعد

الخلفي وعصبوا عيني. تفهمت الأمر ولم أقاوم أو حتى ألح في السؤال عن وجهتنا. ربما يتركونني في مكان ما بعيدًا عن وكرهم ومن هناك أستقل سيارة أجرة وأتوجه إلى المنزل، أو لعلهم أفرجوا عني مقابل فدية كبيرة حصلوا عليها من عائلة أبي وسيتسلمني عمي أو أحد أقربائي. لا أبالي بالطريقة أو بالسبب، فما دمتُ قد خرجت من ذلك المكان وسأعود إلى حياتي وصحبة أمي فأنا راضٍ. صحيح أني حزين ولم تشف جراح فاجعتي بأبي، لكنّ فرحتي بالحرية هوّنت علي. جل ما أفكر به الآن هو أمي وردة فعلها عندما تجدني أقف أمامها وأنا بصحة جيدة ولم يمسسني سوء.

أرخيتُ سمعي لحديثهم عندما انطلقوا بالسيارة رباعية الدفع.

«متى وعد المعلم بأن يدفع لنا؟» سأل شاب يجلس عن يميني.

«اليوم، بمجرد أن ننتهي من التسليم» أجاب صاحب الصوت الرخيم.

«إذًا سيسلمونني إلى أحد أقربائي كما خمنت» فكرت في نفسي.

«المهم أن ننجح في التسليم في الوقت المحدد دون أن نلفت الانتباه، هذه المرة الأولى التي نقوم بها بعملية مشابهة وفي ذلك الموقع القريب من الحدود» أكمل كبيرهم فتساءلتُ في

نفسي عن أي حدود يتحدثون.

«هل تعاملت معهم من قبل؟ هل سيفون بما وعدوا به؟» سأل شاب آخر على يساري.

«لم أفعل أنا شخصيًا من قبل، لكن ربما تعاملوا مع مجموعات أخرى. ما داموا قد حولوا المبلغ للمعلم مقدمًا فلا داعي للقلق» أجاب رئيسهم. لم أستطع أن أخمن من المقصود بالكلام وإن خطر ببالي أنهم يعنون عائلة أبي.

«ماذا تظن أنهم سيفعلون به؟» جاء الصوت من جهة اليمين.

«ما يهمنا؟ سنحصل على النقود ونستعد لعملية أخرى».

«ماذا سيفعلون بي؟ ما هذا السؤال الغبي؟» فكرتُ في نفسي. «سأكون بين عائلتي. سأشكرهم وأتوجه إلى بيت أمي على الفور. ربما تعلم الشرطة بالأمر وتود استجوابي. سأتعاون معهم، ولكن بعد أن أزور أمي وأمتع ناظري برؤياها. ربما أعرج عليك يا شجرتي فألقي التحية عليك وعلى لانا. هل تظنين أنها تعلم بما أصابني أو تعبأ بحالي؟ أيًا يكن، سألقي السلام وربما تجاذبت معها أطراف الحديث على عجالة».

انقضت ساعتان وربما ثلاث، لا أستطيع أن أجزم فقد غفوت قليلًا على صوت المغنية العربية الشجي الذي صدح من مكبر الصوت في المركبة، وأيقظني الاهتزاز بعد أن انتقلنا إلى طريق غير معبد كما خمنت. لم يمض وقت طويل حتى أبطأت

السيارة من سرعتها إلى أن توقفت تمامًا. فُتح الباب فخرج أحدهم وتناهى إلى سمعي صوت خطواته فوق الحصى.

«السلام عليكم. أحضرتموه معكم؟» سأل بالعربية صوت مختلف في الخارج فاستغربتُ الأمر.

«وعليكم السلام. بالتأكيد. ها هو يجلس في المقعد الخلفي. تفضل تحقق بنفسك» قال صاحب صوت مألوف.

فُتح الباب الخلفي فخرج الشاب عن يميني وأحسست بأنفاس أحدهم تقترب مني ثم بيد تمسك بذقني وتدير وجهي ناحية اليمين ثم ناحية اليسار.

«أزل العصابة عن وجهه، أريد أن أرى عينيه وأتأكد من هويته» قال العربي الغريب.

لم أسمع ردًا لكني شعرت بالأنامل وهي تتسلل خلف رأسي وتفك العقدة وتزيل العصابة.

فتحتُ عينيّ بصعوبة لأجد وجهًا متجهمًا لفحته الشمس يحدّق في ملامحي ويقلب وجهي بين أصابعه.

«نعم، هو شلومو. وجهه مطابق للصورة التي أملكها» قال مخاطبًا كبير الخاطفين قبل أن يردف بالعبرية وهو ينظر إليّ «تفضل معي يا شلومو، ستأتي معي».

«ستأخذني إلى عائلتي أليس كذلك؟» سألته بالعربية متوجسًا.

«يتكلم العربية ابن ال..» شتم أحد الخاطفين.

ابتسم العربي المتجهم «تعال معي. ستعلم وجهتنا في حينها.

لا تقلق، ستكون بخير».

نزلتُ من السيارة وتبعتُه. لوّح بيديه للعصابة دون أن ينطق بكلمة أخرى.

ركبتُ خلفه وتشبثتُ بصدره فانطلقت الدراجة النارية في طريق وعر لا أعرف أين ينتهي.

48

طـرق فـي جمجمـة رأسـي لا يتوقف. تغريدة كنـاري رتيبة تصـدح فـي عقلـي مرارًا وتكـرارًا. يتعالى صـدى صوت مألوف ينادي باسمي. لانا. لانا. لانا.

أفتح عينيّ وأجول بناظري بحثًا عن مصدر تلك الأصوات التـي أرقـت مضجعـي. أحدهـم يقف بباب السـرايا لا يكف عن الطرق وضرب الجرس. انقبض قلبي كالعادة ولم أستبشر خيرًا. أي مصيبـة جديـدة تنتظرنـا؟ على من سـيقبضون هذه المرة؟ ثم فجأة تذكرت. عن أي سرايا أتحدث؟ نحن في كندا. ماذا دهاني؟

لكـن، نعـم. هـو طرق على بـاب المنزل. أمـي تناديني تارة وتنادي هشام تارة أخرى لننهض فننظر من بالباب.

أقـوم متثاقلـة أترنـح وأنـا نصف نائمة أجر قدمـي بصعوبة. اسأل من خلف الباب بالإنجليزية عن هوية الزائر في هذا الوقت المبكر.

«الشـرطة. افتحـي الباب» رد صوت رخيـم بإنجليزية ثقيلة. العين السحرية معتمة لا تفصح ولا تشي.

«حسـنًا. لحظات». أرجع بعد ثوانٍ معدودات وقد وضعت على رأسـي ما يسـتره. أدير القفل وأشـق الباب لأنظر من يقف

وراءه وبأي حق حجب العين بيده.

اندفع إلى الداخل عنوة وهو يجر حقيبة خلفه.

رفعتُ رأسي لأنظر في وجه ذلك المقتحم. تسمرتُ في مكاني.

«من بالباب؟» تعالى صوت أمي في الخلفية.

فشلت الكلمات في الخروج من حنجرتي.

خطى الرجل بضع خطوات وهو ينظر إليّ بابتسامة جمعت ما بين الحيرة والترقب.

«سأنتظر هنا طويلًا؟» سأل بصوت مرتفع.

هززت رأسي لأنهض من حلمي، ولكن دون جدوى. بعض المنامات مزعجة. تستيقظ فيها مرارًا لتجد نفسك في كل مرة وقد خُدعت بأحداث حلم جديد.

هشام يصيح مناديًا أمي وهو ينطلق ليرتمي في أحضان الرجل الذي رفعه عاليًا وهو يضحك.

أمي تصرخ من هول المفاجأة وتنضم إلى أخي.

أنا لا أزال غير مصدقة أنتظر أن أفيق أخيرًا لأتجنب ألم لقاء وهمي استحثه عقلي الباطن.

«لانا. ألن تسلمي على أبيك؟»

أقترب منه بخطوات ثقيلة وأنا على يقين بأني سأستيقظ في أي لحظة الآن.

أرتمي بين ذراعيه وأفقد السيطرة على دموعي فأدعها تنهمر بحرية.

«متى خرجت وكيف؟ لماذا لم يخبرنا المحامي ولا سمعنا بالأمر في نشرات الأخبار؟» سألت أمي بالنيابة عنا وقد تبلل وجهها هي الأخرى وقد أصابتها العدوى.

أخذني أبي من يدي وباليد الأخرى تعلق هشام وجلسنا على أول أريكة صادفها «طلبت السلطات الإسرائيلية التكتم على الأمر وقد أخطرت السفارة الكندية البارحة بنيتها الإفراج عني بعد أن استجدت بعض الأحداث التي برّأت ساحتي تمامًا وفقًا لما أخبرني به المحامي. أخلي سبيلي وتوجهت إلى المطار على الفور بعد أن اشترطوا عليّ عدم التحدث إلى أي من وكالات الأنباء أو الصحف أو المحطات الإخبارية» تنهد أبي قبل أن يردف «حتى هذا اللحظة لا أملك أي معلومات حول المستجدات التي دفعتهم إلى إطلاق سراحي. المهم في الأمر أنني أصبحت بينكم الآن وقد رفضت التوقيع على أي من التعهدات التي طالبوني بها» توقف لحظات متفكرًا ثم قال وهو ينظر في الفراغ «سنعود قريبًا إن شاء الله إلى منزلنا في فلسطين» أرادت أمي أن تعترض فضغطتُ بيدي على أناملها وهززتُ رأسي فأحجمت.

49

«اتصل الشيخ يبشرنا بسلامة الوصول إلى غزة مع الأمانة».

«حقًا؟ لا أعلم كيف يستطيع هؤلاء اختراق الحدود بهذه السهولة».

«لابد أنهم حفروا أنفاقًا على الحدود مع إسرائيل كما فعلوا بحدود غزة مع مصر».

«ستكون ضربة موجعة للدولة عندما يظهر صاحبنا في تسجيل جديد من داخل غزة».

«بالتأكيد. خاصة بعد أن أصبناهم بالدوار بتسجيل عملية القتل ثم التسجيل المضحك لتنظيم الدولة، ليأتي بعد ذلك أعداؤهم في الطرف الآخر ويعلنوا أن القتيل لم يقتل وأنه بخير في حوزتهم».

«لن يخطر ببالهم أن المدبر الحقيقي لكل ذلك رجل واحد منهم وفيهم».

«دعنا من ذلك الأمر. الشيخ يريدنا في عملية جديدة».

«الشيخ؟ ظننتُ أن المعلم هو الذي يخطط للعمليات».

«لقد انتهينا من صفقة المعلم. يبدو أن الشيخ قد أعجبه التعامل معنا ويود أن يلتقي بنا للتخطيط لعملية جديدة».

«لكننا بذلك نعرض أنفسنا لخطر كبير. فأن نعمل لحساب رجل أعمال يستخدمنا في تنفيذ مخططاته القذرة أمر، وأن نُتهم في قضية إرهاب وأن يثبت تعاوننا مع الأعداء بشكل مباشر أمر آخر. إن قُبض علينا فلا أستبعد أن ينفذ فينا حكم الإعدام بتهمة الخيانة العظمى، وخاصة أن أصولنا عربية. لن يشفع لنا أن طائفتنا قد انخرطت في الجيش وقدمت خدمات جليلة للدولة. سنكون ببساطة كبش الفداء».

«لا تكن متشائمًا هكذا. سنلتقي به ونسمع منه. إن وجدنا أن العملية خطرة أو غير مجزية سنرفضها ببساطة. لا داعي للقلق. نحن أصحاب القرار هذه المرة. على الأقل لن نكون تحت رحمة ذلك الجشع ونرضى بالفتات. نستطيع أن نفرض شروطنا والمبلغ الذي نراه مناسبًا».

«حسنًا. أتمنى أن تكون محقًا. متى سنلتقي به وأين؟»

«صباح الغد في الساعة السابعة. في نفس الموقع».

«ألن تخبر المعلم بالأمر؟»

«لابد أنك أبله. ألا تعي ما أقول؟ هذه عملية خاصة لا علاقة للمعلم بها. انتهى عملنا عندما سلمنا الفتى للشيخ بناء على طلب المعلم الذي قبض الثمن مرتين. مرة من الأب الذي وقع الشيكات ومرة أخرى من الشيخ. أما نحن الذين تلطخت أيدينا بالدماء فقد اكتفى بأن رمى لنا بعظمة نلتهي بها. هذه المرة لن يكون للمعلم أي علاقة بالأمر ولن يشاركنا رزقنا».

«ألن يعلم بالأمر عندما ينتشر خبر عملية اختطاف جديدة؟»

«أولًا نحن لا نعلم إن كانت عملية اختطاف، وإن كانت كذلك فهذا لا يعني أن نكون نحن بالضرورة من قام بها. لا تكثر من التفكير ودعنا غدًا نلتقي بالشيخ ونسمع منه».

«فلتذهب وحدك للقائه. قلبي يحدثني أنها عملية خطرة وستجر علينا ويلات نحن في غنىً عنها».

«حقًا؟ لم أعلم أنك جبان إلى هذا الحد».

«قل ما تشاء. سنلتقي عندما ترجع».

«حسنًا. سأذهب بمفردي، ولكن تذكر أنك أنت من جبنت. لن تحصل على حصتك كاملة هذه المرة».

«ربما لن أشارك في العملية كلها».

«ألهذه الدرجة أصبحت خرعًا خوافًا؟ كما تشاء. ستوزع الغنيمة إذًا على عدد أقل من الأفراد».

«هنيئًا لكم. أما أنا فرقبتي غالية ولن أعرضها للمقصلة».

50

خبر عاجل

«أكدت السلطات الإسرائيلية قبل قليل خبر تحرير الرهينة «شلومو موشيه وايزمان» قبل أيام أثناء محاولة تهريبه إلى قطاع غزة من قبل أحد الكوادر العسكرية التابعة لحركة حماس. وقد فُجرت مفاجأة من العيار الثقيل عندما أشار الخبر إلى أنه وبعد تحقيق مكثف تبين أن شلومو كان قد أصبح في حوزة رجل حماس قبل ساعات قليلة فقط من القبض عليه وأنه طوال الشهور السابقة كان محتجزًا لدى مجموعة محلية داخل إسرائيل لا تمت لحماس أو لأي من التنظيمات الفلسطينية بأي صلة.

وقد أعلن المتحدث باسم جهاز الأمن العام الإسرائيلي «الشاباك» أنهم قاموا بنصب كمين محكم للمجموعة المحلية الإسرائيلية وتم القبض على قائدها، والذي بدوره أفشى بأسماء جميع أفراد عصابته، وقد تبين أنهم جميعًا عرب إسرائيليون من الطائفة الدرزية. وبعد تحقيق سريع مع العصابة، اعترف أعضاؤها بأنهم قاموا باختطاف موشيه وايزمان وولده شلومو من قصر العائلة في تل أبيب بإيعاز وتخطيط من رجل الأعمال بنيامين وايزمان الذي تبين أنه قام بإرغام أخيه على توقيع عدد

مـن الشـيكات وأذون الصرف باسـمه مقابـل أن يتم الإفراج عن ولده شلومو، وهو ما لم يحصل، إذ أكدت التحقيقات أن بنيامين أصدر أوامره للعصابة بقتل موشيه ودفنه في أحد البيوت العربية في يافا. لم يكتف بذلك، ولكنه أمر بنشـر عدد من التسـجيلات المصورة المضللة قبل أن يقدم على التواصل مع حركة حماس سرًا ليبيعهم ابن أخيه شلومو ليكون رهينة لديهم مقابل مبلغ كبير من المال. وقد أكدت السـلطات الإسـرائيلية خبر اعتقال بنيامين وايزمان صباح اليوم، وأفصحت عن قيامها بإطلاق سراح يوسف الباتع قبل ذلك، والسماح له بالسفر إلى كندا ليلتحق بعائلته، بعد أن تأكدت براءته الكاملة من جميع التهم التي نسـبت إليه. وقد قمنـا فـي قناة الجزيرة بمجرد انتشـار الخبر بالتواصل مع السـيد يوسـف الباتـع، وهـو معنـا الآن على الهواء مباشـرة من تورونتو الكندية:

«مساء الخير سيد يوسف ومبارك عليك إطلاق سراحك. ما هو تعليقك على كل ما جرى؟»

«مسـاء النور وشـكرًا لك. بداية أنا سـعيد بالطبع بالتحاقي بعائلتـي وظهـور براءتي أمام العلن بعد هذه الشـهور الطويلة من الاحتجـاز الجائـر وإن كنـت أتمنى أن أحتفل بهذه المناسـبة في منزلنا في يافا بحضور الجيران والأصدقاء».

«هل تفكر سيد يوسف بزيارة إسرائيل مرة أخرى؟»

«لا تهمني إسـرائيل في شـيء. سـأعود مع عائلتي إلى بلدنا يافا في أقرب وقت، ولكن هذه المرة لن تكون مجرد زيارة وإنما

إقامة دائمة في سرايا العائلة».

«وهل تتوقع أن تسمح لك السلطات الإسرائيلية بذلك؟»

«لا أعلم بما ينوون فعله، ولكني عازم على المطالبة بحقي في العودة والإقامة في وطني، بل أؤكد اليوم عبر قناتكم على أنني أنوي مقاضاة السلطات الإسرائيلية لاحتجازي كل هذه الشهور بدون أي وجه حق».

«نتمنى لك التوفيق في مساعيك. هل ترغب في أن تضيف أي شيء آخر سيد يوسف؟»

«نعم. في الحقيقة أود التعبير عن سعادتي أنا وعائلتي بخبر إطلاق سراح شلومو ونرجو أن يلتم شمله بوالدته السيدة أبيجيل قريبًا، وندعوهما إلى زيارتنا في السرايا عندما نعود إليها في القريب العاجل».

«شكرًا لك سيد يوسف ونتمنى لك عودة ميمونة إلى يافا.

نلفت عناية المشاهدين إلى أننا حاولنا التواصل مع عائلة السيد بنيامين وايزمان للتعليق على الخبر، ولكن دون جدوى. كما حاولنا الوصول إلى السيدة أبيجيل عزيراف ولكننا لم نهتد إلى عنوانها الحالي أو رقم هاتفها. سنوافيكم بمزيد من التفاصيل حال ورودها إلينا»».

51

أخلـوا البارحـة سـبيلي بعد سـاعات تحقيـق طويلة لا تليق بضحية. انتهى الأمر أخيرًا بالقبض على عمي قاتل أخيه. أخبرني المحقق أن على أن أرفع قضية لأسترد ورثي المسلوب وأموال أبـي وممتلكاتـه المنهوبـة التي اسـتولى عليها عمـي وباقي أفراد عائلته التي لا يشرفني أن أحمل اسمهم ولم أشعر يومًا بانتمائي إليهم.

توجهـت مـن فوري إلى منزل أمـي. طرقتُ الباب وضربت الجـرس وناديـت باسـمها مـرارًا. انتظـرت طويـلًا، ولكن ما من مجيب. انقبض صدري فتكومتُ أمام باب منزلها ودفنت رأسي بيـن سـاقيّ ومكثـتُ ما شـاء الرب لي أن أمكـث. غفوتُ ومرت ساعات لم أعدها. نهضتُ عندما أيقظتني قرصة البرد بعد أن هبط الليل. أعدتُ المحاولة، ولكن دون جدوى. أمي ليست بالبيت. التهمتنـي هواجسـي وأنـا أعلم أنهـا وحيدة من غير صديق حميم أو قريب رحيم. ازداد قلقي وقد تذكرتُ أن أمي لم يسبق لها أن باتت خارج المنزل. باغتتني الأفكار المشؤومة. هل أصاب أمي مكروه ما عندما علمت باختطافي أو شاهدت التسجيل المزيف لمقتلي؟ أنا نفسي ارتعدت فرائصي عندما عرضه المحقق علي.

شُـل تفكيـري فانطلقـتُ على غيـر هدىً ووجدتني وقد سـاقتني قدماي إلى مهجعك يا شجرتي العزيزة.

بوابة السـرايا مغلقة بإحكام بسلسـلة وقفل. طرقتُ وقرعت الجرس ولديّ بصيص أمل أن تفتح لانا لي الباب. آلمتني يدي من شدة الطرق. أيقنتُ أن السرايا فارغة. حدثتني نفسي بأن أتسلق السـور كمـا اعتـدتُ أن أفعـل فـي زمن مضى، لـم تنتظر أطرافي مباركتي ووجدتني وقد أصبحتُ فجأة خلف السـور، وها أنا ذا أستلقي في ظلك يا برتقالتي الغالية. ذهبت أوراق حكايتي أدراج الريـاح، ولكنـي حفظتهـا عن ظهر غيب لأقصهـا عليك. ولكن، أفـلا تخبرينـي بدورك عما حـل بأحبابي؟ أين ذهبت أمي؟ وماذا حـل بلانـا وعائلتها؟ لماذا تركني الجميع وحيدًا هكذا؟ لماذا لا تجيبيني؟ من يجيبني إذا لم تفعلي أنت؟ أسمع حفيف أوراقك. لماذا لا أشعر بالطمأنينة التي اعتدتها في وجودي بقربك؟ ثم هل اعتنيتِ بجسد والدي عندما شاء الرب أن يرقد في حجرك ربما تحت هذا التراب الذي أضع عليه رأسي الآن؟ هل استوصيت به خيرًا كرامةً لي؟ أخالك فعلتِ فأنت لست مثل البشر. لم تتعلمي المكائد والأكاذيب وخيانة العهد. مهما فعل بك الإنسان فإنك لا تتوقفين عن إظلاله بظلك وإمداده بحلو ثمارك وكأنك سُـخرتِ لمنفعتـه هـو فقط من دون باقي المخلوقات. ولكن هل نسـتحق نحن البشر كل هذا التكريم؟ ألم يكن أول فعل تعلمناه على هذه الأرض هو أن يقتل الأخ أخاه؟

دعـك منـي. أرشـديني فقط إلى أمي. لـم يبق لدينا أنا وهي

إلا بعضنا. سأنتظر حتى الصباح وأكرر المحاولة فإذا فشلت فسأطرق أبواب جيراننا العرب لعل أحدهم يدلني عليها. سأحاول ألا أسمح لهواجسي بأن تسيطر على تفكيري، فربما انتقلت أمي إلى منزل آخر لسبب أجهله، وإن كنت لا أدري لماذا كان هاتفها مقفلًا طوال يوم أمس وصباح اليوم عندما طلبت من المحقق أن يتواصل معها. لماذا لم تستمع إلى بريدها الصوتي فتأتي لتصحبني من مركز الشرطة؟ لماذا لم تفكر في العودة إلى المنزل لتكون في انتظاري وقد ضجت الدنيا بخبر تحريري؟ هل أصابها إذًا مكروه ما؟ أم أنها آثرت أن ترجع إلى المغرب عندما ظنت أني فقدت حياتي؟ كيف سأجدها الآن إن كانت بالفعل قد تركت هذا البلد الذي أسموه وطنًا لليهود ونسوا أن يزرعوا حبه في قلوبنا؟ ألم يخطر ببالهم أن يتساءلوا لماذا نسارع نحن اليهود بالهجرة العكسية إلى خارج الوطن المزعوم عند أدنى شعور بالخطر بينما يربي يوسف وأمثاله من العرب في المهجر أبناءهم على أنهم لابد عائدون مهما طال الزمن؟

لم يغمض لي جفن طيلة الليل، وانتظرت طلوع الشمس بفارغ الصبر. لم تجدِ محاولاتي في طرق باب أمي. قررت أن أعرج على البقالة العربية قبل أن أقض مضجع جيراني.

سلمتُ على صاحب البقالة وإذا به يأخذني بالأحضان. تصببت عرقًا على الفور وشعرت بضيق في التنفس وكأن أضلاعي انطبقت على بعضها. ما زلت كما أنا لا أطيق ملامسة البشر. هنأني على خروجي سالمًا من محنتي وعزاني في أبي.

أردت أن أسأله عن أمي ورتبت كلمات السؤال في ذهني وإذا به يبادرني:

«لقد ساءنا كثيرًا وأحزننا ما أصاب السيدة والدتك. من يلومها وقد فُجعت بخبر مقتلك بتلك الطريقة الشنيعة».

شعرت بأنفاسي تنقطع. شحب وجهي وارتجفت أناملي «هل ....انتح...رت أمي؟» سألته بصوت بالكاد مسموع وقد خرجت الكلمات متقطعة الأوصال.

«لا. لا. أبعد الله عنها الشر. يبدو أنك لم يصلك الخبر. لم تستطع أمك أن تتحمل خبر وفاتك فأصيبت بانهيار عصبي ونقلت إلى المستشفى. علمنا فيما بعد أن حالتها ساءت وتم تحويلها إلى قسم الأمراض العقلية. لم يصلنا عن أحوالها أي جديد منذ بضعة أسابيع».

دارت بي الأرض وكدت أفقد الوعي. مرت لحظات قبل أن أستعيد ثباتي ورباطة جأشي. أخذت منه عنوان المستشفى وشكرته وعقلي غير قادر على تقبل الخبر أو استيعابه. هل فقدت أمي صوابها بسببي؟

لم أتوقف عن ذرف الدموع طيلة الطريق وأنا في سيارة الأجرة. لم أعلم بأي حال سألقاها وإن كانت ستتعرف عليّ أصلًا. وصلتُ المستشفى وسألتُ في الاستقبال عن أمي ورقم غرفتها، وطلبت أن ألتقي بالطبيب الذي يتابع حالتها. لا أدري كيف انطلق لساني وخرجت الكلمات واضحة وحازمة. تعرفت موظفة الاستقبال على هويتي على الفور وكذلك فعل الطبيب.

لقد اتضح لي أنني أصبحت شخصية مشهورة بعد أن انشغل الرأي العام بقصتي.

أخبرني الطبيب أن حالة أمي سيئة وتقريبًا ميؤوس من شفائها. لم يعدني بشيء وشعرت بتوتره عندما رأيت الغرفة التي تُركت فيها ولمست بنفسي المعاملة السيئة التي حظيت بها من الممرضات. جن جنوني عندما وقعت عيناي عليها. كانت هائجة الرأس مقطعة الملابس. تفوح منها رائحة عطنة. تلبّستني روح ذلك الشاب القوي الذي بطش بالمتطرفين قبل شهور فأرغيت وأزبدت ووعدت بمقاضاة المستشفى والعاملين فيه. أخذت أمي بين أحضاني وهي لا تتعرف علي. خرجنا من ذلك المكان البغيض وأخذتها إلى مستشفى «أسوتا» الأفضل في تل أبيت وعموم إسرائيل.

منذ ذلك اليوم ولم أترك أمي لحظة واحدة. وعدني الأطباء خيرًا بعد أن شخصوا حالتها باضطراب كرب ما بعد الصدمة. دعوت الرب أن يرأف بي وبأمي، فكلانا لا غنىً لأحدنا عن الآخر.

52

حصل الكثير في الشهور الأخيرة. سرني كثيرًا خبر عودة شلومو سالمًا، وسعدت عندما علمت أنه استعاد جميع أملاكه وأن حالة أمه الصحية والنفسية تحسنت كثيرًا. لم أصدق عندما شاهدته على التلفاز في مقابلات مصورة يتحدث بثقة وسلاسة تكاد تخفي الجانب المتوحد من شخصيته. أعجبني تعمده في كل مقابلة ذكر عائلتي بخير، بل شعرت أنه يتحين الفرص ليبدي رأيه صراحة في الظلم الواقع على الفلسطينيين وقناعته الراسخة بأنهم الأصحاب الحقيقيون للأرض.

التزم والدي بما عاهد عليه نفسه فقد عاد إلى فلسطين بعد شهور قليلة ليعمل طبيبًا استشاريًا يتنقل بين المستشفيات الفلسطينية في الضفة وغزة يقدم خدماته وخبراته، ويزورنا في كندا كلما سنحت ظروف عمله.

لم توافق أمي على الانتقال للعيش في يافا بشكل نهائي أو السماح لنا بالدراسة هناك، لكنها توصلت مع أبي إلى حل وسط وهو أن نكمل أنا وهشام دراستنا في كندا لنضمن أعلى مستوىً من التعليم على أن نقضي جميع إجازاتنا الشتوية والصيفية في يافا إلى أن نكمل تعليمنا، وبعدها نقرر بأنفسنا إن أردنا أن ننتقل

للعيش والعمل في فلسطين أو نستمر في التنقل بينها وبين كندا.

لـم تكـن هـذه الترتيبات مفضلة لدي لأنها أجبرتني على أن أكـون بعيـدة عـن أبي فترات طويلة. كم تمنيتُ لو سُـمح لي بأن أكـون إلـى جانبه في فلسـطين، لكنـي لم أملك ما أواجه به حجة أمـي، فمسـتوى التعليـم فـي كندا أفضـل بكثير، واسـتقراري في فلسـطين بعـد أن أتـم تعليمي وأكتسـب بعض الخبـرة في العمل سيكون نافعًا أكثر.

قبل أيام وصلتني رسـالة الكترونية من شـلومو يخبرني فيها أنـه توصـل إلـى عنواني بعد عنـاء طويل وأنه يرغب في التواصل معي إن لم يضايقني ذلك، ويستأذنني في زيارة حديقة السرايا بين الحين والآخر. أرفق مع الرسالة صورة لشجرة البرتقال ابتسمتُ عندما رأيتها وخمنت أنه يزورها حتى من قبل أخذ الإذن. وجدت أيضًا في المرفقات ملفًا نصيًا اسـتغربتُ عندما فتحته واكتشـفتُ أنه كتاب من نوع ما كُتب بالعبرية لكن شـلومو لم يشـر إليه في متن رسـالته. تصفحته سـريعًا من أوله إلى آخره بحثًا عن صور أو كلمات بالإنجليزية ترشـدني إلى فحوى الكتاب. خطر ببالي أول الأمـر أن شـلومو أرسـله لـي بالخطأ، ولكني دُهشـت تمامًا عندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة ووجدتها وقد ذُيلت بكلمتين بالعربية:

«فلسطين عربية»

دفعنـي الفضـول إلى محاولة ترجمـة الكتاب أو على الأقل عنوانه. نسخت الصفحة الأولى وترجمتها آليًا فكانت النتيجة:

رواية. شجرة البرتقال. شلومو وايزمان.

فغرت فاهي وقد أدركت أن شلومو قد أرسل لي مسودة لرواية من تأليفه. امتعضتُ لأني لا أفهم لغتها ولأن الترجمة الآلية تفقد العمل الأدبي جماله. لم أستطع أن أجد ما أعبر به عن سعادتي بلفتته الجميلة، ولكني رددتُ على رسالته بلباقة وأخبرته أننا سنزور يافا قريبًا وأنني وعائلتي نرحب به وتشرفنا صداقته. لم أنس أن أسأل عن والدته وأتمنى لها دوام الصحة والعافية. في الختام أخبرته بأنني سررتُ كثيرًا بتسلم مسودة روايته وأنني سيسعدني أن أقرأها عندما تترجم إلى الإنجليزية أو العربية. ابتسمتُ في سري وأنا أرفق في ردي على رسالته ملفًا نصيًا باللغة العربية جمعت فيه ما دونته من خواطر توثق ما مر بنا من أحداث خلال زيارتنا إلى يافا. تخيلت رواية أكتبها أنا وشلومو معًا يسمح لي بأن أسميها «برتقالة جدتي».